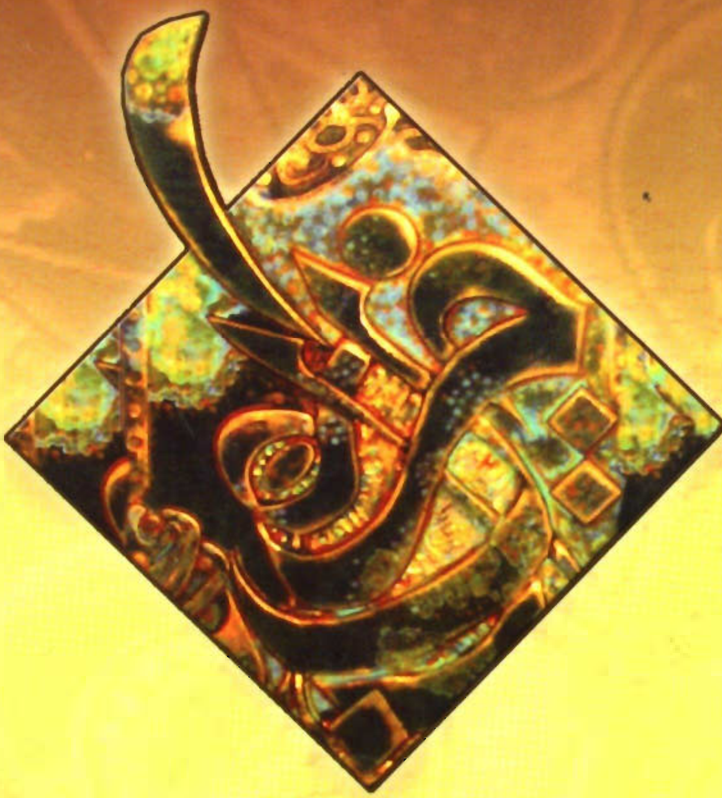
المرجع الديني
السيد محمد حسين فضل الله

مطارحات
في الشعر والفن والأدب



دار الملاك

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الملاك طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - قرب مستشفى الساحل - هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ٠١/٤٥٠٧٦٩
ص. ب ١٥٨/ ٢٥ الغبيري.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله الطيبين وأصحابه المنتجبين

وعلى جميع الأنبياء والمرسلين

وبعد.. فإن هذا السفر الفكري «مطارحات في الشعر والأَدب» الأدبي يُشكِّلُ جزءاً من نشاطنا ومن حركتنا الثقافية والأدبية بما قد يمثل زبدة انفتاحنا على الحياة من خلال الشعر والثقافة والأدب وبما قد يُشكّل خلاصة رؤيتنا لما واكبناه وعايشناه من انطلاقة تجربتنا الأدبية في العراق ولبنان على وجه التحديد.

إن هذه التجربة جزءٌ لا يتجزأ من حياتي بآفاقها وتطلعاتها ورؤاها وأحلامها. فالشعر يعني لي الرسالة في وعي الإحساس بالمسؤولية كما يعني لي الإحساس بالحياة بطريقة موسيقية في الكلمة والوزن وفي الاستغراق بجمالات الحياة التي كانت – ولا تزال مرحلة إنسانية تضج بالمسؤوليات الجسام والتي من بينها إبراز نظرة الإسلام للأدب نثراً وشعراً وموقفه من التجارب الفكرية والأدبية ومن بعض الفنون التي هي ركن آخر من أركان المعرفة وأساس في صياغة وبناء الشخصية الإنسانية الرسالية.

وقد رأيت أن تبويب هذه الآراء واللقاءات والحوارات والمطارحات والقضايا الأدبية وتنسيقها من قبل ولدّي العزيزين هاني علي عبد اللّه وعلي رفعت مهدي قد يساهم في عرض الصورة الأخرى من مسيرة عملنا الإسلامي منذ خمسين عاماً لأن التحديات الفكرية والثقافية والأدبية التي نعيشها باتت تحتاج إلى تكامل الجهود جميعها تحقيقاً لما نصبو إليه ونطمح لإنجازه من إبداع وفكر وعطاء. وإني إذ أترك للقارىء حرية السياحة في هذا السفر، أسأل اللّه تعالى أن تكون أعمالنا زاداً ليوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون.

والله حسبنا ونعم الوكيل

محمد حسين فضل اللّه

بيروت في ٨–ربيع الأول ١٤٢٧

٦ نيسان ٢٠٠٦م



المحور الأوّل

تمهيد وتقديم

ربِّ رحماك إنَّ روحي تذوي
وفؤادي يذوبُ شيئاً فشيَّاً
وأراني أعيشُ في غمرةِ الأوهامِ
ظمآن لا أرى لي ريَّا
ما أنا، ما الحياةُ، ما الروحُ عندي
غيرُ سرٍّ يبدو لديَّ خفيَّا
لا أرى في الحياةِ إلاَّ خيالاً
مضمحِّلاً تحسُّهُ مقلتيَّا[1]

(١) محمد حسين فضل الله، ديوان «قصائد للاسلام والحياة»، ط٢، دار الملاك، ص: ١٣-١٤، «ربِّ رحماك».

في محراب شعريته

ماذا يريد الشعر من السيِّد؟

الشعر الذي اقتحم على السيد وجوده، فمنحه السيد حكمته الإنسانية وسحر بيانه وصدق معناه.

ماذا يريد الشعر، من سليل أسرة الفقهاء والشّعراء والمبدعين؟

وهل الشِّعر سوى الحياة!

وأغنيةُ الحياةِ ونشيدُها «إسلامٌ» نَظَم السيِّد فيه قصائده!

حُبّاً، إنسانياً، كوناً أُمَّةً، مجتمعاً، حياةً، سياسةً، ووجداناً... *

فكانت...

«قصائدُ للإسلام والحياة» *

مرآةً عكست سيرة حياة وتجربة عملٍ وخلاصة فكرٍ...

فما الشِّعر في حياة السِّيد؟

ولماذا كانت رحلةُ الشِّعر في كيانه وعقله ووجدانه.

هكذا هو...

يأتي إليه!

---

* إشارة إلى ديوان سماحته قصائد للإسلام والحياة، الصادر عن «دار التعارف للمطبوعات» ط١، ت:١٩٨٦ ودار الملاك: ط٢، تاريخ ٢٠٠١.

* إشارة إلى ديوانه «على شاطئ الوجدان» الصادر عن دار الريِّس ــ لندن ــ تاريخ ١٩٩٠.

ملتمساً منْه لحظة أنسٍ، وهناء طمأنينةٍ، وشغفاً بالمآتي
ويُتمتِمُ طفلُ عيناثا الجنوب.
ليُدون الزمنُ له في سجلّ الخالدين...
تجربةً، حيةً متماهيةً، حركّةً، فوارة بالأملِ والحبِّ والسمّو... وتنطلق الحكايّة! «إنَّ الشّعر يعني لي الإحساس بالحياة، بطريقةٍ موسيقية في الكلمة وفي الوزن، وفي الاستغراق بجمالات الحياة».(١)

ولادة الشِّعر في حياة السيّد:

هكذا اختصر سماحة آية الله العظمى العلاّمة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله، تجربته الشعريّة الرائدة، وهو وليد العراق، مهد الشعرِ والفكر والأدب.

فالسيِّد ممّن ولد الشِّعرُ على أفواههم، وهم في سنّ تفتُّح البراعم ليمُرَّ مَوكبُ الربيع حُبّاً وأملاً، وليحملهم الصَّيف ثمار وحيٍ وجنى، ومواسم خيرٍ وفلاح. فالعلاَّمة الذي أطل على دنيا الوجود عام 1936 لم يفكّر أن يكون شاعراً فحسب لأنَّ الشعر فرض نفسه عليه. فرضها وجداناً شبابياً لا يتنكر سماحته لكلّ مشاعره وهو يلجُ محراب السَّبعين، لأنّ في شعر الشباب الذي كان السيِّد يعيشه في نبضاتِ القلب وارتعاشاتِ الإحساس واهتزازات الوجدان ما يُغْني الحياة وهو ما سنراه في تجربة الغزل التي كانت تنطلق في آفاق التجريد لا في حركة التجربة الحيَّة، حيثُ كانت رؤى الغزلِ وأحلامُ الوجدان، ونفحات القلب انطلاقةً في الخيال وليس إحساساً في الواقع. والسيِّد المرجع شاعر الفقهاء وفقيه الشُّعراء، «لم يختره» وحي الشِّعر ووادي عبقره. فربَّما اختار الانفتاح على الشعر وتحريك تجاربه وإغناء مضمونه من خلال القراءات التي صقلت موهبة السيِّد الشعريّة، وأغنت معجمه الشِّعري لفظاً ومعنًى وأسلوباً ومضموناً.

---

(١) محمد حسين فضل الله، (العلامة فضل الله وتحدّي الممنوع) دار الملاك ص: ١٥٩، ط١, ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

القراءات الشِّعرية:

هذه القراءات التي واكب من خلالها جيْل الكبار من شعراء العراق وعلى رأسهم شُعراء النّجفِ الأشرف، لأنَّ مجتمع النّجف كان مجتمعاً شاعراً، وواكبت الحركات الأدبيَّة في المهجر والعالم العربّي: فقرأ جبران، وأبا شبكة، وإيليا أبو ماضي، وصلاح لبكي، ومحمد الفيتوري وعلي محمود طه، وأحمد حسن الزيّات، ومخائيل نعيمة، ونزار قبّاني، حتّى أنّه ما أمسك بورقةٍ نثراً كانت أم شعراً إلاّ ومتَّع ناظريه بها، وجعل شفتيه تتمتانِ بحروفها.

... هكذا بدأ الفتى اللبنانّي يفتح عينيه على آفاق الصَّحراء، لُيطلَّ من خلال هذا الانفتاح، والرؤية على خضرة الإبداعِ والخلقِ والابتكار، فإذا بالقريحةِ تتفجَّرُ ينبوع شِعْرٍ دافقِ بروح المسؤوليَّة والعنفوانِ والحنين فخلال أحد عشر عاماً وتحديداً ما بين عاميّ ١٩٤٧ و١٩٤٨ كان السيِّد يُطالع مجلاَّتٍ أكبر من سنِّه ومن ثقافته منها: مجلّة «الرسالة» ومجلّة «الثقافة»، في نفس الوقت الذي بدأ سماحتُه فيه كِتَابة الشِّعر دون أن تكون له ثقافة شعريّة واسعة. فما هي الأبيات الأولى التي نظمها سماحة العلاَّمة المرجع السيد محمد حسين فضل الله؟ وما هي الموضوعات التي انفتح عليها من خلال الشِّعر؟ وإلى أيِّ مدى أسهم الشِّعر في رفد حركةِ السيّد الأديب الشاعر الفقيه المجتهد المفكّر والباحث الإسلامي؟

الأبيات الأولى، والعلاقة مع مقام أمير المؤمنين

يقولُ سماحة السيِّد: «أذكر سنة سقوط فلسطين عام ١٩٤٧، نظمُت قصيدةً لا أزال أذكر منها بيتين:

دافعوا عن حقّنا المغتصب في فلسطين بِحدّ القُضُبِ
واذكروا عهدَ صلاحٍ حينما هبَّ فيها طارِداً الأجنبي

حصل ذلك في أجواء حرب فلسطين الأولى والتي انتهت بسقوط فلسطين في أيدي اليهود. كما أنّي في ذلك الوقتِ أو قبله أذكر أبياتاً كتبتها وأنا في العاشرة من عمري لا زلت أحفظ منها:

فمن كان في نظم القريض مفاخراً ففخري طُراً بالعُلى والفضائلِ
ولستُ بأبائي الأباة مفاخراً ولستُ بمن يبكي لأجلِ المنازلِ
فَإِنْ اكُ في نيل المعالي مقصّراً فلا رجعت بأسمي حُداة القوافلِ
سأنهجُ نهجَ الصَّالحين، وأرتدي رداء العلى السامي بشتّى الوسائل.
وأجهد نفسي أن أعيش معزَّزاً وليس طلاب العزّ سهل التّناولِ

... ويُعايشُ الشِّعر سيِّدهُ النّاشئ...

السيِّد الذي نما وشبّ وترعرع في مقام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولأن السيِّد كان من أصحابِ الصّوت الحسنِ والجميل في مجال الدُّعاء، فقد طافت بخاطره كلماتُ الوجد والحبّ والشوق والحنين لعالم الملائك حيثُ العدلُ الإلهي والمسّرات التي لا تعرفُ غِلاً ولا حقداً ولا حزناً، وبدأتُ روحُ العلاَّمَة تَحِنُّ إلى ظلال الله، وفمُهُ يُحدثُ عن آلاء اللّهِ وعطاياه ونعمه، فالكونُ كونُ الله، والإنسان هبة الله تتحرّك على وجه البسيطة، وانطلقت تَجربةُ قصائد للإسلام والحياة!

مقّدمة قصائد للاسلام والحياة[1]:

عام ١٩٨٦ نُشر ديوان قصائد للإسلام والحياة، وهو الديوان الذي جَمع ما بين دفتيه أكثر من «خمسين» مطوّلة شعريّة، وفي شتّى الموضوعات. وقد قدَّم سماحة العلاَّمة المرجع للديوان

(١) – مقّدمة ديوان قصائد للاسلام والحياة، ط (١و٢) ص: ٩و١٠.

بقوله «هذه قصائد لم تكتب في وقت واحد بل كتبت في فترات متباعدة.

فقد يلاحظ القارئ أنّ تاريخ بعضها يرقى إلى ما يقارب الخمس وثلاثين سنة ولكن يجمعها أنّها تتّصل بالجانب الإسلامي والسياسي والروحي من الحياة.. وربّما كان في ملامح بعضها، بعض الاتجاهات الفكريّة التي لا تُمثّل اتجاهي الآن.. وربّما كان في بعضها، بعض الأحاسيس الذاتية لا تلتقي بالأجواء التي أتحرَّك بها في أحاسيسي الخاصّة الآن.

إنّها تُمثّل فترة عمر، وتجربة حياة ومعاناة فكر...

وقد أرادني بعض الأخوان أن أقدمها للقرّاء، لأنّه رأى في الكثير منها وجهاً من وجوه مرحلة تاريخية من مراحل نمو الحركة الإسلامية وتطّورها في نتاج أحد العاملين فيها منذ البداية [1].

جاءَت موضوعات القصائد مرايا عكست كُلّ الواقع الإسلامي والوجداني لسماحته، ففي ديوان قصائد للإسلامِ والحياة تُطالعك الموضوعات:

- مع الله.
- في رحاب رسول الله (ص).
- في رحاب أهل البيت (ع).
- في أجواء الدعوة الإسلاميّة.
- في أجواء الثورة الإسلاميّة.
- في أجواء الثورة والحياة.
- مع النّفس.
- مع عُلماء الإسلام.. في حكايات رثاء.
- يوميات إسلاميّة.

---

(١) ـ مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان, ص ٩ . دار رياض الريِّس للنشر .ط ١, ١٩٩٠ .

وكلٌّ من هذه الموضوعات أو المحاور تناول في مضامينه وقائع تجارب السيِّد الحياتيّة. فإذا بشعره يُعبِّر تعبيراً صادقاً عمّا آمن به وسعى إليه من «أنّ الشِّعر إحساس بالحياة» وما قيمةُ الشِّعر إذا لم يبنِ المجتمع، إذا نظرنا إلى المجتمع كمحور إنسانيّ يحاولُ أن يتحرّك في الحياة بشكلٍ يلتقي بها ويخدمها ويحتضنها ويعيش كلّ إيماءاتها وأوضاعها» وما قيمة الشِّعر «إذا لم يبن المجتمع في كلّ حاجات المجتمع الفنيّة والإبداعية والفكريّة والسياسيّة، لأنَّه عندها يكون بلا مضمون، لأنّ الشِّعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبُح شيئاً لا معنى له»[1].

الغنى في التجربة

إنّ عودةً سريعة، وقراءةً لتراث السيِّد الشِّعري تُظهر بوضوحٍ هذه الحقائق مجتمعة. فأنت تقرأ في شعرِ السيّد تجربة الغزل، وتجربة السياسة، والتجربة الاجتماعية، والروحية، والعقائدية، والوجدانية، وتُّطِلُّ من خلال شعره على الحداثةِ والشِّعر الحرّ، وعلى ألفاظ البداوة العبّاسيّة والأمويّة والجاهليّة، وتقرأ لغةً شِعْريّةً متميّزة بموسيقاها وإيقاعها ونغمها.

لعلّ هذا ما يُريدُه الشعرُ من السيِّد ولعلّ هذه المرحلة التي شدَّت رحالها إلى رحاب قلبِه لتستقَّر فيه وهو في العاشرة من عمره، وليكون الشِّعر عنده تجربةً غنيّةً بالمضمون الفكري، حتّى في ما يتّصل بفكر الإحساس، وليحمل الشعر قضايا العصر معبِّراً عنها مرشداً وهادياً وناقداً وموحياً.

فما هي الاتّجاهات الشعريّة التي خاض السيِّدُ غمارها. وغاص في أعماقها، واستخرج دُرّها وجوهرها؟

وما هي الاتجاهات والدلالات التي تُستوحى من هذه التجارب المبدعة؟

ولنبدأ من الاتجاه الروحي أو الشِّعر الدِّيني عند سماحة العلاَّمة السيِّد:

---

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ط١، دار الريس – لندن – ص١١ – ١٩٩٠.

الإتّجاه الروحي

في قصائد للإسلام والحياة اتّجاهٌ شعريٌّ روحيٌّ، كان لتأثيرات المجتمع الذي عاش السيِّد فيه أبعد الأثر في تكوينه النّفسي، وصقل موهبته الشِّعريّة، ففي جوّ الصحراء، وتحت لهيب الشّمس المحرقة كانَ السيِّدُ يتوجّه ماشياً إلى مقام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وفي رحاب ذلك المقام الشريف كان المؤمنون ينتظرون السيِّد الفتى اليافع والشّاب المنفتح على آفاق الكون ليسمعوا دعاءه ومناجاته، وتوسُّله بالله تعالى، ورجاءه أن يكون من المغفور ذنبهم، المشكور سعيهم والمستجاب دُعاؤهم.

بهذه الروحيّة العابقة بصدق الولاء، وقداسة الإيمان، وتقوى الإيمان، وتقوى المعرفة، حلّقت روح السيِّد في عالم الملكوتِ مستلهمةً منْه كلّ معاني الجلال والعظمة والطهارة والقداسة، فإذا بكلِّ المعاني السّامية من الرحمة والمحبّة، والاعتراف والابتهال، والصلاة، والمناجاة، والهوى، والحيرة والأمل تتلبّسُ هذا الإنسان السيِّد الشّاعر، ولتعيدهُ إلى عالم الواقع سفراً خالداً عنوانه «مع الله». ومن قصائده:

«ربِّ رُحْمَاكَ» ومنها:

ربِّ رُحْمَاكَ إنَّ روحيّ تذوي ... وفؤادي يذوبُ شيئاً فشيّاً.
وأراني أعيشُ في غمرةِ الأوهامِ ... ظمآن لا أرى لي ريَّا
ما أنا. ما الحياة. ما الروحُ عندي ... غيرُ سرٍّ يبدو لديَّ خفيّا.
لا أرى في الحياة إلاَّ خيال ... مضمحلاً تحسّهُ مقلتيّا[1].

XXX

(١) محمد حسين فضل الله ،قصائد للاسلام والحياة ،ط٢ ، دار الملاك، ص:١٣ (ربِّ رحماك).

ربِّ رُحماك قد ضللتُ طريقي والهدى فاهدني صراطاً سويًا.
أنا مالي أسعى، وألتمس الدَّرب ولا أبصرُ الشّعاع المضيّا.
أنا في حيرةٍ أفكّرُ في ذاتي كأني أتيت أمراً فريّا.
أنا يا رب تائه وغريب لا يرى في الحياة ورْداً هنياً.[١]

XXX

لقد تساءل السيِّد عن سرِّ وجودهِ وحياته وروحه، واشتاق رحمة الله العظيمة والتي كتبها المولى العزيز على نفسه «كتب على نفسه الرّحمة» هذه الرحمة التي أملها السيِّد في الزّمن الذي تشعّبت وكُثرت الأهواء ليفكّر في ذاته، وليؤمن أنَّ التيه والغربة والضَّياع درب إلى اليقين الذي أحبَّه وشغف به. ويقارنُ في ظلّ روحيتهِ وعالمه الديني بين آمالِه وأمانيه وواقع الحياة التي رآها ظلاماً يحقدُ على الحبّ، ويبني السُّجونَ للقلوبِ الراغبة بالهناء والطمأنينة، فيتساءلُ:

أنا ما لي وللمحيط فكم يجني على فكرتي ويقسو عليّا
جئتهُ والحياة تبسِمُ نحوي والأماني تموجُ بين يديّا.
وشعاعُ الآمال يبعث في رو حي شعاعاً من المنى عبقرياً
وشراعُ الأحلام يخفق في قلبي فيوحي لي الخيال السنيّا
أتهادى ما بين أحلامي البيضِ وأشدو مع الدُّجى والثُريَا
فإذا بي أرى الحياة ظلاماً وصباحَ الأحلام ليلاً دجيّاً
والأماني تموتُ في قبضةِ الحزن وتذوي على لظى شفتيّا[٢]
وأراني أعيش في سجنه الدا جي.. وحيداً بين الأنامِ شقيّا

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، ص:١٣-١٤ (ربِّ رحماك).
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط ٢ دار الملاك ،ص:١٣-١٤ (ربِّ رحماك).

ربِّ رحماك أنت قدرت لي ذاك   فهب لي إن شئت قلباً رضيّا[1]

X X X

قلب الإيمان:

ويهبُ الله تعالى للعلاّمة السيِّد قلب الإيمان المطمئن الرضّي، هذا القلب الذي لا زال كروح السيّد طريّاً، أودع الله فيه روعة الوحي، وبعث الشعور فيه رقيقاً، وسكب في خلاياه الشّباب فإذا بِهِ ينهجُ سبيل الدُّعاء طريقاً إلى الله، ودرباً للخلاص من أدرانِ الدُّنيا:

ربِّ رُحماك ما لقلبي وللحز   نِ ولمّا يزل كروحي طريًّا
صُغْتَهُ من عصارة الألم الـذا   وي فؤداً من الأسى شاعريّا
ثمَّ أَودعتَ فيه من روعة الوحي   خيالاً عذب الموارِد حيّاً
وبعثتَ الشُّعــور فيه رقيقاً   وسكَبْتَ الشَّباب فيه فتيّا
فمضى يصهرُ العذابَ نشيداً   ويصوغُ الآهات لحناً شجياً[2]

ويبدأ السيِّد بالدُّعاء، الدُّعاء الذي أحبّهُ السيِّد، وسكن قلْبه، فكان أنيس الليل، وسمير اللحظات الأنسية، فللمناجاة في ضمير السيِّد عنوانٌ بين حنايا النجف، فناجى وابتهل وتضرَّع ودعا:

ويناجيك في ابتهال مع الليل   فتهمي الدموع من ناظريَّا
لم يجدْ في الوجود قلباً حنوناً   فأنْله حنانــــك العُلْويَّا
هكذا هكذا يعيش بدنيـــــاه   يعاني شقاءه السَّرمديّا

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، دار الملاك، ص:١٤ (ربِّ رحماك)

(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، «صوفيّة شاعر» ص: ١٥، ط٢.

ثم يذوي على الضلوع من الوجد ويلقى نداه في أُذُنيَا
خفقةً خفقةً ويهوي مع الروحِ فيلقى هدوءَه الأبديّا [١]

صراع الروح والمادة:

وتتوالى قصائد الروح، ومقطوعات الدُّعاء، لترسُم بخطوطٍ من سحرٍ، انتفاضة آهات الجراحِ، في وقتٍ نأت فيه القِيَمُ والمُثُل والتعلُّق بالله، والاستمساك بالعروة الوثقى، وينطلقُ نداءُ السيِّد في هدأَةِ الليل البهيم معبِّراً عمّا آلت إليه حالةُ العلاَّمَة الروحيّة، فإذا بسماحته يعيش الصِّراع في أفقِ نفسه، متسائلاً عن الحياة التي مصيرها إلى زوال، وهذا ما نقرأه في قصيدة «صوفية شاعر» والتي تُعدُّ من روائع السيّد الخالدة، ومن مطوّلاته الشعريّة الحكميّة، لأنّها صلاة الوجدان والخواطر:

«ربِّ ــ إنّي وفي انتفاضات آهاتي جراحٌ، وفي حشايَ نصولُ
أتلظّى بين الجحيم وفي روحي نداءٌ إليك كيف السَّبيلُ
تاه بي عالمي إلى حيثُ لا أَدري، فدنياي وحشةٌ وذهولُ
ودُعاءٌ، في هدأة اللّيل يستهديك، والدّرب موحشٌ مجهولُ
كيف أسمو إلى الحقيقة حُراً وكياني مقيّدٌ مغلول». [٢]

الحقيقة التي بحث السيِّدُ في توسُّله ودعائه «لأن الله هو الحقُّ» والحقيقة ولأن حياته لم تَعُدْ كما كان يأمل:

«وحياتي شلْو تناهبهُ الرِّيح، وألوى بجانبيه الذبول

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢ دار الملاك، ص: ١٥ (صوفيّة شاعر).
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، ص: ١٦ (صوفيّة شاعر).

وصراعٌ في أفقِ نفسي، يجتاح شعوري به سؤالٌ طويلُ
عذَّبتني أوهامُهُ زمناً مرَّ تعاصت عليَّ فيه الحلولُ
ما حياتي هنا.. ونحنُ على الكونِ ظلالٌ ستمحّي وتزول
رنّحتنا الغيومُ، في هدأة الليل فماجت بنا الرُّبى والسهولُ
ومضينا مع الضّباب كما يرتَعُ في وحشةِ المكان النّزيلُ
هكذا نحن، حيرةٌ يرقصُ الوهمُ عليها، وتستطيلُ السُّدولُ
ربِّ هبني بَرْد اليقين فقلبي شعلةٌ ماج حولها التَّضليلُ».[1]

لم ينسَ السيِّدُ وهو في أوجِ دعائِه واقعه الذي يئنُّ ويرزحُ تحت وطأته وهو واقعُ التّضليل والوحشة والحيرة والوهم، لذلك كان كما أراد وكان عليّ (ع) «يأنس بالليل ووحشتِهِ ويستوحشُ من الدُّنيا وزهرتها» فإذا ما حلّ الليل رَفَعَ يديه وهو الذي ما رفعهما إلاّ لصَلاَةِ أو لدعاء داعياً وراجياً لأنّ هدأة الليل كانت بالنسبة إليه هدأة شعريّة يتنسَّمُ من خلالها همسات العاشقين، وخشوع الزاهدين الدّاعين:

«ربِّ هذا الليلُ البهيم هدوءٌ شاعري طلقٌ وأفقٌ جميلُ
ونسيمٌ يموجُ في سرحةِ الروح نديٌّ ــ كما تشاءُ ــ عليلُ
وشُعاعٌ ترقرقت فيه ألوان من السِّحْرِ رجرجرتها الحقولُ
نورُكَ الحُرُّ: منْهُ ينبعثُ الطُّهْرُ، ويَنْدَى به الصَّباحُ البليلُ
يبعثُ الشّاعر المولّهْ صوفيّاً يناجيك: والنجومُ مثول[2]

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢ دار الملاك ص: ١٦ (صوفيّة شاعر).
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢ دار الملاك ص: ١٦ (صوفيّة شاعر).

أنتَ رمزُ الهوى المشعُّ بدنياهُ.. وأنت الهادي وأنت المقيلُ»

هكذا كان النورُ ينبثقُ من عينيّ السيّد في جو الظلام وهو يدعو ربَّه، وقد هدأت نفسه واستقرَّت آماله، واطمأنت أحلامُهُ معبِّراً عن ذاته بقوله:

«أنا في لُجِّهِ أطوفُ ولكن زورقي مجهدٌ وعبئي ثقيلُ

وشراعي مرنَّحٌ، تلعبُ الريحُ بأطرافِه، وطرفي كليلُ

أتملَّى الضِّفَاف، في حيرة الفكرِ، وقد لاح لي شعاعٌ ضئيلُ

أتملّى بها مداي كأنّي تائهٌ شاقّهُ المدى المجهولُ

أستحثُّ الفجرَ الطليق يغنّي بسناهُ الضُّحى ويزهو الأصيلُ

والدُّجى يصرعُ الحياة ويهوي من ذراها فيه كيانٌ قتيلُ.

ربِّ هبني إشعاعةً تبعث الوحي بروحي فقد دهاه المحولُ». (١)

الشوق لعالم الملائك:

هذا هو السيِّدُ في اتجاهه الروحي، سبيل النورِ والهداية، فالسيِّدُ تلميذُ القرآن، والقرآنُ كتاب الله الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، لأنّ الله ولي الذين آمنوا، وهو وليُّ السيد في شتّى لحظات حياتِه، فكيف إن كانت هذه اللحظات هي التي يشتاقها ويأنس السيد بها. فالدُّعاء سلاحُ المؤمن، وقال ربُّكم أدعوني أستجبْ لكم» قُلْ ما يعبأُ بكم ربّي لولا دعاؤكم» فلئن رنّحتِ الغيوم حياة العلاّمة السيّد، لئن لعبت الرِّيح بأطراف شراعه، فإنَّه بقي يأملُ طلوع الفجرِ الصَّادق، فجر النور الإلهي، وفجر الحياة والحقيقة في زمن الجدبِ والمحول والقحط.

«وأنا هائمٌ وروحي تلتاعُ، ودنياي في سماك تجولُ.»

---

(١) محمد حسين فضل الله ،قصائد للاسلام والحياة ،ط٢، دار الملاك ،ص:١٥-١٦(صوفيّة شاعر).

أستحثُّ الخطى إليك، كأنّ الشّوقَ في جانِحيَّ نارٌ أكُولُ»[١]

لقد صار السيِّدُ في أجواء روحيّته، وعبقات إيمانه طائراً، تقتاتُ جانحيه نار الحنين لعالم العدل الإلهي، حيث يرى الملائكة حافّين من حول العرشِ يُسبِّحون بحمد الله وشكرهِ:

« حملتني روحي إليك فباركْها، وروحي ــ كما علمتَ ــ بتولُ.

سئمتْ أفقها المكبّل بالأغلالِ فاقتادها إليك الدليلُ

وتخلّت عن عالمٍ يمرحُ الإثم عليه، ويسرحُ التّدجيلُ

لا ترى فيه غير مذأبةٍ تعوي وكونٍ على الضعيفِ يصولُ». [٢]

بين يديّ الله:

وفي رحاب الدُّعاء والتوسُّل يعترفُ السيِّد بذنوبه التي يرجو الله في غفرانها، لا سيَّما أنّه يعيشُ في عالم الأهوَاء والبلاء، لأنَّ الآثامَ قد أثقلت ظهره، فحملْتهُ وقد أجهد ركبه وَجلَّلهُ الحياء وهو يعترف خاشعاً متذلّلاً منكسراً آيباً خاضعاً، غير يائسٍ من رحمة الله التي وسعت كلَّ شيءٍ، وَخضَعَ لها كلُّ شيء، وذلَّ لها كلُّ شيءٍ، فلئن تعب السيّد، وشعر بالإعياء فإنَّ صراط الله المستقيم، ودربَ الحقِّ العظيم يبقى في خاطره أملاً لا تطفئهُ رياحُ الشك والحيرة والضلال، هكذا يبدو في قصيدة «اعتراف وابتهال»:

أنا يا رب في طريقي أحثُّ الخطو نحو العُلا وأنت العلاءُ

فأهدني الدّرب، إنَّ خطوي حيران ودنياي حيرةٌ وشقاءُ

أنا إما جلستُ في الليل ألقاك بقلبٍ يموجُ فيه الصَّفاءُ

كصباح تنوِّرُ الشّمْسُ جفنيه وتزهو بجانحيه السّماءُ

وإذا لفّني النّهار مع النّاس، وحنّت لرِجْسها الأهواءُ

فأنا تائهٌ فقد يجمحُ الخطوُ وقد يحجب الضياء بلاءُ.

---

(١) محمد حسين فضل الله ،قصائد للاسلام والحياة ،ط٢،دار الملاك، ص:١٥-١٦، بيروت (صوفية شاعر)

(٢) محمد حسين فضل الله قصائد للاسلام والحياة ،ط٢ ، دار الملاك ،ص:١٥، بيروت (صوفية شاعر)

سرعةٌ في اللسان قد يحجب التفكير فيها ــ مع الضجيج هراءُ

واضطراب في فكرةٍ لستُ أدري كيف غشّى نجوى هداها الغشاءُ

وإذا بي وقد حملتُ ذنوبي فوق ظهري ــ يقودني الإعياءُ

ويعودُ المساءُ فالقلبُ في نجواكَ حُرٌّ وفي الشّفاه نداءُ

وإذا بالحياءِ يُلجم نجواي فهل شافعٌ لديك الحياءُ؟»(١)

القلب المطمئن:

هذا هو التساؤل الذي كان السيِّد يرفعه في كلّ دُعاء، لقد كان يُلقي المتاع والرِّحال بين يدي الله، وفي قلبه يقينٌ بغفرانِ الله تعالى، وعظيم قدرتِه، لذلك كان في رحلةِ الإيابِ يرجعُ إلى الله بقلبِ سليمٍ منيبٍ مطمئنٍ:

«أنا راجٍ غفران ذنبي وإن ضجَّ ــ بنتنِ الذنوبِ منّي ــ الفضاءُ

وأنا منْ أنا سوى الفقر للرحمة والعفو حسبُ قلبي الرَّجاءُ

أنت ربّي وقد صنعت بنعماك كياني... وفاضت النَّعماءُ

واستمرَّ الجحودُ منّي ولم أشكرْ، فهل لي إليك دربٌ مضاءُ

أنت يا ربِّ عالمٌ بجراحاتي، خبيرٌ بما يجنُّ الخفاءُ»(٢)

إن الله يتوفّى الأنفُس في الليل ويعلم ما تجرحُ بالنَّهارِ، والسَّيدُ واحدٌ من هؤلاء البشر الذين يسعون سعيهم الحثيث لينالوا رضوان الله وعظيم مغفرته:

«وأنا راجع إليك بقلبي، إنّ قلبي صحيفةٌ بيضاءُ.

---

(١) محمد حسين فضل الله ،قصائد للاسلام والحياة ،ط٢ ،دار الملاك، ص:١٩ ، بيروت (إعترافٌ وابتهال)

(٢) محمد حسين فضل الله ،قصائد للاسلام والحياة ، ط٢، دار الملاك، ص:١٩، بيروت (إعترافٌ وابتهال)

فإذا شئتَ أن تُعذّبَ جسمي بغواياته، فحسبي الدُّعاءُ.

دَعْ لساني يدعوك ـ يا ربّ ـ وأفعلْ بي ما شئت فالدعاءُ هَنَاءُ». (١)

عرفان الصّلاة:

إلى جانب التوسُّل بالرحمة، ودعاء الله تعالى، كان السيِّد يحب إيحاءات الصّلاة، بما فيها من معانٍ سامية، وترفُّعٍ وارتقاءٍ إلى أنوار الهدى ومشارق التُّقى، وروعة الصّلاح، هكذا كانت لحظاتُ السيِّد الصوفيّة والعرفانية الرائعة، لأنّه لم يفهم التصوّف أو العرفان سوى علاقة مع الله، ونبضة حبيبة في القلب، ونغم إنساني يتحسَّسُ كلَّ همومِ الناسِ وقضاياهم ومشاكلهم، فصلاة السيِّد الدعائية خطابٌ بينهُ وبين الخالقِ، وسموٌّ لا يُدانيه مدىً، ونورٌ يفيضُ إشراقةً وصفاءً وحُباً.

ففي قصيدة «صلاة» والتي نظمها السيِّد في الخمسينيَّات، وتحديداً في مدينة بنت جبيل حيث مرتع صباه، وملعب أحلامه، علماً أنّ السيِّد لم يعشْ طفولة لاهية أو عبثيّة، لهذا فهو يشتاقُ كلَّ مدارج الطفولة «المُستلبة» هذه القصيدة شكلّت توجُهاً آخر في منهج السيِّد الروحي، واتجاهه الديني المؤسس علي بناء متين هو الإعتصام بحبل الله، والالتزام بشريعته وأوامره ونواهيه.

ألم تكن الصّلاة دُعاءً؟ وتوسلاً؟ ورجاءً؟

ألم يُقم السيِّد الصّلاة والدعاء قولاً وفعلاً وسلوكاً؟ وحتّى شعراً؟ تلك هي المعاني التي يمكنُ استدرارها من مطّولتِه «صلاة»* في قصائد للإسلام والحياة:

---

(١) محمد حسين فضل الله ،قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك،ص:١٩-٢٠، بيروت (إعترافٌ وابتهال).

(*) محمد حسين فضل الله ، قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، ص: ٢١، بيروت (صلاة).

«أنا هنا يا ربِّ... في زورق الحيرة.. أجري في المدى الضيِّقِ
كَأنني روحُ صباح غفا على التفاتاتِ السّنا الريّق
يحلمَ بالفرحةِ تكسو الربى ببسمةٍ من حُلْمِها الشيِّقِ
فلم يفقْ إلاّ على غيمة سوداء تطوي روعة المشرق
سافرةٍ بالنُّور... ما همُّها إنْ رفرف الفجرُ ولم يُشرقِ» *

هذا هو الحلمُ الروحي والرداءُ النبيل الذي ارتداه السيِّد، في الليلةِ القمراء، وعبر الشاطئ الأزرق، شاطئ النجاة والخلاص:

«أنا هنا ـ يا ربّ ـ في ليلة قمراء.. أحسو خمرة المطلقِ
وفي جفوني دعوةٌ حُرَّةٌ للنُّور عبر الشاطئ الأزرق.
ألمحهُ كالموج إنْ تنطلق دنياه في أنشودة الزورق
فتارةً يحنو على ظلّه سكران في إغفاءَة المرهَقِ
وتارةً - يطغى - كمجنونةٍ مزَّقتِ الحُلمَ ولم تشفْقِ»[1]

وهذا هو عالمُ الروح، عالمُ المثاليةِ والحقِّ والخير والجمال، خمرة المطلق، الدعوة الحرّة، النُّور الأمل، الموج الحياة، الإغفاءة والتهويمة الحالمة، الثورة المجدِّدة... اللهفة للمدى المجهول، للغيب الَّذي يحبُّه السيد ويهواهُ:

«وفي كياني لهفة... للمدى المجهول.. للغيبِ.. فهل نلتقي
حسبي غموضُ السرّ أَحيا به فلــم أزلْ من نبعهِ أَستقــي
أحسُّه بخاطـري ـ عالمـاً يموجُ بالأشبـاح إن يخفــقِ
مبهمة اللـــون ضبـــابية.. الأحلام والأشـــواقِ والرونـقِ

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، ص:٢١، بيروت (صلاة).

أحسُّه فينتشي خاطري وتركضُ الأضواءُ في مفرقي »[١]

القصائد الصلوات:

ويبقى الدعاء!

وتبقى المناجاة!

كيف لا والحديث عن الروح! « ويسألونك عن الروح قُلِ الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » وآيةُ روحٍ أسمى من روح المؤمن المتبتل المنقطع إلى الله؟ ليس زهداً فحسب، وإنما تحركاً وتحسساً للمسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض؛ لهذا نجدُ قصائد السيّد صلوات مختومةً بدعاءِ الرّجاء والأمل، ونجد حضور النُّور الدائم مقابل ظلام الكفر والغيِّ والضَّلال:

« وها أنا يا ربِّ في روحي الحيرى.. أناجيك فهل أرتقي
حسبي إذا الإثم طغى في دمي إشعاعةٌ من طُهرِك المُشرقِ
ينهلُّ في قلبي حناناً كما.. ينهلُّ بالطُّهرِ شذى الزنبقِ »[٢]

بهذه الروحيَّة الإيمانية، وبهذا القلب الكبير، كان السيِّد يقطعُ العمر مجتازاً دُجى الحقد والتخلُّف والإنغلاق، كان يأمل دوماً أن يفتح عيون الآخرين من حوله على النُّور والحبِّ، محاولاً زرْعَ الوردِ، لأنَّه في أدعيته وابتهالاته كان يشعرُ بالفيض الإلهي المقدّس، يقولُ من قصيدةٍ بعنوان في « رحاب الفضاء » وهي المطوّلة الشعرية التي نظمها وهو في الطائرة بين لندن وبيروت بتاريخ ٢٠ /٣ /١٩٧٨م:

« كل هذا الشعور فيضُ أحاسيس أثارت مع الربيع غنائي.

---

(١) محمد حسين فضل الله ، قصائد للاسلام والحياة ،ط٢، دار الملاك،ص: ٢١، (صلاة)

(٢) محمد حسين فضل الله ، قصائد للاسلام والحياة ،ط٢، دار الملاك،ص: ٢١، (صلاة)

وتبقى نداءات القلب!

وتمتات اللِّسان!

وهمساتُ الوجدان!

«ضُمَّني في بحيرة الحُبّ إنّي أقطعُ العُمْرَ في دُجى البغضاءِ

المغنُّون في الظِّلال كثيرون بوحي النّوازِعِ السّوداءِ.

يُرهقون الحياة، بالحقدِ إمَّا فَتح الحبُّ أعينَ الأحياءِ»

ويأتي الحبُّ!

لِيُبْدع السيِّد حُبّاً!

وليكون الحقّ هوىً وحبّاً!

«وهل الدِّينُ إلاّ الحبّ!

وأيُّ حُبّ أعظمُ من الحبّ الإلهي!؟

«قلْ إن كنتم تُحبُّون الله فاتّبعوني يُحببْكم الله»

ولقد أحبّ السيِّدُ الله، بكُلّ جوارحِهِ!فكان دعاؤه حُباً، وصلاتُهُ حُبّاً، وطهرُهُ حُبّاً، ويقينُهُ حُبّاً، وإيمانُهُ حُبّاً، والتزامه بصراط الله حُبّاً، أحبّ الله حُبّ الحياةِ، وحُبّ السّماح الضّحوك، وحُبّ التقوى والمغفرة، وقد ترجَم سماحتُه هذا الحبّ في مطولتِهِ الخالدة «أحبُّك يا ربِّ» وهي القصيدة التي جادت بها قريحتُهُ وهو في الطّائرة بين طهران ومشهد عام 1398 هـ، ومن أجواء السَّفر الذي يَحْدُو الإنسان ويمنحُهُ الحيويّة والروعة والهناء. ألم يقل أبو تّمام:

وطولُ مقام المرءِ في الحيّ مُخْلِقٌ لديباجتيهِ فاغتربْ تتجدَّدِ،

فَإنِّي رأيتُ الشمسَ زيدت محبَّةً على النّاس أن ليست عليهم بَسْرَمدِ

يأتي الحبُّ ليوقِدَ في قلب السيِّد انسياب الوحي، وغراسَ الربيع، والدعوة إلى النُّور، وهبات وآلاء الربّ العظيم، والنُّعميات، والسّماح والمحبّة والضّياء؛ يقولُ السيِّد في رائعته: «احبُّك يا ربّ»:

«أحبُّك يا ربّ»، حُبّ الحياة يفيضُ على جانبيها السَّناءُ
وينسابُ ــ في وحيها ــ وحيُك الذي سبحت حوله الأنبياء
يُحرِّكُ في جانحيَّ الطموح فتدفع خطوي إليك السّماء
ويلهبني الشوقُ أن أقطع الطريق إلى حيث يزهو الرّجاء
إلى حيثُ ألقاك في كلّ روحٍ تفايضَ في مقلتيها الصّفاء
تعيشُ لتزهو غراس الربيع فيضحَكُ في الحقلِ وردٌ وماء
ويهمي الجمالُ، كما أنهلَّ فجرٌ يرفرف في شفتيه الرّواء
فأنت ــ إلهي ــ مع السائرين إلى الشمس حيث يطوفُ الضّياء[١]

ولا شكّ أن للحبّ ما يُبرِّرهُ، و«إنْ تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها»، وبأي آلاء ربّكما تكذّبان، فالسيِّدُ الداعية المسلم يجتاحه الحبّ وأيّ حُبٍّ هو هذا الحبّ؟

«أحبُّك يا ربّ حُب الحياة تفجَّر في راحتيها العطاءُ
فمنك الوجود بكُل رؤاه بكُلِّ ذراه ومنك الرَّخاءُ
وأنت نثرْت أخضرار الربيع على الأرضِ فاهتز فيه النّماءُ
ومنك الشُّعاع الذي يستحمُّ على ضفّتيه الهدى والهناءُ
يُرفرفُ في الفجرِ نوراً تُثيرُ لنا الدفء منه المعاني الوضاءُ
وينساب في لفتاتِ المساء فيعذبُ كالحلمِ فيه الهواءُ
ونعماك كُلِّ انطلاق الحياة يطوفُ بأقداسها الأصفياءُ
وأنتِ الذي تمنَحُ المتعبين نداكَ فيذهب فيه العناءُ
وماذا أقولُ: أأُحصي نداك ... ويلهث في مقلتيَّ الحياءُ[٢]
ومن يستطيعُ أن يُحصي ندى الله؟

(١) محمد حسين فضل الله ، قصائد للاسلام والحياة ،ط٢، دار الملاك، ص: ٣٣، (أُحبُّك يا ربّ)

(٢) محمد حسين فضل الله ، قصائد للاسلام والحياة ،ط٢، دار الملاك، ص: ٣٣، (أُحبُّك يا ربّ)

وأيَّةُ نعمةٍ لم تسْرِ ترعةٍ من نبعِ العطاء الإلهي!

وأيُّ وجودٍ هو خارج ذات الله؟

فلئن بيَّن سماحةُ السيِّد بعضَ أسبابِ حُبِّه لله، وعشقِهِ له، فالله تعالى جلَّ عمّا يفيضُ الكلامُ بهِ، فهو المعبودُ في كُلِّ مكان والمسَبَّحُ في كُلِّ زَمَان، والمحبوبُ من موجوداتهِ وبني الإنسان.

الشاعر الإنسان

هذا هو السيِّدُ الشَّاعرُ، غرّدَ بُلبلاً حيثُ النخيلُ الباسقات، وآبَ مع سرْبِ السُّنونو إلى خمائلِ الرُّبى، والتلال في عيناتا / الجنوب، حيثُ عبقُ الوَّزال والإقحوان يرسمُ لوحاتِ المجد الذي أراده أن يكون إنساناًيعيشُ كل احلامِهِ وتطلعاته ورؤاه وجمالاته، ليبقى السيِّد ـ كما أراد في الحياة ـ ضميراً يوحي بالحب، ويغرسُ الوعي والإنفتاح على القلوبِ والعقولِ... فهو يعلمُ يقيناً «أن الحياة لاتتحمَّلُ الحقدَ فالحقدُ موتٌ والمحبةُ حياةٌ وهو يريدُ أن يحيا ولا يريد أن يموتَ» ولهذا سيبقى أنشودة خالدةً في ضمير الأمةِ التي نافحَ عنها، والإنسانَ الذي حَمَلَ همومَهُ وقضاياه، والإنسان الذي أراده أخاً وشريكاً في ما مَنَحَ الله من هباتٍ ونِعَمٍ...

ويبقى للسَّيدِ أن يَّتحدث عن تجربتِه التي احبّ، والشِّعرَ الذي أولعَ بهِ واللُّغة الَّتي حملها مرجعّيةً ووحياً تجذَّر في ينابيعِ المعرفة ... والعطاء...

المعدان: هاني علي عبدالله

علي رفعت مهدي

المحور الثاني

النَّشأة وذكريات الطفولة

من أغاني القلبِ أيقظت الضحى بدمي فانتثرَ الوحي بروحي
فتطلّعتُ إلى الشمس ولم أستفق إلا على صَحوِ جروحي
أنا حسْبي إن تغشاني الدُّجى خطرات الفجر والحسِّ الصريحِ
فانطلاقات حياتي فكرة سوف تبقى حُلُماً فوق ضريحي

(على شاطئ الوجدان، ص:21)

"من أغاني القلب"

بيروت ١٩٥٧/٢/٢٠

(اللبنانيات)

النّشأة وذكريات الطفولة

ولدتُ في النّجف الأشرف، العراق، لأنّ والدي آية اللّه عبد الرؤوف فضل اللّه ــ رحمه الله ــ مكثَ في النّجف مُدّةً تقارب الثلاثين عاماً، للدراسة والتدريس. في بيتٍ بائسٍ فقير، لأنَّ أوضاع الوالد الماديّة كانت صعبةً جدّاً، فقد كان يملكُ نفساً أبيَّةً أثقلت ظروفه حيث كان لا يتنازل للجهات النافذة في الوسط الديني والتي كانت مساعداتها تفرض على الإنسانِ أحياناً بعض التنازلات من كرامتِهِ أو من مواقفه، ولذلك كان مثقلاً بالديون.

فلقد نشأت في هذا المناخ البائس، حتّى كُنّا عند الإصابةِ بالمرض (أنا وإخوتي) نُؤخَذُ إلى طبيبٍ هو أقرب إلى الطبيب العربي أو الهندي التقليدي، لأنّ من الصعب مادّياً أن نؤخذ إلى مستشفى، وربّما كان مستشفى النّجف أقرب إلى المستوصف للإهمال الذي كانت النّجف تواجهه آنذاك. وقد كُنّا نتداوى بالطبّ العربي، حتّى إنّي أذكر إصابتي بالحصبة في طفولتي الأولى حيثُ بقيتُ مُدّة أَشهر حتّى شُفيت، لأنَّ طبيعة المعالجة كانت بسيطة ولم تكن حديثة، وأمّا في أيِّ عمرٍ حصل هذا فلا أَذكُرُ ذلك.

ولقد ولدتُ في سنة 1354 هجريّة 19 شعبان وميلاديّاً سنة 1935. وفي السنّ الذي يتعلّمُ فيه الإنسان القراءة والكتابة، أُرْسِلتُ إلى أَحدِ الكتاتيب الكائن في إحدى الغرف من الطابق العلوي لمقام الإمام علي (ع) في النّجف الأشرف.

وأمّا طريقة الدراسة فقد كانت قائمة على أنْ يُعَلّم أحد التّلاميذ المتقدّمين التلميذ الآخر،

وكُنّا نشعرُ أنّ المشرف على هذا الكُتّاب كان يُمَيز بعض أبناء الوجهاء الكبار في الحوزة العلميّة حتّى أننا مع طفولتنا الأولى وربّما كان سنّ الخامسة ـ كنا نرقبُ ذلك ونغارُ ونتألمُ منه.

ثُمَّ نقلتُ إلى كتّابٍ ثانٍ قريب من بيتنا، وكان المشرف على الكُتّابِ هذا شيخاً كبير السنّ أعْرَج، وأَذْكُرُ أنّهُ كانَ شَديداً على الطُلاّبِ، ولقد تعَلَّمتُ القراءة والكتابة بشكلٍ تقليديّ حيثُ كُنّا نأخذ الألواح ونكتب بالطبشور عليها.

وبعد أن فُتِحت مدرسة دينيّة وعصريّة من قبل جمعيّة منتدى النّشر، أُدخِلتُ فيها في الصفّ الثالث ونجحتُ إلى الصفّ الرابع. ولكنّي لا أعرف لماذا أُخرجتُ من المدرسة في الصفّ الرابع مع نجاحي وتفوّقي. فلعلَّ الإمكانات الماديّة لم تكن تسمحُ بذلك. ثُمَّ بدأتُ الدراسة الدينية مبكراً.

■ هل لكم -سماحة السيِّد- أن تُطِلُّوا على بعض الذكريات في ما يتعلق بوصف البيت العائلي:

أنا لا أتذكَّرُ البيتَ الذي ولدتُ فيه، ولكنّي أتذكّرُ البيت الذي عشتُ طفولتي فيه فقد كان يتميّز بأنّه بيتٌ في دهليزٍ مظلمٍ، ومؤلّفٌ من ثلاثِ غرف مع مطبخ بائس وكان في صحنِ الدّار حوضٌ للماء الذي كان مالحاً، فالبئرُ يخدمُ حاجياتنا، لأنّه لم يكن في «النَّجف إسالةٌ» في تلك المحَلة أو البيت عامّةً. وقد كان للبيتِ سردابٌ ينزل الناسُ إليه في أيام الصّيفِ للتبرُّدِ نهاراً، وأذكر أنّهُ كان هناك نوافِذٌ تُطِلُ على البئر رغبةً في الهواء البارد الآتي من خلال الآبار التي كانت مفتوحة على بعضها البعض في النّجف. وأمّا ليلاً فقد كُنّا ننامُ على السُّطوح لشدّة الحرّ، وبالنسبة للباسنا فقد كان «الدشداشة» لأنّهُ اللباس التقليدي، وقد كُنّا نستضيءُ بالفوانيس لأنَّ الكهرباء لم تكن موجودة عندنا، وربّما كانت الكهرباء موجودة خارج الأماكن التي كُنّا فيها، فهذه المسألة لا أتذكّرها تماماً.

■ مراتع الطفولة؛ وأمكنة اللَّعبِ والذّكريات:

في تلك المرحلة، كانت الشوارع والأزقة هي ملاعِبُ لهونا، وكُنّا نلعبُ مع الصبيان بشكلٍ وبآخر، وأمّا النزهات فقد كان الوالدُ وبعض الأصدقاء يخرجوننا إلى منطقة «الجدول» في النّجف، وهي منطقةٌ تقعُ في وادي النّجف، لأنّ النّجفَ مبنيةٌ على مرتفع، وقد شكّلت منطقة «الجدول» فرعاً من نهر الفرات ولهذا كانت البساتين منتشرة هناك. وقد كان خروجنا أيّام العطل الدراسيّة الحوزويّة وهي أيَّام الخميس والجمعة، وهناك كُنَّا نلعبُ في البساتين. باعتبار أن الطريق كان بعيداً، ولهذا كانت الرحلةُ إليه مُتعبة، وأمّا وقتُ النزهة والخروج فقد كان مرّة شهرّياً أو مرّة كُلَ شهرين. وأحياناً كُنَّا نخرجُ إلى الكوفة وهي التي تتميّزُ بنهر الفرات الكبير، والمسافة بين النجف والكوفة تتراوح بين 10 كلم أو أكثر، وبالنّسبة لوسائِل النقل فقد كانت العربة هي الوسيلة التي تجرُّها البغال على سكّة حديديّة محدّدة المعالم.

■ قلق المعرفة؛وبعض ذكريات الطفولة وشقاوتها:

وأَذكُرُ، أنّني كنتُ ذات يوم مع الوالد وبعض أصدقائه في مكان من الطين الخفيف حيثُ كان يُخيَّلُ للطّفل أنّهُ بإمكانه أن يسيرَ على هذا الطين، ففي غفلةٍ عن والدي وصحبِهِ درجتُ إلى نصفهِ تقريباً حيثُ كِدْتُ أن أَغرقَ لولا مجيء أبي وصاحبه وأخرجاني بجهدٍ لأنّهما كانا لا يستطيعان الاقتراب كثيراً باعتبار عمقهِ. وهذه إحدى الذكريات في تاريخ حياتي. في ذلك الوقت كنتُ أشعرُ بشيءٍ في نفسي يُشبِهُ قَلَقَ المعرفة. فلقد انفتحت على واقع البيئة مبكّراً، وكنتُ أَخرجُ أيّام مواسم عاشوراء إلى الصحن العلوي الشريف، وأرى مواكِبَ العزاء والذين يضربون رؤوسهم بالسيوف، وحَمَلَةَ المشاعل الطويلة والمشتملة على عِدّة شموع، حيثُ يقِفُ حامل المشعل ويحاول القيام بحركات بهلوانيّة بالمناسبة، وقد كنتُ أشعرُ بالحزنِ من منظر الدّماء.

■ حزنٌ أم خوفٌ ؛من تلك اللّحظات والمشاهد :

لم يكن خوفاً لأنَّ الاعتياد على مثلِ هذا أبعدَ عني الخوف، والحزن كان لا شعوريّاً ومن غير فكره؛ وهكذا كنّا نحضُر المواسم. ولعلَّ الإنسان في تلك المرحلة يبدأ باختزان المسألة الشعريّة، لأنَّ هذه المواكب تهزجُ أهازيج شعبيّة أثناء مسيرها، وعند التوقّف والجلوس يصعدُ الرادود الحسيني(١) مثلاً فيطلق للجلوس لازمةً(٢) يُرَّددونها، ويقرأ عليهم بعدها شعره الشَّعبيّ ليختمه باللاّزمة ويُتابع. ولذلك كان الإنسانُ منذُ ذلك الوقت وحتّى في ترداده للشعر الشعبي يختزنُ الجانب الشّعري لا شعورياً، بالإضافة إلى مجالس العزاء.

■ اللّعب والاختلاط ؛ (هل كان اللعبُ ممنوعاً في العمر الصغير مع الفتيات أم ماذا؟

لقد كان اللّعِبُ في ذلك الوقت وفي هذا السنّ الطُفولي مشتركاً ما بين الفتيان والفتيات، ولكن من الطبيعي أنّ الفتاةَ عند بلوغها لسنّ التاسعة، وهو: سنّ التكليف الشرعي كان لا يُسمحُ لها بالاختلاط).

■ العلاقة مع الوالد والاهتمام المتبادل والمسؤولية الملقاة على البكر :

لقد كانت علاقتي مع الوالد علاقةً لا أزالُ دائماً أشعرُ بإنسانيتها، لم أذكر أنَّهُ ضربني في كُلِّ تاريخ حياتي منذُ الطفولةِ الأولى. فقد كانت طريقتُهُ في تأديبي إذا قمتُ بما لا يُرضيه أن يُحدّقَ بي تحديقاً أشعرُ فيه بالغضب فيُثقِلُني ذلك فأتراجع، ولكنَّ والدتي ولشدّةِ خوفها عليّ كانت تضربني وأحياناً ضرباً مبرحاً.

---

(١) الرادود الحسيني :هو الذي يردّد المرثيات في مناسبة عاشوراء.

(٢) اللازمة الشعريّة: المطلع الشّعريّ الذي يتكرّر في القصيدة.

هكذا كانت طفولتي وطفولة إخوتي ونحنُ خمسة ذكور وخمسُ إناثٍ عدا الذين ماتوا مبكّرين. وأنا أكبرهم ليبدأ في خط الدراسة أو التربية أو المسؤوليّة.

ولقد كنتُ في طفولتي لا أخلو من المشاغبة ولكنّ الأمر لم يصل معي إلى درجة «العفرتة».

■ **أسباب ضرب الوالدة ؛هل هي ذكرى مؤلمة من ذكريات الطفولة في حياتكم الماضية:**

لقد كانت والدتي تخافُ عليّ، لأنَّ النّجفِ كأيّ بلدٍ من بلدان المنطقة العربيَّة فيه شيءٌ من الشُّذوذ، ولذلك يُخاف على الولد الذي يملك صورةً جميلة وتربيةً حسنة من الإنحراف وقد تكون هذه هي المسألة التي كانت والدتي ـ رحمها الله ـ تنطلق من خلالها، في الرعاية والاهتمام وأَحياناً الضّرب.

■ **الطفولة الطبيعيَّة والإحساس بها:**

لا أظنُّ أنّي عشتُ طفولةً طبيعيّة، لأنَّ طبيعة البيئة التي كنتُ أعيشُ فيها كانت بيئةً مغلقةً إلى حدٍّ ما. فلا أنسى أنّني كنتُ أسمعُ أكثر من كلمة أنّ على الطفل أن يكون عاقلاً مهذباً لا يتكلَّمُ ولا أزالُ أذكر كلمةً لا أفهمها حتّى الآن وهي أن يجلس الطِّفلُ هادئاً كالملائكةْ المصبَّرة فحتّى الآن لا أفهمُ كلمة «المصبَّرة».

■ **البيئة المغلقة والخيال الشِّعري الشبابي:**

كثيراً ما أُحِبُّ أن أستذكرَ تلك الفترة، فلا أدري لماذا كان أُفقي واسعاً منذ طفولتي الأُولى كنتُ أُفكِّرُ بأُفُقٍ أكبر وأوسع من أفقِ عيشي، ولا أدري منشأ هذا. عِلماً أنَّ البيئة التي تربّيتُ فيها لم تكن حديثةً ولم أعِشْ أيضاً جوّ المدرسة بهذا الشَّكل حتّى المدرسة التي قضيتُ فيها هذه السّنة الأخيرة لم تكن كذلك.

■ أبسبب ألبؤس مثلا ؟

من الممكن جدّاً، فلقد انفتحت على القراءات الحديثة مبكّراً.

■وفي تلك الفترة هل كنتَ حالماً أم طموحاً؟

الواقع أنِّي كنتُ حائراً، لا أعرِفُ إلى أين أتّجه. وفي قصيدة مبكِّرة لي عمرها أكثر من خمسين سنة أقول فيها:

«ما أَنا ما الحياةُ ما الروحُ عندي غيرُ سِرٍّ يبدو لديَّ خفيّاً
أنا في حيرةٍ أفكِّرُ في ذاتي — كأنّي أتيت أمراً فريّا[(١)]

فهي تُعبِّرُ عن ذلك وفي هذه القصيدة أيضاً صوّرتُ جوّ البيئة، لا سيَّما أنَّها مناجاة لله تعالى:

«أنا ما لي وللمحيط فكم يجني — على فكرتي ويقسو عليّا
جِئتُهُ والحياةُ تبسِمُ نحوي — والأَماني تموجُ بين يديَّا
وشعاع الآمال يبعثُ في روحي — شعاعاً من المنى عبقريّا

وشراعُ الأَحلام يخفُقُ في قلبي — فيوحي لي الخيالَ السنيَّا[(٢)]
أتهاوى ما بين أَحلامي البيض — وأشدو مع الدُّجى والثُّريَّا
فإذا بي أرى الحياة ظلاماً — وصباحَ الأحلام ليلاً دجيّا
والأماني تموتُ في قبضةِ الحزنِ .. وتذوي على لظى شفتيّا

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، دار الملاك، ط2، ص: ١٣ (ربِّ رحماك).
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، دار الملاك، ط2، ص: ١٣ (ربِّ رحماك).

وأراني أعيشُ في سجنِه الدّاجي .. وحيداً بين الأنامِ شقيًّا »

■ سنّ السابعة : هل تجلّى فيه المصير المحتوم؟ أم الإعداد لشيءٍ آخر؟ أو خيار بديل؟

لم أكن واعياً للخيار الآخر آنذاك، بل كان هذا الخيار هو الخيار الذي ربّما يعيشُ الإنسانُ أحلامَهُ فيه.

■ الكِبَر ومعايشة الواقع ومعرفة الخيارات. هل هناك شعور بالظُّلم في هذا الموضوع؟ وهل كان بالإمكان ترجمة مشاعركم وأحلامكم بطريقة مختلفة؟

ربَّما كانت تخطُرُ في بالي خواطرٌ كهذه. عندما أجِدُ أنَّ الأُفق الذي أعيشُ فيه كان لا يخلو من ضيق، بينما الآفاق الأُخرى هي آفاقٌ منفتحة وواسعة، وربَّما كان تصوُّري أنّني قادرٌ على دخول الحياة من الباب الواسع. ولكنّي أتذكَّرُ الآن أنّي كنتُ متعلِّقاً بالإسلام في وقتٍ مبكرٍ، ولهذا لا زلتُ لا أدري لماذا؟ لأنَّهُ لم تكن في بيئتنا حركة إسلامية بالطريقة التي نعرِفُ فيها الحركات الإسلاميّة. فقد كان المجتمعُ مجتمعاً تقليديّاً جِدّاً، فالتقاليد والأساليب القديمة هي المسيطرة على المجتمع. فلا أدري الدافع الذي كان يدفعني للذّهاب إلى إحدى المكتبات التي تبيعُ الصُّحف المصريّة لأشتري صحيفة المصوِّر » « والرسالة » وحتّى عندما تقدَّمتُ في السنّ المبكرة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة كنتُ أقرأ مجلاّتٍ أكبر من سنّي كالكاتب المصّري » لطه حسين، و »الكتاب » لعادل الغضبان، ومجلّة الثقافة، وفي ذلك الوقت انفتحت على أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم.

■ المانع من شراء مجلاّت معيّنة، وشراء مجلاّت أخرى؟

كنتُ أقرأُ بالاستعارة أحياناً، وقد قرأتُ ترجماتٍ كثيرة كترجمة لامارتين « لأحمد حسن

الزيّات » وترجمة أناتول فرانس.

■ **التداول بكتب محافظة وروايات عاطفيّة معيّنة في تلك الفترة؟**

نعم كانت، ولكنّي أذكُرُ أنّي كنتُ أقرأ المنفلوطي، قرأتُ « مجدولين » و »النظرات » و »الفضيلة » و »العبرات » وكُنّا نبكي في طفولتنا عندما نصِلُ إلى المأساة في هذه الأقاصيص. وأيضاً كُنّا نقرأ الروايات البوليسيّة فأدمنّا شخصيَّة « أرسين لوبين[١] » في وقتٍ معين.

■ **سنِّ السابعة، وتغيير المدرسة,والانتقال للدراسة الحوزوية ؟**

عندما دخلنا « منتدى النَّشر » وقُبِلت في الصّف الرَّابع، بدأتُ في تلك الفترة أتّجِهُ للدراسة الدينيّة فقرأتُ إلأُجروميّة »[٢] وهي أوّل كتابٍ في النّحو. ومِمَّا في الحوزة حيثُ يدرُس الطالِبُ عند أستاذٍ معيّن، وأذكُرُ في ذلك الوقت أنّي كنتُ أَدرسُ على الوالد.

■ **يعني ضيق ذات اليد لا علاقةَ له بتوجُّهك الإسلامي، ولكنَّهُ أخرجكَ من المدرسة؟**

نعم، ثُمَّ درستُ قطر النّدى[٣] وكُتُب الصّرف، وأذكُرُ أنّني لُبِّستُ العمامة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وقد كان متعارفاً أنّ الإنسان يلبُس العمامة مبكّراً. كما كان الأطفال في سنّ الطفولة يلبسون العمامة كالطلبة حتّى في هذا السنّ، وأذكُرُ أنَّ المرحوم عمّي السيد محمد سعيد فضل الله ـ وهو من العلماء الكبار كان قد سبق والدي إلى النَّجف وتوفّي هناك. وقد جاء بالتكاليف الَّتي تمّ شراء ملابسي الدينيّة من خلالها من أحد العلماء والذي كان يُرافقه.

■ **الإحساس الانساني والشُّعور الذي انتابك بلباس ما يفوقُ العمر ؟**

---

(١) أرسين لوبين: سُمّي باللِّص الظّريف, من ابطال الروايات البوليسيّة.

(٢) الأُجرومية: من كتب النحو, ومصادره القديمة

(٣) قطر الندى: وبَل الصّدى : كتاب في النحو لابن هشام الأنصاري .

لم أشعر بذلك الشُّعور، لأنّ البيئة كانت قائمة على ذلك؟! واللِّباس هذا في تلك المرحلة كان مألوفاً. فكثيرٌ من الأطفالِ في هذه السنّ كانوا يلبسون هذا الزيّ. وربّما كنتُ أعيشُ الزهو في ذلك، تماماً كما يشعرُ الشابُ أو الفتى أنّهُ صارَ رجلاً.

■ **دفن الوالدين؛وهما مدرسة الطفولة والذكريات الأولى؟**

لقد توفّي والدي هنا، ونُقِل من لبنان إلى النّجف حسب وصيّته. وأما الوالدة فمدفونة عند «السيِّدة زينب» في الشّام.

■ **رجوع الوالد من النَّجف:**

كان ذلك سنة 1955م، وأَذكُرُ أنّي جئتُ إلى لبنان سنة 1952 مع والدتي، وكانت زيارتي الأولى للبنان، وعمري حوالي 17 عاماً، وفي ذلك الوقتِ كنتُ شاعراً جيّداً.

ففي النَّجف، وحين بدأت الدراسة وكان في هذا التطلُّع الثقافي، بدأتُ أتطَّلعُ للعالم من حولي، فمن ذكرياتي أنّي تابعتُ سنة 1947 القضية الفلسطينيّة وقد كان لي قصيدة لا زلتُ أحفُظ منها بيتين:

دافعوا عن حقِّنا المغْتَصَبِ — في فلسطين بحدِّ القُضُبِ
واذكروا عهدَ صلاح حينما — هبَّ فيها طارِداً الأجنبي

فهذه قلتها سنة 1947 وكان عمري تقريباً اثني عَشَرَ عاماً. كما أنّني كنتُ في ذلك السنّ أعيشُ التطّلعَ الصحافي، حيثُ أنشأتُ مع ابن خالتي السيد مهدي الحكيم والذي قتلته المخابرات العراقية في السودان، لأنّهُ كان معارضاً شديداً للنظام، وهو ابن المرجع الكبير السيِّد محسن الحكيم. مجلّة خطيّة اسمها «الأدب» وكنتُ أكتبُ فيها، وأذكُرُ أنّنا استكتبنا فيها بعض أُدباء النّجف ومنهم عبد النبي الشريفي، ولا أدري كيف قَبِلَ المشاركة معنا، حين

أصدرنا عدداً خاصّاً بالإمام الحسين(ع)، وأذكُرُ أنّنا كُنّا نوزِّعها بأيدينا، وكان السيِّد مهدي يكتبُ الإعداد للمشتركين لأنّهُ كان يملك خطّاً جميلاً، ومن ذكرياتنا أنَّ جمعيَّة منتدى النّشر كانت تملك نشاطاً ثقافياً كبيراً من خلال صحف الحائط للبعض من طُلاَّبها، ففي ذلك الوقت حَصَلَ أنّ إحدى صحف الحائط نقلت كلمة الأديب «عبد النبي الشريفي» والتي سبق لنا أن نشرناها في مجلّتنا «الأدب» ولم تذكر المصدر الذي نقلت الكلمة عنه، فأحتججنا عليها في ذلك الوقت لأنّ هذا خلاف أمانة النقل حيثُ كان من المفروض أن يُذْكَرَ ذلك.

الزَّواج والنشأة والأولاد:

تزوجت سنة ١٩٥٥، حين سافر والدي، وكنت اتردّدُ بين وقتٍ لآخر وأزور لبنان معه، وأثناء وجوده تزوّجت، وقد كان زواجي على الطريقة التقليديّة لأنّ العائلة التي تزوّجت منها عائلة محافظة، ولم يكن مألوفاً في الأجواء المحافظة أن يرى الواحد زوجته، ولذلك كانت المسألة على الطريقة التقليديّة، فالعائلة عائلة علمائيّة، فالأهل هم الذين يرون ويصفون ويشاهدون وهكذا كان.

وقد تزوجّت في لبنان ثُمَّ انتقلتُ إلى النّجف.

وأمّا بالنّسبةِ لاولادي، فأكثرهم ولِدَ في النجف وبعضهم خُلِقَ في لبنان، اثناء مجيىء العائلة في بعض الحالات، ثُمَّ بعد انتقالي إلى النبعة في لبنان ولد الآخرون.

ولديَّ الآن أحد عشر ولداً، وقد كان لي إثنا عشرَ ولداً وقد توفيّ واحد منهم، سبعة ذكور وأربعة إناث.

■ **هل كان لكم توجُّه ما في حياتهم؟**

لقد تركتُ لهم الحرّية في ذلك، فابني الكبير توجّه توجُّهاً دينياً، ودخل كلية (الحقوق وإن

لم يكملها نتيجة بعض الظّروف، والثاني ذهب الى امريكا وتخصّص في الهندسة الكهربائية، وحين طرح اسمي في وقتٍ ما ضايقته المخابرات الامريكية فعاد بعد أن أكمل واشتغل في العمل العام ضمن مؤسساتنا التجارية (للعمل) وهو يُشرف عليها ولا يزال والرابع دخل الجامعة الاميركية ليتخصّص في الطّب، لكن ببركة الحرب الأهلية اللبنانية جاءته قذيفة وأصابت شظاياها رأسه فلم يتمكنّ من متابعة دراساته، والآن يُشرفُ على صفحة الانترنت وأنتسب إلى كلية الإعلام. وأمّا الخامس فقد تخصّص في العلوم الاجتماعية ويسعى لنيل شهادة الماجستير، وقد تخصّص ايضاً في العلوم الدينيّة وهو في مرتبة متقدمة، والولدان الباقيان في كُليّة الأَعمال، أحدهم تخرّج السنّة، والآخر يتخرّج السنة القادمة.

إنّي لم أفرض على أحد شيئاً، وأمّا البنات فلم يكملن الدراسة بحسب الوضع الذي كنا نعيشه وكُلُهنّ متزوجات.

النَّجف ولبنان

تكاملٌ ولقاء في ذات السيِّد الشاعر، علماً وحنيناً

"في النَّجف كُنَّا نتنّفس الشِّعر، ولقد كانت النَّجف مدينة دينيّة بالإضافة إلى كونِها مدينة شاعِرة وأمّا لبنان فقد تعرّفتُ عليه بدايةً من خلال قراءَة مجلاّتهِ وشعرائِهِ".

محمد حسين فضل اللّه.

حاضرة النجف . ودورها السياسي والأدبي في مرحلة الطفولة وصبا السيِّد:

في ذلك الوقت لم تكن للحوزة العلميّة في النّجف أيّة نشاطات سياسيّة، وذلك في الأربعينات والخمسينات وبالمستوى الذي تمخّضت عنه الأحداث، فالوضع السياسي آنذاك تمثَّل في الوضع الملكي الذي كان يُواجَهُ (ممثّلاً بنوري السعيد رئيس الوزراء المسيطر) لأنّهُ رجل الإنكليز في العراق، ولقد عشنا في الفترة التي قُتِلَ فيها الملك غازي بن فيصل الأوّل، ثُمَّ عايشنا وصاية الأمير عبد الإله على الملك فيصل الثاني وعلى العرش، حيثُ بدأت في تلك المرحلة المعارضة ممثَلةً بالحزب القومي العربي (الذي لم يكن له أيّ دور وقد كان ضعيفاً جدّاً، وإلى جانبهما الأحزاب المحليّة، كالحزب الوطني الديمقراطي الذي تزعّمه كامل الجادرجي بنّى صحيفةً اسمها «الأهالي» وهو الحزب المعارض المطالب بالحرّيات، وقد نشأ بعدها حزب الاتّحاد الدستوري (نوري السّعيد) وحزب الأمّة (صالح جبر) وأحزاب محليّة معيّنة... ولكنَّ الحركة البارزة في المعارضة كانت الحركة الشيوعيّة، حيثُ كانت تخرجُ المظاهرات بينَ وقتٍ وآخر في النّجف فتواجهها الحكومة بعنف وأحياناً كثيرة بالرّصاص والاعتقالات.

وأذكُرُ أن أحدَ علماء الدّين في النّجف وهو من العلماء الكبار والمنفتَحين حسب انفتاح ذلك العصر وهو المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وهو الذي حضر المؤتمر الإسلامي في القدس، وكان أوّلَ عالم شيعيّ يَؤُمُّ المسلمين فيها بالمسألة الفلسطينيّة... وقد كان للشيخ صلة بالحكومة العراقيّة كان يُمثِّلُ العلامة والواسطةأثناء (ضغط، اعتقال، حصار،...) بين الحكومة والمعارضة، وهو يعرض المسائل المتعلقة بالملك حين كان يأتي إلى النَّجف (أيام الملك فيصل الأول وبعده) أو حيث كان يأتي الوصيّ على العرش وكانت التقاليد تقضي بعدم زيارة

العلماء لهما، ولكنَّ العلماء الذين كانوا مستعدّين للقاء الملك أو الوصي درجوا على غير عادةٍ معينة بهدف اللقاء حيث كان العالم يجلس في الرواق المحيط بمقام الإمام عليّ (ع)، ولا بُدَّ للملك أو الوصي أن يتجّولَ في المقام، فيلتقي بالعلماء الجالسين، فيجلس معهم على قاعدةِ الصُّدفة... وهذا ما شكّل البروتوكول أو التقليد بالنّسبة للقاء مع السُّلطة الحاكمة، ومن تقاليد الحوزة العلمية في النّجف أنَّ أيَّ شخصٍ تكونُ له أيَّة صلة بالسُّلطة يخفُ وزنُهُ، وربّما يسقط.

■ **هل خفّ وزنُ الشيخ كاشف الغطاء لعلاقتِهِ مع السُّلطةِ مثلاً:**

بالنسبة للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، كان يعتبِرُ نفسَهُ من المراجع، ولكنَّ مرجعيتَهُ كانت ضعيفةً جداً، وكان الناس في ذلك الوقت يتوجّهون إلى السيِّد محسن الحكيم، ولذلك كان الناس يأتونه في الأزمات– وقد كان جارنا– وأثناء حضوري لأحد مجالسه سمعتُهُ يتمثَّلُ بهذين البيتين:

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدعى لها ... وإذا يُحاسُ الحيس يُدعى جندبُ
هذا لعمركم الصّغار بعينه ... لا أُمَّ لي إن كان ذاك ولا أبُ

فمن الطبيعي أنّهُ كان أكثر العلماء انفتاحاً فقد كان يُتابع ويحضر المؤتمرات الإسلامية في مصر وباكستان وكان أديباً ومفوّهاً بحسب الأسلوب الخطابي العربي المعروف، وقد جاء إلى سوريا ولبنان. وتنقل عنه طرفة حين ذهبَ إلى جباع وكان يُحيطُ به الشيخ أحمد عارف الزين، والشيخ سليمان ظاهر، والشيخ أحمد رضا وهم ثلاثي مجلّة العرفان أصعدوه وأخذوه إلى الجبل الذي يقفُ «صافي» في أعلاه، وعندما وصل إلى «صافي» وقد أخذ منه التّعب مَأخذه قال:

« السّلامُ عليك يا صافي ما أقلّ ثوابك وأكثر أتعابك » لذلك كان ظريفاً وخفيف الظّل، وصاحب نكتة حاضرة. وكان أيضاً في النّجف الشيخ عبد الكريم الزنجاني وهو رجلٌ متخصّصٌ في الفلسفة، ولكنّه كان يُتّهم بأنّ له ارتباطاً بالإنكليز، من هنا فقد كُل ثقة في النّجف، وقد جاء إلى سوريا ومصر- وعلى رغم ذلك وما أُثير حولها- فقد احتفي به احتفاءً كثيراً، وقد كان خطيباً بارعاً ويأخذ بالفلسفة ويتّحدثُ بها حتى أنّ « طه حسين » قبّلَ يده وقال هذه أوّلُ يدٍ أُقبلُها. في هذا الجوّ وهذه الحالات كُنّا نعيش ونواكب.

وأمّا المرجعيَّة الكبرى فقد كانت للعلماء الذين يتميّزون بالدرجة العالية من الفقه والتقوى ومن التقليدية في هذا المجال. في تلك الفترة أي أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات بدأتُ أعي ما حولي، وأشعر بنفسي ما اكتشفه إسلاميّاً، وكانت لي علاقة مع الشيوعيين آنذاك فقد كنت أُجالسهم وأُحاورهم حسب ما أملكُ من الثقافة والمعرفة، وما يملكون هم أيضاً من الثقافة والمعرفة، كنتُ محاوراً منذُ البداية، وكانوا يزورونني وأزورهم، في بعض المدن العراقية آنذاك لألتقي بهم، وكنتُ ألتقي أيضاً ببعض الديمقراطيين والقوميين، وقبل المجيء إلى لبنان كنتُ أشارك ببعض الحفلات. والقصائد والمرثيات وأذكرُ مشاركتي سنة 1370 هـ أي منذ 52 سنة، في رثاء أحد مراجع النَّجف وهو الشيخ محمد رضا آل ياسين في قصيدة نُشِرَت في إحدى مجلاَّت النَّجف*، كما كنتُ أشاركُ في بعض المناسبات الدينيّة.

■ النَّجف مدينة دينيّة أم مدينة شاعرة؟

لقد كانت النَّجف مدينة دينيَّة بالإضافة إلى كونها مدينة شَاعِرة، فنَحن نعرِفُ أن شعراء العراق البارزين في فترة الثلاثينات والأربعينات والخمسينات كانوا شعراء النَّجف، فعندما

(*) القصيدة خارج المجموعات الشعريّة الخاصّة بسماحته، وقد تمّ نشرها في ختام هذا الكتاب.

نذكرُ محمد رضا الشبيبي والشيخ محمد جواد الشبيبي وعلي الشرقي والجواهري وغيرهم، فأغلبهم كانوا نجفيين، وشعراء الحوزة، فالشِعرُ قديم في النَّجف، وقد أخذ العلماء بأسباب الشِّعر، ويذكر في شعراء النَّجف الكبار السيِّد محمد سعيد الحبوبي صاحب القصائد الخمريّة حيثُ يصِفُ الخمر بما لا يصفها شخص عاقرَ الخمرة، حتّى أنّي أذكُرُ أنّ بعض الشعراء اللبنانيين والذين قرأوا شعر السيد الحبوبي قال: أنا لا أتصوّرَ أنَّ هذا الرجل لم يشرب الخمر. مع العلم أنه كان من القدّيسين باعتبار أنَّهُ تتلمذ في شعر الخمرة على يد أبي النواس وعمر الخيام وغيرهما.

ففي النَّجف كُنّا نتنفّسُ الشِّعر، فالشعراء يلقون قصائدهم في المناسبات الدينيّة ويتبارون وحتّى في الأفراح والأَعراس لا سيَّما إذا كان أصحاب «العريس» من الشُّعراء حيثُ يدوم العرسُ شهراً أو أكثر من شهر، وعندما يُتوفّى مرجعٌ من المراجع كانت حفلات التأبين تستمرُّ لمدّةِ أربعين يوماً. وفي شهر رمضان حيث تُعطَّلُ الدروس كان الناسُ يسهرون ليلاً حتّى ينقلب اللَّيلُ إلى نهار، ففي وقت السحور كانت الجلسات التثقيفية حيث يقرأ أحدهم القصيدة والمسابقة ويدور الامتحان في اكتشاف القافية الأفضل وأيضاً في تقطيع الشِّعر حيثُ نخلطُ كلمات البيت لنعيد ترتيبها وهذه كلُها من مسائِل الشعر في النَّجف فمن يملك قابليَّةِ الشِّعر تصنعه النَّجفُ شاعراً...

■ دخول السياسة للنّجف وللحوزة الدينية:

من الطبيعي أنّ النَّجف عاشت السياسة مبكّراً، لكن في خطوط أُخرى، فنحنُ نعرف في بداية القرن الرابع عشر الهجري كيف كانت الصِّراعات السياسيّة محتدمة في إيران مثل «المشروطة والمستبدة»[1] وكانت هذه المسائل ممّا يُثيرُ عاصفة في النَّجف، فبعض العلماء يتولّون

(١) المشروطة والمستبدة: مسألة فقهية دينية أثارت جدلاً في أوساط الحوزة العلميّة الشيعيّة.

« المشروطة » يعني النظام الديمقراطي، وهناك من يتبنّى الاستبداد يعني أن يحكم الملك وكن ضمن مستشارين.

فالأحداث في إيران كانت تترك تأثيراتها على النجف من خلال طبيعة أكثريّة الطُلاّب الذين كانوا في حوزة النَّجف وهم بمعظمهم من الإيرانيين حتّى تصل القضيّة أحياناً إلى أن بعضهم كان يُطلِقُ الألفاظ التي تُقاربُ التكفيرَ ضِدَّ البعض الآخر.

الصِّراع ضدَّ الإستعمار البريطاني

وكانت المرجعيّة في النَّجف أيضاً تمارِسُ دوراً ضاغطاً على الاستعمار في إيران، فنحنُ نعرِفُ فتوى المرجع السيّد محمد حسن الشيرازي وهو من العلماء والمراجع الكبار عندما أفتى بتحريم التنباك، لأنّ الحكومة الإيرانية آنذاك أعطت امتياز التنباك في إيران، فحرّم هذا التنباك وزراعته حتى خسرت هذه الشركة، وهكذا دخلت النّجف سنة 1920 الصّراع ضِدّ الاستعمار البريطاني لمصلحة الأتراك، علماً أنّ الأتراك كانوا من السّنة الذين يضطهدون الشيعة آنذاك، ولكن مع ذلك كانت الروح الإسلاميّة هي التي تتحرَّكُ من خلالهم، حيثُ ذهب العلماء ومنهم السيِّد محسن الحكيم والسيّد محمد سعيد الحبوبي إلى إصدار الفتاوى بالجهاد، وخرج العلماء والطُلاَّب من النّجف لمحاربة الإنكليز، وحين يُذكرُ تاريخ العراق يُذكَرُ تاريخ ثورة العشرين حين انطلقت العشائر بفعل فتاوى العلماء في استقدام الملك فيصل ليكون ملكاً على العراق، ودخل بعض المعمّمين بعد سقوط صالح جبر، والشيخ علي الشرقي الذي شغل منصب وزير، والشيخ محمد رضا الشبيبي وغيرهم.

وبعدها، جاء الانقلاب العسكري لـ (عبد الكريم قاسم) فدخلت الحوزة النجفيّة قلب السياسة.

■ **القراءة و المجيء إلى لبنان، والدّراسة في تلك الفترة: (سنّ 16- 17)**

كنتُ أقرأُ المجلاَّت اللبنانية، وشعراء لبنان، وتعرَّفتُ على لبنان من خلالهم فقرأتُ الأخطل الصغير (بشارة الخوري) وإلياس أبو شبكة وصلاح لبكي وأغلب شعراء لبنان، وقرأتُ العرفان التي كانت تصِلُ للنّجف وكانت تُمثِّلُ خصوصيّة لبنان من خلال الجنوب وشعره وأدبِه، وأذكُرُ أني تأثرتُ بلبنان من خلال تأثُّري بالأخطل الصغير، فهو من أوائل الشُّعراء اللبنانيين الذين تركوا أثراً في داخلي ونفسي. لقد تابعتُ لبنان وأنا في النجف حتى أني قرأتُ لبنان من خلال تُراث شعرائِه.

■ **أوضاع لبنان السياسيّة والفكرة عنها:**

لم تكن لديَّ فكرة عن الوضع السياسي في لبنان قبل مجيئي، ولكنيّ كنتُ أسمعُ عن أحمد الأسعد، أي عن الأسعديّة والعسيرانيّة آنذاك، فلم أكن متعّمقاً في ذلك، حتّى جئتُ إلى لبنان سنة 1952 مع والدتي وأخي الأصغر، وأذكُرُ أَنني وصلتُ إلى لبنان يوم دفن المرحوم السيِّد محسن الأمين أحد العلماء الكبار الذي كان مقيماً في الشام، ونزلتُ في بيت المرحوم علي بزي خالي، وكنتُ أعيشُ أجواءَه في بيته لا سيَّما أنّهُ كان مقصد الناس فأستمعُ إليه، وقد كان رحمه الله، وكما ينقلُ زهير عسيران في مذكّراته، ينتظر لي مستقبلاً كبيراً لم أكن أنتظِرُهُ أو أَتوقّعُهُ أَنا، وقد كان يُحدّثني كما يُحدِّثُ الكبار وأذكُرُ أنني شاركتُ معه في أسبوع إمام الشيعة الذي أقيم للسيّد محسن الأمين في قصقص ـ الشارع العام ـ واستمعتُ إلى كلمات العلماء والأدباء آنذاك، وفي تلك الفترة أيضاً شاركتُ في أربعين السيِّد محسن الأمين، وأذكُرُ زيارتي لحسين مروّة في مكتبتِهِ، وهناك تعرَّفتُ على «فرات» ابن الجواهري، وشخصيات أخرى.

القصيدة الأولى في أربعينية السيّد الأمين :

لقد أثارت عمامتي سخريّة البعض في حفل تأبين المرجع السيّد محسن الأمين وذلك نظراً لعمري، وأنّني سأنظمُ قصيدة تقليديّة للنجف حيث كان هناك تصوّرٌ غير دقيق لأن النجف كانت تُمثّلُ انفتاحاً على العصر، وحين نظمتُ القصيدة وجئتُ بها إلى السيّد حسن الأمين، المشرف على حفل أبيه، تضايق بدايةً لأنّه لا يعرفني، ولكنّهُ حين قرأ القصيدة تغيّرت نظرته، وقد ألقيتها في حفل الأربعين. واشتملت على تأبين الراحل، وانفتاحه، وروحه الثوريّة، ومواكبته للحركة السياسيّة في سوريا، وعن الاستعمار الفرنسي، وعن الوحدة الإسلاميّة، ومشاكل الشّباب، وأذكر أنّ جريدة « النضال » كتبت بعدها : « وألقى السيد محمد حسين فضل الله قصيدة أثارت مشاعر الجماهير » .ومن الخطباء الذين تواجدوا حينذاك. كامل مروّة، ومصطفى السباعي المرشد العام للإخوان المسلمين في سوريا ولبنان، (والشاعر محمد علي الحوماني) وكُلّهم شاركوا في حفل الأربعين.

لذلك إني أعتقِدُ أنّي دخلتُ لبنان من الباب الواسع* .

■ **صورة لبنان الواقعيّة والذهنيّة ؟ هل تطابقت صورة لبنان الخيال مع الواقع الذي عايشتَهُ ؟**

لا طبعاً، كانت الصورة أكبر وأكثر عمقاً وتعقيداً، لأني دخلتُ من خلال هذه الروح الحواريّة التي تتقبّلُ الآخر، من الباب الواسع، فحتى عندما ذهبتُ «لبنت جبيل[1]» كنت أعقِدُ جلسات واسعة وكبيرة مع الشيوعيين والقوميين العرب (وحدة تحرُّر ثأر) والبعث كان لا يزال جديداً، لقد كنتُ ألتقيهم وأدخلُ في نقاشٍ معهم وحتّى مع القوميين العرب أذكر أن

---

(١) بنت جبيل :مركز قضاء في جنوب لبنان، ومن قراها « عيناثا » مسقط رأس الشاعر

(X) القصيدة منشورة في ملحق قصائد سماحة السيّد

جلسات الحوار كانت جلسات عنيفة جدّاً لا سيّما أنّ الإنسان في بداية حياته قد لا يملِكُ ثقافة واسعة، وكذلك كان الآخرون.

هكذا انفتحتُ على الواقع اللبناني، ونظمتُ القصائد الكثيرة ممّا فيه جانب سياسي ونشرت بمعظمها في العرفان، وأذكُرُ أثناء نزولي إلى مكتبة العرفان ومكتبة هاشم وهي المكتبات التي كانت في شارع المعرِض، أنني التقيتُ بلبيب الرّياشي وأكثر من أديب وشاعر.

■ حسُّ المعاصرة وردود الفعل عليه في الحوزة:

لم تتح لي الفُرَص أن أدخلَ النّجف من الباب الواسع، لذلك لم يكن لي ذلك التأثير ما بين (16 و17) ولكنّ التأثير الكبير كان لي متأخِّراً وتقريباً سنة 1958، ولقد فكرّت أن أَرجعَ إلى لبنان، لا أن أُقيم دائماً في الخارج.

■ قراءة جبران ومعرفة الواقع الدّيني النّقدي من خلال مطالعاته:

لقد كانت معرفة الواقع الديني من خلال مطالعة أدب جبران متأخرة، عندما كثرت زياراتي للبنان. فهذا النوع من الوعي الديني النّقدي كان متأخّراً. وفي الزيارة الأولى بقيت في لبنان حوالي أربعة أشهر ثُمَّ عُدتُ إلى النّجفِ وتابعتُ دراستي. وعندما جاء المرحوم الوالد إلى لبنان جئتُ معه وبقيت مدّة سنة تقريباً. ولقد كان لي ذكريات إنسانيّة مع حسين مرّوة، الذي قرأتُ مذكّراتِهِ وحاورته... ثُمَّ إنّي حاولتُ إتقانَ لغة أجنبيّة لكن لم تتهيأ لي الظّروف. ومع انزعاجي من هذا الأمر فإنّي أحاوِل التعويض بالترجماتِ...

■ جو النّجف السياسي والديني حتى سنة 1952! هل كان هناك مذهبيّة ما؟

لا لم تكن المذهبيّة طاغية. ومن الطبيعي كان الشيعة يشعرون بالغنى ولكنّ القضيّة لم تكن بارزة بالمستوى أن هناك حركة طائفيّة، وإحساسُ الغنيِ إحساسٌ واقعي حقيقة، ولكنَّهُ لم

يتحوَّل إلى حركة سياسيّة أو تيار سياسي وقتها. ولعلَّ المسألة كانت استعماراً بريطانياً،فحتّى خلفيّة الحكم الملكي كانت تُعتبر خلفيّة الاستعمار البريطاني،وأذكر لشاعرٍ حول هذه المسألة مخاطباً أحد الوزراء: (في ما يتعلّق بالمستشار الانكليزي)

المستشار هو الذي شرِب الطّلى فعلامُ يا هذا الوزيرُ تُعَرْبِدُ

المحور الثالث

محمد حسين فضل الله
ميِّزات وشمائل حياة

إنني اعيشُ حياتي دائماً في التطلُّعِ نحو المستقبل. لستُ ما ضويّاً وإنْ كنتُ أُدرسُ الكثير من الماضي فيما يبقى للحياة لأنني أعتبر أنَّ هناكَ في الماضي ما لا يُحاصِرُهَ الزمن لأنَّهُ فكر الحياة".

محمد حسين فضل الله

■ ***عندما ينظر العلامة السيد محمد حسين فضل الله إلى (محمد حسين فضل الله)؟***

ما يربطني بهذا الاسم هو العنصر الإنساني الذي يتحرك في كل مبادراته منذ أن كان طفلاً وانفتح على الشباب وعاش الآن في الكهولة.

كان هذا الإنسان ـ الطفل ـ لا يعيش الدوائِر الصغيرة في الطفولة، كانت ملاعبه هي الآفاق التي تنفتح على المعرفة التي كان يتحرك فيها بحسب الدائرة التي كانت تحكم وعيه آنذاك. لذلك لم أبصره في ملاعب اللهو، وربما ترك ذلك في داخل أحاسيسه الطفولية بعض الاستلاب.

كنت أجد أن لهذا الإنسان ـ الطفل ـ اهتماماً بالسياسة التي تتجاوز الموقع الذي عاش فيه، وهو النجف، ولا أدري كيف كان هذا الطفل، وهو في الثانية عشرة من العمر يفكر بفلسطين، ويستعيد صلاح الدين، ويستنهض العرب على أساس أن الحق هو حقنا. وأتذكر أنه كان يقول آنذاك (العام 1947):

(دافِعُوا عن حقِّنا المغْتصَبِ   في فلسطينَ بحدِّ القُضُبِ،
وٱذكُروا عهدَ صلاحٍ حِينَما   هبَّ فيها طَارِداً الأجنَبِي

كيف قفزت فلسطين إلى ذلك الذهن الذي كان لا يزال يعيش مرحلة الطفولة المتقدمة. وهكذا كنت الطفل الذي يفكر في أن يكون صحافياً، فأصدر مع بعض أقرانه ممن يعيشون هذه الحالة مجلة خطية بإسم (الأدب) وكان يستكتب بعض الأدباء فيها، ولا أدري كيف أقتنع أديب من الأدباء أن يكتب في هذه المجلة التي كانت تُكْتَبُ، وحسب عدد المشتركين، بخط اليد، وكنت أحدِّقُ بهذا الطفل لأجد لديه حالة جنينية تنفتح على المعرفة التي لم تكن منظمة.

■ **يعني كنت اثنين في داخل شخصية تميزت بخصال عديدة:**

كنت أعتقد أنه كان هناك شيء ما يتحرك، وكان هناك شيء يراقب التحرّك أو يقبل أو لا يقبل، يخاف أو لا يخاف، فلا أدري وأنا أُحدِّقُ فيه وهو في سن الرابعة عشَرة أو الخامسة عشرة كيف يجمع بين قراءة (المصوِّر) وآخر ساعة، ومجلة (الرسالة) لأحمد حسن الزَّيات، ومجلة الكاتب المصري لطه حسين. لا أدري كيف كان ـهذا القارئ- يجمع بين هذه المستويات، وكان يتابع وهو لا يتقن أية لغة أخرى، ترجمات لامارتين لأحمد حسن الزيات، وترجمة أناتول فرانس، وغيرها من الترجمات.

وانفتح هذا الطفل على الشباب، وتوسعت آفاقه، فكبر الشِّعر فيه، وكَثُر. وبدأ الناس يستمعون إليه، والنجف التي عاش فيها هي البلد الشاعر الذي يتنفس شعراً.

■ **الذهاب إلى النجف كرحلة حياة، كيف حَصَلَ ذلك؟**

ولدت هناك، لأنَّ أبي أقام في النجف تلميذاً ومدرساً في الحوزة العلمية لمدة ثلاثين سنة، ولذلك أنا ابن النجف طفولة وشباباً، ولذلك غَلَبتْ عليَّ لهجتُها.

■ **ولكن أحزانك جنوبية في الشعر فهل أنت عاملي لبناني ونجفيٌّ عراقي؟**

هي كل الرواسب، والبيت الذي كانَ بيتاً جنوبياً، وأنا في تلك المرحلة كنتُ أقرأُ كل لبنان.. كنت أقرأ (العرفان) وأقرأ الجنوب فيه، بكل ما فيه من قصائد الجنوبيين وأبحاثهم، وكنت إلى جانب ذلك أقرأ بشارة الخوري (الأخطل الصغير) وإلياس أبي شبكة، وصلاح لبكي، ولذلك عندما جئتُ إلى لبنان عام 1952، وكنتُ في السابعة عشرة، كانت أول انطلاقة لي أنني ألقيتُ قصيدة في أربعين السيد محسن الأمين في شارع قصقص إلى جانب كبار الشعراء...

■ **أجئتَ إلى لبنان ومناسبة السيد الأمين معمّماً؟**

جئتُ معمّماً، وكانت هناك مفاجأة بهذا الشاب الذي كان لا يزال في بداية الشباب، يلقي قصيدة عن ظهر قلب...

■ **مَنْ كان حاضراً من الشعراء الكبار في هذه المناسبة التي شاركت فيها؟**

كان الشاعر الحوماني، وعدد من الشعراء الجنوبيين وعبد المطلب الأمين، وكان إلى جانبي كامل مروة صاحب جريدة (الحياة) وكان الدكتور مصطفى السباعي المرشد العام للإخوان المسلمين في سوريا ولبنان، وكان الكثيرون ممن غاب عني أسماؤهم وهي موجودة في كتب أعيان الشيعة، وقد كتبت جريدة (النضال) آنذاك لمصطفى المقدَّم حيث قالت: (ألقى السيد محمد حسين فضل الله قصيدة استثارت مشاعر الجماهير لأنها كانت قصيدة سياسية وحدوية اجتماعية إسلامية). وقد استفدت من وجودي في تلك المرحلة في لبنان في دراسة مشاكل الشباب، وكنت ألتقي بكثير من المفكرين، كالدكتور حسين مروّة وأتردد على دائرته، وألتقي ببعض الشعراء والأدباء والشباب والباحثين. وكنت أعقد جلسات حوارية في بنت جبيل وعيناثا[١] (مسقط رأسي) وكذا في بيروت مع الشيوعيين ومع القوميين.

■ **وماذا كان الهدف من تلك اللقاءات: الإنفتاح، أم الحوار أَم التعارف، أَم التحدّي؟**

كنت مع كل هذا الجوّ إسلامياً، ولذلك كنت أفكّر منذ البداية إسلامياً يجد أن هناك فكراً علمانياً شيوعياً قومياً من خلال الأولجة التي كانت تختزنها القومية العربية، طبعاً بحسب المستوى الذي كنت أفكر به في الإسلام وفي التيارات الأخرى، والذي ربما تغيّرت نظرتي إليه بعد ذلك..

---

(١) عيناثا: مسقط رأس أجداد الشاعر المرجع السّيد محمد حسين فضل الله وهي من قرى قضاء بنت جبيل.

وكنت بهذا المستوى من المعرفة أحاور كثيرين من الشباب وفيهم مسؤولون من الحزب الشيوعي، ومن حركة القوميين العرب التي كان شعارها (وحدة، تحرّر، ثأر) وفي بداية البعث العربي آنذاك في الخمسينات عندما كان « ميشال عفلق »(١) هو الذي يقود البعث العربي.

■ كما نفهم أن النيران شبّت في ثيابك منذ أن كنت طفلاً في النجف، كانت هناك نيران فكرية وسياسية، وما زالت النيران في ثيابك: هذه الحياة كيف تعيشها؟

إنني أعيش حياتي دائماً في التطلع نحو المستقبل، لستُ ماضوياً وإن كنت أدرس الكثير من الماضي مما يبقى للحياة، لأنني أعتبر أن هناك في الماضي ما لا يحاصره الزمن لأنه فكر الحياة.

لست ماضوياً ولا علاقة لي بنقل الماضي إلى الحاضر، كل ما عندي من الماضي أني آخذ حقائقه وكل عناصر الأصالة فيه لأحركه في الحاضر، ولآخذ من الحاضر أسلوبه وأفقه وسعته، لذلك فأنا أشعر بنفسي في غربة عندما كنت أكف عن القراءة عدّة أيام، لأن العالم يتحرك ويتطور.

■ ما هي السمات الرئيسية التي ميزت طفولة السيد؟

لعل الذي ميز طفولتي الأولى أنني عشت في بيت علمي بالمعنى الحوزوي، في ظل ظروف بؤس من الناحية الاقتصادية بحيث لم نكن كعائلة نشعر بالحياة الطبيعية من الناحية الغذائية وما يلحقها من ألبسة وأطعمة. لقد ولدت في النجف الأشرف، البلد التقي الذي يعيش على كتف مقبرة هي دار السلام من أكبر المقابر في العراق وفي العالم، حيث يدفن العراقيون موتاهم وتأتي أيضاً جنائز من سائر أنحاء العالم الذين يوصون بأن يدفنوا في هذه المقبرة التي تقع إلى

---

(١) ميشال عفلق مؤسس حزب البعث الاشتراكي، الذي عانى الشَّعبُ العراقي من خلالِه شتّى أنواع المظالم خلال عهد صدام حسين. وانتهى حكمه في العراق بالإحتلال الأميركي لهذا البلد عام 2003.

جانب قبر الإمام علي (ع). ولذلك كنا نستقبل في طفولتنا كل مناظر الجنائز التي يؤتى بها من الخارج، فتولد لدينا حالة من الشعور بالموت.

من الطبيعي أيضاً أن الأجواء الدينية بمناسبة عاشوراء كانت تترك تأثيراً مأساوياً في النفس. وبما أن النجف بلد شاعر، فقد كانت المناسبات الدينية والتأبينية تزخر بالقصائد التي يقرأها الشعراء مما ترك في نفسي تأثيراً أدبياً. ولكنني كنت منذ البداية لدي تطلع للقراءة، وبدأت أكتب الشعر مبكراً في العاشرة من عمري، وكانت تطلعاتي حديثة معاصرة، يعني مبكرة. وطبعاً أنا بدأت بالحوزة مبكراً وذلك في العاشرة من عمري، ولبست العمامة في الثانية عشرة باعتبار أنها كانت الزي لطلاب العلم بقطع النظر عن المرحلة التي يبلغها الطالب، لأنها لم تكن تمثل مستوى علمياً.

من الطبيعي أن كل هذه التراكمات تركت تأثيراً في نفسي، وفي نفس الوقت كان المرحوم الوالد منفتحاً على أولاده، بحيث لا يعنف معهم بل كان ينفتح عليهم، وهو ما أعانني كثيراً على الانفتاح على رحابة الكون وعلى أن أستقبل الحياة بنظرة متفائلة لا متشائمة.

■ **هل تميزت مرحلة الشباب عند السيد بطابع خاص؟ وهل كان مختلفاً عن بقية أقرانه؟**

كان القلق الذي أعيشه في نفسي نحو الدخول في العصر، يمنحني إحساساً شبابياً بما يشبه الضباب، الضباب الذي لا يعرف الإنسان فيه ما يريد ولكنه يحاول أن ينتفع. وربما كانت قراءاتي الأدبية، قراءة القصص المترجمة عن الفرنسية والشعر المترجم عن الفرنسية، أيضاً المجلات التي كنت أقرأها في بدايات الشباب لا سيما مجلة «الكاتب المصري» لطه حسين ومجلة الرسالة والثقافة وقصائد الشعراء المصريين هي التي جعلتني أعيش فيه. وكنت إلى جانب أصدقاء عراقيين وخليجيين من الأدباء في النجف، قد أسسنا أسرة الأدب اليقظ، وهي أسرة أدبية تنفتح على الأدب الحديث، حتى كنا أوائل الذين كتبوا الشعر الحر في أوائل الخمسينات

في النجف الأشرف، لذلك كنت معاصراً منذ البداية ولم أكن تقليدياً مع الاحتفاظ بالخطوط الإسلامية في السلوك العام.

■ **سماحة السيد نحن نعلم أن توجهك إلى الدين والدراسة الحوزوية كانت بفضل الوالد -رحمه الله- وكان له التأثير الأكبر على حياتك، هلا حدثتنا عنه وعن معاملته؟**

لعل المرحوم الوالد كان من الشخصيات النادرة الذي كان يملك رحابة الصدر في الحوار، فلم يكن يتعامل معي كأب يفرض نفسه على ولده ويفرض عليه رأيه. لم أذكر أنه ضربني مرة واحدة، بل كانت طريقته الحوارو الصمت الذي كان تأثيره أكبر من تأثير الضرب في الذّات. كنت أحاوره في القضايا العلمية والحوزوية ونحن على مائدة العشاء أو الغداء، وكنت أناقشه فيما لا يناقش فيه، إذ كنت أحدثه حول القضايا التي لا يتقبلها المحيط، ولا أن يناقشَ فيها وقد تكون من المحرمات الفكرية، وكان صدره يتسع لذلك ويناقشني وأناقشه. وقد استمرت حياتي الفكرية الحوارية معه في مختلف القضايا إلى الليلة الأخيرة التي توفي فيها. لقد كان الإنسان الذي يعيش روحانية المؤمن التي ترتفع إلى مستوى القداسة، بحيث كان كل الذين يجلسون إليه يشعرون بأن الروحانية تفيض من وجهه، حيث كانوا يتميزونها وهم ينظرون إليه حتى ولو لم يكن يتحدث. وإذا كنت أملك شيئاً من الروحانية فقد تعلمت ذلك منه، وهكذا علمني كيف أحب وكيف يتسع صدري لمن أختلف معه ولمن أتفق معه، ولذلك أعتبر أن تأثيره علي كان كبيراً جداً.

وجدانيّات العمر:

■ **ولكن هل ما زال تأثير الوالدين على أولادهم بنفس النسبة؟ وعلى من تقع مسؤولية تربية الشباب في هذا العصر؟**

في عقيدتي أن الإنسان يبقى إنساناً سواء كان طفلاً أو شاباً. المشكلة الموجودة عند كثير من الأهل أنهم لا يفهمون أولادهم، لذلك يتحركون مع الولد من خلال أفكار مسبقة عن طريقة تربية الولد، أو ربما يختزنون في ذاتهم طريقة آبائهم في التربية، لأنهم يعتبرونها النموذج في تربية أطفالهم في هذا العصر، أو يتقمصون شخصية مستبدة التي قد تعيشها بعض المجتمعات في سيطرة الأب على الأبناء. ولعلنا نسمع الكثيرين من الآباء الذين يصرخون على أبنائهم وبناتهم وحتى أمام زوجاتهم باعتبار أن الكلمة لي في البيت وأنه ليس لأحد أن يعترض أو يناقش. وقد تحدثت في أكثر من مداخلة فكرية أننا نربي أولادنا على أن يتقبلوا الاستعمار وأن يخضعوا للظالم، لأن الأب يحكم أولاده بالطريقة التي لا تسمح لهم بالحرية في أن يتكلموا كلاماً معارضاً أو أن يناقشوا أو أن يبدوا رأيهم. المسألة هي أن الأب تارة وربما الأم أخرى هم الذين يتدخلون حتى في عواطف أولادهم وفي مشاعرهم وفي رسم الخطوط العريضة والطويلة لحياتهم، هؤلاء يصنعون من أولادهم أناساً يخضعون للقوي، وإننا قد نتربى في بيوتنا وفي مجتمعاتنا من خلال رئيس المنطقة أو العشيرة، على قبول الاستعمار حيث يصبح الإنسان خائفاً من أن يكون حراً في بعض الحالات.

أنني أعتقد أن الأب والأم إذا كانا حكيمين فإنهما يستطيعان التأثير عليهم بطريقة أو بأخرى. لكن علينا أن نعرف أن للبيئة تأثيرها سواء بيئة المدرسة أو الرفاق أو المناخ العام لأن أولادنا ليسوا أولادنا فحسب بل هم أبناء المجتمع.

أعتقد أن للبيت دوراً كبيراً إذا أحسن فهم شخصية الأولاد ولذلك علينا منذ البداية أن نعوّد أولادنا على الاعتماد على النفس وعلى أن يستطيعوا أن يفكروا بحرية، لتنمو هذه الحرية الفكرية التي تجعل من الولد إنساناً حراً في المستقبل في فكره أو في مواجهته الآخر بأفكاره أو بأوضاعه.

■ محمد حسين فضل الله والزمن: الآن مرّت سنوات وسنوات على تلك الطفولة، لا ندري

ما إذا كان الطفل موجوداً فيك؟ ولكنَّ الزَّمَنَ لا بُدَّ أن يكون موجوداً فيك؟

لديّ قصيدة في ذلك وهي «من صور الشّباب» صورت فيها أن أية مرحلة في الإنسان لا تلغيها المرحلة الأخرى فالإنسان يبقى طِفْلاً وهو شَابّ، ولذلك نرى بعض الشباب يمارسون بعض نزوات الأطفال... ومنها:

«هذا الشَّبابُ: الطالعُ النّشوان... من خمرِ الحيَاةْ
الظَّامئ الصَّادي إلى فيضِ الهوى بينَ الشِّفاهْ
يجري ولا يدري المصير.. وأَينَ فِيْهُ أَن يراهْ
ويهيبُ بالدُّنيا نداه لِتَسْمعَ الدُّنيا نِداهْ
هيَّا إلى سُبُلِ الهناءِ فما الحياةُ سوى الرَّفاهْ
والكونُ.. إنَّ الكونَ روضٌ.. فلنُمَتّعْ في رؤاه...»[1].

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ط١، دار الريِّس، ص ٩٢.

■ **هل تتأمل في المرآة؟**

قلّما أتأمّلُ في ٱلمِرآة.

■ **لكن ألا يُفتَرَضُ أنْ تَرى وجهَكَ يَا سيِّدي؟**

أنا أعتقِدُ أنَّ وجهي هو مسؤوليّة الناس وليس مسؤوليتي.

■ **هل تُحاوِرُ عَيْنَيْكَ لأن لهما حواراً مختلفاً؟**

أنا أعيش عينيَّ في قلبي، وأنَا لاَ أستغرِقُ حتَّى في الحَالَةِ الحزينةِ بشكلٍ مَأْسَاويّ، ولذلِكَ أقولُ فِي قصيدةٍ:

أنَا يَا لَيْلاَيَ مَهْمَا يَعْتَصِرْ — مِنْ دِمَائِي اللَّيْلُ فِي عَسْفِ التَّجنِّي
فَدَمِي قِيْثَارَةٌ تَعزِفُ لِي — أُغْنِيَاتِ النُّورِ فِي وَحْي التَّغنِّي
وَأَنَا عَبْرَ الْمَدَى مَا ضَرَّنِي — أَنَّنِي وَحْدِي أَحْيَى وَأُغنِّي
أَزْرَعُ ٱلبَسْمَةَ فِي دُنْيَا غَدِي — وَأُثِيرُ النُّورَ فِي أَطْيَافِ جَفْنِي
وَأُنَاجِيْكَ وَحَوْلِي جَنَّةٌ — مِنْ رُؤَى فَنٍّ وَمِنْ أَطْيَابِ حُسْنِي
فَأَنَا أَخْلُقُ وَحْدِي جَنَّتِي — فَأَرَى الَّلذَةَ فِي أَعْمَاقِ حُزْنِي(١)

■ **كيف تلبّسك الشعر وكيف أتيت إليه سماحتكم؟ ومتى كتبت أول قصيدة؟**

عشت في مدينة شاعرة، وهي النجف، والعيش في النجف مجاورة للشعر فحفلات التأبين، والمواليد، والتعازي تحفل بالشعر، كما أني من عائلة شاعرة، لذلك ولدت شاعراً، حتى عندما استيقظت الحياة في داخلي وكنت في العاشرة من عمري نظمت الشعر وزاولته.

(١) – محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ط1، دار رياض نجيب الريّس، ص:28 (أنا يا ليلاي).

■ **يرى سماحة العلامة محمد حسين فضل الله (أن الإنسان في الحاضر يمثل بعض طفولته وشبابه) فماذا تبقى من تلك الطفولة وذاك الشباب لناحية الدفق الشعري؟**

إنني في ملاحقتي لحركة الإنسان فيّ أشعر بذلك الدفق الشِّعريّ بمقدار ما تسمح لي التجربة، لتتحوّل إلى حالة إيحاء تارةً، وإلى باعث اقتحامي في وجه بعض الحواجز التي تنصبها الحالة الجديدة تارة أخرى.

فنحن نجد أن الإنسان وهو في مرحلة الشباب التي تتوازن فيها حركته، يلجأ في كثير من الحالات إلى أن يعيش ألعاب الطفولة، وقد تصاحبه هذه الحالة حتى في مرحلة الكهولة عندما يعيش بعفويته مع أطفاله حالة الصبا، بحيث أنك وأنت تحدق به وهو يداعب طفله فإنك تشعر بأن صباه يتجسد بطريقة غير متكلفة، كما لو كان طفلاً يعيش مع طفل.

وهكذا عندما نلاحق حركة الشباب في الكهولة، فإننا نجد أن الكهل يعيش بعض نزوات الشباب أو بعض أحلامه، وهذا ما يتحدث عنه بعض الناس عن مراهقة الخمسين والستين.

إنها ليست حالة مرضية، ولكنها تمثّل حركية الشباب الذي حرم منه الإنسان وكيف يعبّر عن نفسه بطريقة أو بأخرى في إحدى غفلات الكهولة.

■ **الطفولة وأحاسيس القلق والمأساة كتجربة في حياة السيِّد:**

عندما أعيش تجربتي في هذا المجال فإنني أجد أن طفولتي كانت تختزن الكثير من المأساوية (باعتبار أنني ولدت في النجف) ذاك البلد الذي تأتي إليه كل جنائز الشيعة في العراق لتدفن هناك، وهو البلد الذي تطل فيه على تلك المقبرة الواسعة، فتشعر أن الموت يلاحقك كظاهرة متحركة، بقطع النظر عما إذا كان ذلك هاجساً أو لم يكن.

وهكذا كنا نعيش بعض الأجواء التي تتحرّك في نطاق العادات والتقاليد المعروفة هناك، كما كنت أعيش ذلك القلق الروحي الذي كان يتساءل دائماً، والذي كان يعمل على أن

يقتحم دائماً، تماماً كما لو كان هناك شيءٌ ما مجهولاً يحاول أن يكتشفه.

إن كل هذه الأجواء سواء ما اختزنته من أحاسيس المأساة، وأحاسيس القلق لا تزال تعيش في تجربتي كحالة طفولية، وقد تتداخل مع حالة الحيرة، والتساؤل، والمأساة التي كبرت وأصبحت همّاً في السياسة والاجتماع، ولكن الحذر كان هناك.

إنّي استرجعُ بعض ذكرياتي في إحدى القصائدِ قائلاً:

إيه ذكرى الأمس القريب أنا وحدي، فهل يؤذن المدى بالرجوع
أنا في غربتي، هنا، في اكتئاب الليل، يا للفتى الغريب المروعِ
كان هذا اللقاء في خاطر الأيام حلْماً ملوّناً بالدموعِ
وأنا الآن في نجاواي، أحياه جراحاً في مقلتي وضلوعي
يا أَحِبَّايَ، هل تعود أمانيّ فأحيا ما بين شملٍ جميعِ
وقلوبٍ تحنو عليّ إذا ما أطفأت وحشة الظلام شموعي
يا حياة اللقاء عودي فقد أترع كأسي، عهد النوى، بالنجيع...
(النجف: 22-4-1957)

(١) محمد حسين فضل الله على شاطىء الوجدان، ط 1، دار رياض الريِّس «يا حياة اللِّقاء»، ص 56.

المحور الرابع

النجف
حاضرة الفقاهة والأدب

"عندما ندرسُ تاريخ النجّف، ندرسُ جيلاً كبيراً من الشُّعراء... ولقد كانت النَّجف تتميّز بأنَّها تمثّلُ في تقاليدها جّواً شعريّاً يتنفَسُ الناسُ فيه الشِّعر...".

محمد حسين فضل اللّه

النّجف حاضرة الفقاهة والأدب

■ **سماحة السيد ولدتم في النجف وترعرعتم في مدرستها الدينية والفقهية، فهل كان للنجف تأثير على انتمائكم الشّعري؟**

- النجف كما يعرف الكثيرون هي مدينة يعيش في داخلها حوزة علمية دينية إسلامية ترقى إلى أكثر من ألف سنة. ومن الطبيعي أن تكون خصوصيتها، أنها جامعة علمية دينية فقهية على الخط والمذهب الشيعي.

لكن طبيعة الدراسات التي يحتاجها الاجتهاد هي دراسة العلوم العربية والتي من بينها علوم البلاغة التي انطلقت ليتعرف الناس إلى سِرِ الإبداع والإعجاز في القرآن الكريم. حيث استطاعت أن تحرّك الإحساس الأدبي والذي كان يتمثل بالتجارب الشعرية التي كانت تتنوع حسب تنوّع الإحساس الفنيّ للشاعر. وكنا عندما ندرس تاريخ النجف، ندرس جيلاً كبيراً من الشعراء الذين قد لا يعرفهم التاريخ الأدبي باعتبار أنه لم يُهيّأ لهذا التاريخ أن يطل على النجف كمدينة شاعرة، ولكن هناك بعض الأسماء التي برزت من خلال ظروف النَّجف أمثال: اسم السيد محمد سعيد الحبوبي الذي يعتبر من الشعراء المبدعين ومن العلماء والفقهاء، محمد مهدي الجواهري، وأحمد الصافي النجفي فهؤلاء ثقافتهم الأدبية ثقافة نجفية.

وعندما تعيش المرحلة التي عشتها في النجف تقرأ كل ما ينشر من فكر وأدب، سواء أكان أدباً للنثر، أو أدباً للشعر في مصر وفي لبنان. ولهذا فأنا أذكر في بواكير عمري الشعري وكنت في سن الثانية عشرة كنت اقرأ إلياس أبو شبكة والأخطل الصغير وصلاح لبكي، وكنت أقرأ لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ومحمود حسن إسماعيل وشعراء آخرين. كما كنا نطل أيضاً على الشعر السوري مثل خليل مردم وبدوي الجبل، ونقرأ كلّ ما تقع عليه أيدينا من مجلات. ففي بداية شبابي في ذلك الوقت كنت أقرأ للكاتب المصري طه

حسين والرسالة لأحمد حسن الزيات، فتأثرت بأجواء شعرية متنوعة. وكانت بدايتي الشعرية غير تقليدية. منذ البداية تتأثر بالجو اللبناني بشكل بارز جداً. وكانت النجف تتميّز بأنها تمثل في تقاليدها جواً شعرياً يتنفس الناس فيهِ الشعر. فعندما تفقد عالماً كبيراً تقام حفلات التأبين أو ما يسمى بالفواتح وكما في كل مجتمع ينبري شاعر، شاعران، ثلاثة شعراء، يلقون قصائد لا تطل فقط على المناسبة لكنها تنفتح على كل الواقع الاجتماعي والسياسي أيضاً، بحيث كانت تجري المساجلات. فشاعر يطرح موضوع نقد اجتماعي ثم يبرز شاعر يناقش ثم شاعر ثالث يوازي بين الثلاثة، فكنتَ تشعر أن المناسبات التقليدية تعطيك جواً شعرياً داخلياً حتى ولولم تكن شاعراً.

■ **هل ما زلتم تذكرون شيئاً عن تلك المناسبات وبعض الذي كان يقال فيها؟**

– مثلاً، أذكر ما قبل واحد واربعين سنة تقريباً، كان هنالك عالم في النجف اسمه الشيخ محمد علي ياسين*، وهو من الفقهاء الذين يمثلون مرجعية دينية مهمة، توفي فبقيت احتفالات التأبين تقام حتى الاربعين. حيث أذكر شاعراً عراقياً ما زال موجوداً الآن وهو الدكتور مصطفى جمال الدين* له قصيدة رائعة في تأبين الشيخ ياسين، في مجملها كان ينقد فيها الطريقة التي كانت تنقل طريقة التدريس في النجف أي الطريقة القديمة، وما زلت أحفظ منها بعض الأبيات. يقول:

يا سادة النجف العالي وقادته...

عذراً إذا ما طغى ما كنت ادفعه.

(*) الأسماء (الخاصّة بالأعلام في الكتاب يمكنُ مراجعة ترجمتها في موسوعة معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال الف عام. ومعجم الأعلام للزركلي.

(1) توفي في دمشق منذُ سنوات قليلة.

فهل أرى جمعكم يهتز منه كما

في الحقل مرّ الصدى فاهتز أجمعه

وهل تكونون من مصرٍ وأزهرها

كما يكون من السلسال منبعه

أو لا، فنحن أناس عمرنا سفهٌ

إن لم يكن بأتيَ زيدٌ نضيّعه

سيروا بمجمعكم جداً لغايته

فالخير وقف على من كان مجمعه

وجدّدوا الخَلق البالي فقد سقطت

أزياله وأرى الناس تخلصه

... وينبري شاعر ثان ليقول:

أخي يا جمال الدين غرَّدتَ بلبلاً

وضاهيت في نظم الأغاريد عَبْقَرَ

إلى أن يقول (وهو شعر تقليدي):

فما الأزهر المغري الفتى غير إنه

ببهرجة الألفاظ قد صار أزهرا

ثم ينبري شاعر ثالث يوازي بين الاثنين وهو الشاعر علي الصغير يقول:

سيَّان ذا الوادي به والأزهرُ

كل له خطط توجِّه سيرَهُ

نحو العلى ولكلّ قُطْبٍ محورُ

ثم كانت هناك الاخوانيات في النجف حيث أخذت مجالاً واسعاً في الشعر، فعندما كانوا يجتمعون إلى مائدة ما كنا نجد الشعر الذي يحمل اللطافة والنكتة. وأذكر أننَّا، كنا مرة في إحدى مدن العراق «سوق الشيوخ» ونحن مجموعة من الشعراء حضرنا احتفالاً، بدا في نهايته نوعاً من أنواع المراسلات بين أدباء تلك البلاد وبيننا. حيث قال أحد الشعراء النجفيين:

رُسلُ الثقافة من نجفْ
سوق الشيوخ لكم هرفْ

وأعزّ متحف قلبه
لتكون أوجهكم تُحفْ
ومضى يرش طريقكم
بدل المدامع بالنغفْ
رسل الثقافة من نجف

قولوا أن نحجيى (بمعنى أن نحكي) أم نكف
أنتم من الأدب الجمال
ومن ثقافتنا الترفْ
فإذا تنّجس قلبه
من ماء طهركُمْ انشطفْ
كم من نقود في سبيل بطونكم
قسراً صرفْ

وأضاع ما يحويه راتبُ شهره

حتى استلفْ

كما كانت حفلات الزواج تقام أيضاً، فينبري فيها الشُّعراء لنظم قصائدهم.

وهكذا كانت الحياة في النجف تختزن قضايا اجتماعية ونقدية يُكتب فيها الشعر وتُشكِّلُ المتنفس.

وفي النجف عدة مجلات كانت تنشر هذا الشعر. وعندما جاءت موجة الأدب الحديث، قابلتها النجف بالرفض، نتيجة للأذن التي تعودت على الشعر القديم ونحن كنا مع بعض الأصدقاء نؤيد هذا الشعر وكوَّنا أسرة عُرِفت باسم أسرة (الأدب اليقظ) وذلك في أيام الخمسينات، وكنا نجرب الشعر وننشره بأسماء رمزية.

■ هل تتذكر بعض القصائد أو الأبيات التي نظمتها في تلك المرحلة:

– في الماضي كنت أحفظ شعري وألقيه دون ورقة، أما الآن فقد خفت ذاكرتي وأشير إلى أن لدي ثلاثة دواوين شعرية[1]. وأذكر في الخمسينات حين أتيت إلى لبنان سنة 1952 يوم وفاة المرحوم السيِّد محسن الأمين، أقيمت حفلة تأبين له في قصقص، في ذكرى الأربعين شاركت في الاحتفال بحضور محمد علي حوماني، وكامل مروة، وأسماء كبيرة غيرهم، وكان من المستغرب وجودي إذ كنت في مطلع الشباب وقد القيتُ قصيدة أذكر منها:

في ذمّةِ القدرِ المبيد

---

(1) الدواوين المذكورة هي:

* قصائد للاسلام والحياة: طُبعَ للمرّةِ الثانية عن دار الملاك ـ بيروت 1421هـ–2001م. بمقدّمة جديدة، وفهرس يتناول عناوين القصائد ووزنها وقافيتها، وعدد أبياتها ورويها.

* يا ظلال الاسلام: طُبِعَ للمرَّة الثانية عن دار الملاك ـ بيروت. طبعة ثانية.

* على شاطئ الوجدان: طُبِعَ عن دار رياض نجيب الريِّس ـ لندن .1990م

روح تسير مَع الخلودِ
روح كما رفَّ الصباح
أَرقُّ من لحنِ القصيدِ
وألذُّ من طبعِ المنى
لطفاً على طبع الوجودِ
تجري على ضوء الحياةِ
مع القديم مع الجديدِ
فيا مُنقذاً هِمَمَ الشبابِ
من الجهالة والركودِ
هذا الشباب وهل يرادُ
سواه للعزمِ الشديدِ
ويحطِّم القيد الثقيلَ
والخيرُ محكمةُ الخلودِ
ضلَّ الطريقَ فضاع ما
بين المسوَّدِ والمسودِ(١)

إلى أن أقول:

وفتّى تعرّى من حجاه
وثورة العزم الأكيدِ

(١) محمّد حسين فضل الله ، قصائد للاسلام والحياة ، ط2 ،دار الملاك ص: 297،(دمعة على المحسن الأمين).

طرق الشوارع باحثاً

عن حان خَمَّار وَغيْدِ

هذا الشباب فهبه روحاً

منك من روحِ الخلودِ

كيف كان حضور الشِّعر الوجداني في ذاتِك وأنت في مقتبل العمر والشباب؟

طبعاً كانت هناك تجارب شعرية وجدانية نُشر بعضها في مجلة الرسالة (التي كانت تصدر في جونية وبعضها في مجلة (الأديب) لصاحبها ألبير أديب. واذكر قصيدة فلسفية نشرت في مجلة (الرسالة) وهي قصيدة فيها لمحات فلسفة بشكل وجداني:

أنا يا ليلاي ما زلت أغنيّ

للضحى حبي وللإشراق فني

وحياتي فكرة لم يكتمل

في حنايا روحها وحي المغني

هبطت للأَرضِ عذراء المنى

ترشفُ الأطيافَ في أطهرِ دنٍّ

شاقها النور فطارت نحوه

بجناح من هواها مطمئن

انا يا ليلاي مهما يعتصر

من دمائي اللّيل في عسفِ التجنّي

وأنا عبر المدى ما ضرّني

أنني وحدي أَحيا وأُغنّي

وحنت تحتضن الحب على صبوات الحسن

في جنة عدن

وستبقى في صعود كُلَّما عاقها

درب تخطته بأمن

فدمي قيثارة تعزف لي

أغنيات النور في فجر التمني

أزرع البسمة في دنيا غدي

وأثير النور في أطياف جفني

وأناجيكِ وحولي جنةٌ

من رؤى فنٍّ ومن أطياب حُسنِ

فانا اخلق وحدي جنتي

فأرى اللذة في اعماق حسن

فتعالي نقطع العمر معاً

بين لهوٍ وعذاب وتغنّي

فهوانا لم يعد أسطورة

في خيال يبدع النجوى وظن

إنه كون رحيب يغدق

الخصبُ نعماه على الروض الأغنّ

فتعالي نبذل الحب فما العمر

إن لم يهدم الحبُّ ويبني[1]

---

(١) – محمد حسين فضل الله : على شاطئ الوجدان ص:28 (أنا يا ليلاي).

غاية العمر حياة ينتشي

في حنايا ها الضحى منكِ ومني

(بنت جبيل 16 / 7 / 1965)

■ **هل هناك بينَ ماضي النجف وحاضره من فوارق في الإبداع؟**

- الحيوية الشعرية التي استطاعت أن تحول الشعر إلى حالة شعبية من دون أن يتبدل واستطاعت أن تعطي الوضوح للشعر. هذا المعنى الذي كان يعيشه الجو الشعري عندما كنا في النجف فُقِدَ الآن، خصوصاً بعد موجة الشعر الحر، الذي جاوز المرحلة التي كانت في بداياته وهي مرحلة بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة. والتي كانت تمثل الجسر بين القصيدة القديمة، والحديثة. باعتبار أنها كانت تحتفظ بالموسيقى، وتطور التفعيلة، ولا تبتعد عن الوضوح. مشكلة التجربة الجديدة التي أصبحت تشمل الشعر العراقي ومنه التجارب الموجودة في النجف هي أن الشعر فقد موسيقاه كما فَقَدَ الوضوح فأصبح يحتاج إلى أن ينطلق الإنسان من المعنى اللغوي الذي، تمثله الكلمة إلى المعنى، الذي يقصده الشاعر. وهنا لا بد أن تمر هذه العملية في الآف الكيلومترات حتى نعرف ما الذي يقصده الشاعر، هذا إذا عرفنا.

■ **في هذا البلد ولا سيما مرحلة عصر النهضة كان عصر الإبداع العربي وكان للبنان اليد الطولى في عملية البناء الشعري والثقافي والأدبي على شكل واسع بما يحتويه الأدب من مواضيع. هذه المرحلة في ما بعد الحرب هل ترى أنها فقدت هذا الإبداع في هذا البلد؟**

- قد تكون كلمة فقدان هذا الجو كلمة غير دقيقة، ولكننا نستطيع أن نفكر أن نعبر بأن الحرب استطاعت أن تبعد عن روحيَّة اللبناني حالة الصفاء التي تختزن في داخلها حسن الإبداع. واستطاع في الوقت نفسه أن يستغرق في الجو الذي فرضته الأحداث، بحيث أصبحت

مسألة المثقف هي مسألة كيف يستطيع أن يواكب آلام الإنسان وتطلعاته من خلال هذه الأحداث، ليكون أميناً على تصوير المرحلة بل أصبح كل همه أن يحافظ على ذاته ووجوده والشروط الضرورية لاستمراره، وبذلك فقَدَ فرصة الإبداع لأن مسألة الإبداع ليست ثقافية بقدر ما هي مسألة شعورية تتأثر بالأجواء التي تحيط بالإنسان.

■ موهوب بالشعر وعمرك عشر سنوات، تابعت الحركة الشعرية وأربابها في عهد شبابك، وتقول بأنك استطعت المزاوجة مبكراً بين الأصالة وبين الحداثة في الشعر، فهل ما زلت مبدعاً جامعاً بينهما بالقدرة نفسها؟

أستطيع القول بأن انفتاحي على الحياة وأنا طفل بدأ بالإستماع إلى الشعر وقراءته خصوصاً أنني من عائلة شاعرة، ولربما تركت هذه الحالة تأثيرات حفرت في اللاشعور عندي نبضات الشعر، حيث كنت أتحسسه من الداخل دون أن أعيه أو أستشعره.

لذلك لم أعِ نفسي إلاّ وأنا شاعر. فقد كان الشِّعر بالنسبة لي شيئاً يعيش بطريقة عفوية جداً، فلم أتكلفه أو أتصنّعه، ونظمي لقصيدة ذات خمسين بيتاً ليس صعباً أمام ما كنت أرتجله من الشعر في بعض المناسبات حيث كان هناك من يتقارع بالشعر. من هنا، الشعر في داخلي حالة نفسية منفتحة على كل ما حولها، فلم أقصد إلى أغراض شعرية محددة في كل ذلك، ولم أكن ملتزماً بالأوزان الشعرية، فعندما انطلقت ظاهرة الشعر الحر، كنت من الأوائل الذين تابعوها ولاحقوا كتّابها، ونظمت بعضاً من قصائدي على أوتاره، رغم ما كان لي من ملاحظات عليه، من خلال ما ينظمه شعراء الحداثة. وما زلت أستطيع المزاوجة بينهما، فلم أفقد اهتمامي بالشعر التقليدي أو الحر، إنما ممارستي له مرتبطة بانشغالي المتراكم بالكثير من القضايا التي أعايشها فتدفعني إلى التعبير عنها شعراً بينَ الحين والآخر، كلما سنح لي الوقت، ومن الطبيعي أن الإنسان كلما تعمقت تجربته وأعتاد قولها شعراً، كلما استطاع أن

ينتج فناً أعمق. لكن في المرحلة التي نعيشها في مواقعنا الاجتماعية والسياسية لا أتحسّس أنني أعيش واقعاً ذاتياً مؤلماً بل موضوعياً مؤلماً، أ سمّيهِ حرب الوعي ضد التخلّف والجهل.

لذلك قد يعيش بعض الناس في حالة ممن يراقبون تجربتي الشعرية ويطالبونني بإغنائها... وكوني أعتبر المسألة متصلة بحركة الصراع هذه، فلا يقع الألم ومعناه حيث دائرتي الذاتية لأتفرغ له فأنتج فناً عميقاً وليداً عنه، وإنما أنغمس في هذا الواقع الموضوعي وآلامه في كل ساحاته. أما مسألة الإبداع في المزاوجة بين التقليدي والحداثي من الشعر، فأنا من الناس، الذين يبقون يعيشون قلق الثقة في ما يكتبونه، ولا أقدر أن أدل على مواطن إبداعي، فهو أمر متروك للنقاد وللجمهور القارئ.

المحور الخامس

السيِّد فضل اللّه الشاعر الإِنسان وجْداً وبَوْحاً

"كنتُ أقرأُ الشّعر قبل سنّ العاشرة. كنتُ أقرأ المتنّبي والبحتري وأبا تمّام كما كنتُ أقرأُ الشِّعر الجاهلي، ثُمَّ انفتحت على الشِّعر الحديث... ولقد قرأتُ الجواهري، والأخطل الصغير والياس أبو شبكه.. ثمَّ تطوّرت قراءاتي وانفتحتُ على حركة الشِّعر الحُرّ".

محمد حسين فضل اللّه

■ **ما الآثار التي تركتها المرحلة النجفية في شعرك؟**

المرحلة النجفية كانت مرحلة محدودة في إطار التجربة، وفي إطار الثقافة، لأننا نعرف أن النجف كان غارقاً في التاريخ بحيث تشعر وأنت تمشي في شوارعها وأزقتها بأنك تمشي في دروب التاريخ مما يحجب ماحَوْلَكَ استثنائياً.

وكنت في تلك المرحلة التي كانت مبكرة في الشباب، أحاول أن أقرأ الجديد،ولهذا كنت قبل أن آتي إلى لبنان ــ وقد ولدت في النجف ــ أعيش في لبنان (بشارة الخوري، إلياس أبو شبكة) وكنت أطل على الشعر في العراق (الجواهري والشرقي) وعلى بعض الشعراء الذين كانوا يعيشون بعض الانبعاث الشعري في النجف، حيث كنت أعيش في جسمي في النجف، لكنني كنت أعيش آفاقاً واسعة من خلال قراءاتي التي استطاعت أن تفتح لي آفاقاً جديدة في مستوى التجربة الشعرية، كما أنني كنت آنذاك أقرأ الفكر الحديث، وتجاربه من خلال مجلة الرسالة التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات في مصر ومعظم النتاج الحداثي الذي تنقلهُ الأسبوعيات والفصليات العربية المختصة مما جعل التجربة النجفية تعيش التداخل الكبير بين الماضي وبين الحاضر وربما كان يمثل التداخل الحائر، لأنه كان يتحرك بشكل غير منظم، بينما كانت التجربة اللبنانية تجربة لا تحتاج فيها إلى أن تستحضر الأجواء الجديدة لأنها تحيط بك من كل مكان.

■ **لكم مؤخراً ديوان أو مجموعة شعرية، لو نتحدث عن قصتكم مع الشعر...**

– من الطبيعي أنني عشت في النّجف الأشرف الذي كانت ولادتي فيه، عندما كان أبي هناك، وعشت كل حياتي من الطفولة إلى الشباب في النجف، والنجف تعتبر من البلدان الشاعرة التي يتنفس فيها الناس الشعر من خلال حركة الشعر في المواسم الثقافية ومواسم الفرح والأحزان وحتى في العلاقات الإخوانية، فإن طبيعة الجلسات الإخوانية تتحرك شعراً بشكل

عفوي . . .

■ **على أساس أن الشعر من أدوات التعبير . . . التي لا تنفصل عن حياةالإنسان . . .**

– وهو أداة تعبيرية تختزن النكتة تارة والنقد أخرى وغير ذلك، لقد عشت ذلك الجو الشعري فتنفستُ الشعر هناك منذ طفولتي وأنا من عائلة شاعرة وهي عائلة آل فضل الله. كما إنني كنت منذ البداية أقرأ الشعر، وكنت أقرأ اللبناني منه للأخطل الصغير وإلياس أبي شبكة، وأيضاً: لأحمد شوقي وخليل مطران ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم، لذا لم أعرف نفسي إلا وأنا أنظم الشعر، فقد بدأت نظم الشعر في العاشرة من عمري وكانت التجربة ناجحة بحسب طبيعة الأسلوب الشعري المطروح في تلك المرحلة في النجف، ثم انطلقت في ممارسة الشعر في الآفاق الوجدانية والاجتماعية والسياسية، وأذكر إنني عندما جئت إلى لبنان لأول مرة في سنة 1952 شاركت في مهرجان أربعين المرحوم السيد محسن الأمين بقصيدة كانت اهتمام الجماهير التي استمعت إليها إلى جانب الشعراء الكبار. ومن خلال ذلك الخط الشعري ـ إذا صح التعبير– استطعت أن أقوم بتجارب شعرية كثيرة وقد صدرت لي ثلاثة دواوين: ديوان رباعيات « يا ظلال الإسلام » طُبع قبل أكثر من ثلاث سنوات، وديوان « قصائد للإسلام والحياة »، والديوان الأخير على « شاطئ الوجدان » الذي يمثل وجدانيات أو شعر الشباب الأول في الخمسينات.

لقد عشت الشعر تجربة حيّة ومارست كل الأشكال الشعرية بما فيها الشعر الحر الذي التقيت به وعشت تجاربه التي أعجبت ببعضها، وحاولت أن أنطلق في بعض التجارب الشعرية المنشورة في ديوان قصائد للإسلام والحياة.

■ **العلامة محمد حسين فضل الله؛ من أين أتى إلى الشعر وهل تشعر بانفصال بين**

كتابتك الشعر. وممارستك السياسة؟ من خلاله المرحلة النجفية؟

– ولدت في مدينة النجف ــ العراق– التي تضم الجامعة الدينية الإسلامية التاريخية، التي يتخرج فيها المسلمون الشيعة منذ أكثر من ألف سنة ولعلَّ خصائص هذه المدينة أنها فيما كانت تضم المركز الإسلامي و الثقافي الفقهي الفلسفي، كانت في الوقت نفسه تمثل المدينة الشاعرة التي انطلق منها كبار شعراء العراق، واستلهموا منها التجارب الشعرية المتنوعة كما أنها كانت ذات تأثير في الشعراء غير العراقيين، الذين تخرجوا كفقهاء في «النجف» حيث كانوا يعيشون هذا الجو.

نستطيع أن نؤكد أن «النجف» كانت تتنفس شعراً، وكان الشعر هو العنصر الذي يعبر به الناس أو الشعراء عن مختلف أفكارهم في مناسبات الحزن والفرح.

وقد كانت التقاليد تفرض أنه لدى وفاة شخص كبير. يتسابق الشعراء إلى تأبينه، من دون أن يتوقّفوا عند المناسبة، وكانت حفلات التأبين تجري في الأماكن العامة في المساجد والحسينيات كما كانت تدوم مدة طويلة إضافة إلى أن مناسبات الفرح كانت تفسح المجال للإخوانيات، لكي تعبر عن مشاعرها بطريقة شعرية، ولكنها لا تتجمد أمام الحادثة. وهكذا كانت المناسبات الوطنية والمناسبات الدينية تأخذ مجالاً واسعاً في الحركة الشعرية هناك، مما يجعل الإنسان يتنفس شعراً.

■ **ذكرتم العائلة والنسب والموطن والانطلاقة ـ هل هناك بطاقة تعريف لذلك؟**

أنا من عائلة آل فضل الله، التي تقيم في المنطقة الحدودية من جنوب لبنان، وقريتي اسمها عيناتا، وهي عائلة شاعرة، ولذلك لم أشعر بنفسي إلا وأنا أمارس الشعر من خلال الرواسب الشعرية، إذا صح التعبير ومن خلال الجو الشعري. الذي يحيط بي فقد بدأت أول تجربة شعرية لي في العاشرة من عمري وكانت تجربة موزونة حسب الأسلوب الشعري آنئذٍ وكنت في

قراءاتي للشعر القديم والحديث مبكرة، كنت أقرأ الشعر قبل سن العاشرة، أقرأ المتنبي، البحتري وأبا تمام كما كنت أقرأ الشعر الجاهلي ثم انفتحت على الشعر الحديث؛ فكنت أقرأ الجواهري، كما كنت أقرأ بشارة الخوري (الأخطل الصغير) وإلياس أبو شبكة وعلي محمود طه، وقبل ذلك كنت أقرأ خليل مطران، وأحمد شوقي.

ثم تطورت قراءاتي عندما انفتحت حركة الشعر الحر. من خلال متابعتنا لها في مجلة «الآداب» التي كانت تصدر في الخمسينات، وتحتضن حركة الشعر الحر.

وكذلك كنا ننفتح على الواقع الأدبي، فكنت أنشر آنئذٍ في مجلتي «العرفان» و«الأديب» كما نشرت بعض تجاربي الشعرية في مجلة «الرسالة» التي كانت تصدرها «دار كميل» في جونية وهناك مشاركات شعرية على هذا الأساس وكنت أقوم حتى بتجارب شعرية على مستوى وأسلوب الشعر الحديث. وكما قلت، كنت أقرأ الشعر وكنت أعيش أجواء الشعر، وكنت أمارس التجربة الشعرية، وما كنت لأحتاج إلى وقت طويل كي تكتمل تجربتي فقد عرف عني سرعة إتمامي القصيدة التي أبدأها في الوقت، الذي لم تكن هذه القصيدة تبتعد عن الإلتفاتات الفنية. وبهذا المعنى لم أكتب شعراً تقريرياً.

■ **محمد حسين فضل الله في وجهه الآخر، كشاعر، وكأديب، وكمفكر كيف يقدم نفسه إلى القراء؟**

عندما انطلقت في الحياة انطلقت من موقع الفكر، لأنني انطلقت من موقع علمي يتحرك على أساس دراسة الإسلام في فقهه وفي فلسفته وحركته في الحياة. ومن الطبيعي لكل إنسان يعمل على دراسة الإسلام بشكل حي أن ينطلق من خلال المفردات الإسلامية للفكر وللتشويق وللحركة نحو الإطلالة على كل قضايا الحياة من خلال هذا الفهم الشمولي للإسلام الذي يتحرك في كل قضايا الحياة. وعلى هذا الأساس فإنني كنت أحاول أن أحرك الفكر وأن أفلسف

القضايا وأن أتعمق في كل مواقع الفكر في ما يثيره التطور الحضاري من قضايا لأجعل منها مادة فكرية أحاول من خلالها أن أركز الفكر الإسلامي ليكون الفكر الذي يستطيع أن يدفع الآخرين إلى احترامه أمام الأفكار الأخرى، وبالتالي إلى الاقتناع به.

البيئة الشعرية:

أما في المسألة الأدبية فعشت في بيئة تتنفس الشعر، وهي بيئة النجف في العراق التي كانت إلى جانب كونها بيئة علمية فقهية ـ فلسفية تمثل البيئة الأدبية التي استطاعت أن تخرّج الكثيرين من الشعراء الكبار أمثال: محمد سعيد الحبوبي ومحمد مهدي الجواهري وعلي الشرقي وآخرين. من الأسماء الكبيرة في الشعر العربي المعاصر.

كنت أتنفس هذا الجو عندما كان الشعر يتلى في الأفراح والأحزان والمناسبات الاجتماعية والسياسية. لذلك لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنظم الشعر.

فقد بدأت نظم الشعر في العاشرة من عمري. وكانت التجربة جيدة آنذاك. ويعزز هذا المعنى إنني من عائلة شعرية. فعائلة فضل الله التي تعيش في عيناتا في قضاء بنت جبيل داخل المنطقة الحدودية(١) في جنوب لبنان عائلة شاعرة، بالإضافة إلى أنها عائلة علمية. وقد شاركت هناك في الكثير من التجارب الشعرية. ولعل الكثير من تجاربي الشعرية في الدواوين الثلاثة(٢) التي طبعت لي كانت في النجف الأشرف. ولعل الذي يقرأ الديوان الثالث «على شاطئ الوجدان» يرى أن هناك تقسيماً للقصائد النجفية وللقصائد اللبنانية.

---

(١) المنطقة الحدودية :إشارة إلى وقوع مسقط رأس آباء وأجداد سماحة السيد «عيناتا» على الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية ـ قضاء بنت جبيل.

(٢) الدواوين الثلاثة: قصائد للإسلام والحياة ـ يا ظلال الإسلام ـ على شاطئ الوجدان.

■ **ما مقدار حضور الطفل في حياة السيد فضل الله رجل الدين؟**

- الطفولة كأية مرحلة من مراحل العمر لا تغيب عن الإنسان، بل تظل كامنة في أعماقه. لقد عبرت عن ذلك في أكثر من قصيدة. ولذلك لا أزال أحس بطفولتي وأنا في الطريق إلى السبعين لأنفتح على كثير من صبواتها ومن فوضاها ومن لعبها ولهوها. ولكن من الطبيعي أن الطفولة عندما تنفتح في النفس، فإن المرحلة الجديدة قد تمنعها من أن تواصل هذا الانفتاح.

إن الطفولة تمثل عمق البراءة الإنسانية، وتمثل عمق العفوية التي يحس بها الإنسان في إنسانيته، لأن الإنسان كلما تقدم في السن أكثر فإن القيود التي يعيش في تلك المرحلة والتي توازن له حركته، لا بد لها أن تمنع العفوية من أن تنساب في مشاعره وأحاسيسه وبالتالي في إنتاجه.

لذلك أتصور أن الطفولة لا تزال تعيش معي ولكنها لا تتحرك في الواقع.

■ **ألا تتحرك هذه الطفولة في الشعر؟ وإن فعلت هل تتحرك مضبوطة أم بعفوية الطفل؟**

الشعر لا يمكن أن يضبط نفسه أو يضبطه صاحبه، الشعر ينساب من أعماق النفس، ولذلك فإنه تماماً كالينابيع التي تتفجر وتنساب في الأراضي من دون أن تطلب إذناً من أحد.

■ **كيف كانت طفولتك من خلال العودة بالذاكرة إلى تاريخها؟**

كانت طفولتي قلقة لأنها كانت نتاج مجتمع محافظ تقليدي يوحي إلى الطفل بأن عليه أن يتحفظ في جلسته وفي كلامه، كانت التعليمات تنهال على الطفل لتوحي إليه بأن لعبه ولهوه لا يمثلان قيمة في معنى إنسانيته، ولذلك لم أستطع أن أحصل على طفولة تلعب جيداً، وتلهو جيداً، وتعبّر عن عناصرها الذاتية بشكل منفتح.

■ ألهذا السبب بقيت طفولتك حية دائماً في داخلك بحيث تتوق إليها دائماً في داخلك؟ وتحنّ إلى صبواتها؟

قد تكون المسألة كذلك، ولكن أعتقد أن المرحلة الجديدة لا تلغي المرحلة القديمة، ولكنها تجمدها في النفس.

■ كيف كانت علاقتك بوالدتك، وماذا تركت من أثر في حياتك لاحقاً؟

لقد عبّرت في رثائي لوالدتي عن هذه العلاقة، كنت أحس بطفولتي وأنا في الخمسين معها، لأنها كانت كأية والدة، تلاحق حضوري وغيابي وممارساتي، فتخاف من مرض هنا، أو من تعب هناك. كنت أحس أنها تلاحقني بإحساساتها ومشاعرها وحذرها ولهفتها، تماماً كما لو كنت طفلاً أمامها.

إن الأم لا تفهم معنى أن يكون ولدها شاباً أو شيخاً، إنها تستعيد ذكرى احتضان هذا الولد في أحضانها عندما كانت ترضعه، أو كانت تحافظ عليه، أو تضبط خطواته. كنت أشعر سعادة الطفولة معها ولذلك لم أحس بالشيخوخة أو بالكهولة إلا بعدما فقدتها.

■ ربما كانت هي الإنسان الوحيد الذي يذكرك بطفولتك ويطلّ بك على عالم الأحلام؟

كانت تعمّق إحساسي بالطفولة وتجعلني قادراً على استعادتها في هذا الجو الحميم!

■ كان والدكم رجل دين ونشأتم في بيت ديني، فهل أثرّ ذلك في اختيار اتجاهكم الديني، وهل أسس لصراع ما في داخلكم ترجمتموه في شعركم؟

صحيح أنني عشت في هذه البيئة سواء لناحية أنني من عائلة علمية دينية، أم من خلال البيئة التي عشتها في النجف والتي هي الحوزة العلمية في النجف التي يأتي إليها الناس من

سائر أنحاء العالم ليتعلموا الدين، وليكونوا في موقع علماء الدين.

ولعل انخراطي في هذا الاتجاه، لم يكن ناشئاً من عنصر واحد، بل كان الجو كله يتنفس التأثر الديني، ولم تكن لدي خيارات أخرى، ولكنها لم تحبس عقلي ولم تحبس مشاعري وأحاسيسي، ولذلك كنت منفتحاً منذ وعي الطفولة في إنسانيتي، فكنت أقرأ قراءات ليس من المألوف أن يقرأها طالب الدين، ولذلك لم أمرَ بأية فترة جمود ذهنية بسبب سيطرة جو البيئة الدينية عليّ.

المحور السادس:

رؤى الشِّعر والبوح والإلتزام عند سماحةِ السيّد الشاعر

"إنَّ قصّة أن تكون إنساناً يمارس التجربة الشعريّة قد تكون شيئاً يختزنه الإنسان ممّا يُسمّى بالبيئة الشعريّة".

محمد حسين فضل اللّه

١ً-مكوّنات التجربة الشّعريّة في حياة السيِّد:

* نحاول في هذا اللقاء الثقافي مع سماحة العلاّمة السيّد محمد حسين فضل الله أن نتعرّف إلى جانب من جوانب شخصيته الفكرية فنقترب من «شاطئ وجدان تفيّأ ظلال الإسلام»* منذ وعى وما انفكّ ينفذ إلى جواهر الأمور والعالم وقضاياه. إننا نعتقد أن هذا الشاطئ غنيّ بدوره ولا سيمّا أن الشعر كما يقول هو «اختاره وفرض نفسه عليه» في فترة من العمر مبكرة تعود إلى مرحلة الطفولة حيث أصدر بالتعاون مع بعض أصدقائه وأقربائه مجلة مكتوبة عليها اسم «الأدب».

وفي فترة تالية وكان لا يزال فتى دخل حلقات النجف الأشرف الأدبية وألقى قصائد في مناسباتها وبقيت القصائد تتتالى درر وجد إلى الشاطئ.

إننا سيّدي سماحة العلاّمة نرغب في معرفة أبرز مكوّنات تجربة الوجد التي جعلت كتابة القصائد خياراً يفرض نفسه عليك مع التركيز على فترة التكوّن الأولى: الطفولة، المدرسة، البيت، الأحداث والشخصيات المؤثرة، وحبّذا لو سمعنا نماذج من شعر تلك الفترة إن كانت الذاكرة لا تزال تحتفظ ببعضها، واستطراداً هل لنا أن نعرف مدى تأثير الالتزام الديني المبكِّر على تلقائية البوح وبخاصة في ما يتعلّق بشعر الحب والغزل؟...

٢ً- ذكريات وأحلام الطفولةالنجفية من نافذة ضباب الذكريات:

في فترة تزيد على النصف قرن قد يشعر الإنسان بكثير من الضباب يغلّف الذكريات، لا سيما مع كل هذه الأجواء العاصفة التي لا تكتفي بالضباب ولكنها تثير الدخان الذي قد لا

---

x إشارة إلى ديوانيه الشعريين: على شاطئ الوجدان ويا ظلال الإسلام.

يعطيك ما يعطيه الضباب من انتعاش في نعومته وبرودته ولكنه يقتحمك بكلّك عندما يحرقك ويحاول أن يعميك. ولكن للطفولة عمقها الذي يستيقظ إذا استثرته.

في النجف البلد الذي يقف على كتف الصحراء، فأنت عندما تولد هناك _ وقد ولدتُ هناك _ تشعر بأنك تعيش في إحساسك ما يقرب من اللانهاية وإن كانت الحياة لا تختزن اللانهاية في طبيعتها. وفي الكتف الآخر الذي تقف عليه النجف تجد القبور تمتد مدى البصر فوادي السلام هو المقبرة التي يصدّر أشخاصها إليها الكثيرون من داخل العراق وخارجها حتى رأينا شاعراً كبيراً عراقياً كالشيخ علي الشرقي يقول وهو يتحدث عن بلده:

« فواردات بلدتي جنائز وصادرات بلدتي عمائم »

٣- الموت المؤمن والعلاقة الحميميّة بأمير المؤمنين(ع):

وهكذا كنتَ تنفتح على امتداد الصحراء أمامك وتنفتح على امتداد الإيمان الذي يوحيه إليك الموت المؤمن، فتنطلق في اللانهاية في وجدانك إذا انطلقت في البداية في اللانهاية في حسِّك.

وتدخل النجف فإذا بك تسمع في أول ما تسمع الكلمات وتستوحيها تسمع كلمة «عليّ» وتختزن في وعيك الطفولي كل هذا السحر الغيبي الروحي الفكري الثقافي الذي تشعر أنّه يقتحم عليك كل وجدانك فتشعر بلحظات لا شعورية من خلال ما تعيشه في الناس هذا يتحدث إليه ويزوره وهذا يقبّل ضريحه وهذا يتوسّل بالله إليه فتختزن في عمق وجدانك علياً من دون أن تفهم ملامحه.

ولكنك تعيش عظمته حتى في ما تعيشه الطفولة أو بمقدار ما تختزنه الطفولة من إيحاءات العظمة، لا سيّما إذا لم يكن هذا العظيم ماثلاً أمامك فأنت تحاول أن تجمّع من هنا وهناك بعض صفاته وملامحه لتعيش عظمته بمقدار ما تتسع له إيحاءات طفولتك.

٤ الحالة الجنينيّة للطفولة الشاعرة:

ثم تمتد وأنت تسمع منذ بدأت تعي الكلمات والناس. ويموت عالم كبير وإذا بالشعر ينطلق هنا وهناك فالفواتح ـ وهذا هو التعبير عن مجالس التأبين ـ يحفل بالشعر والشعراء الذين يتنوّعون بين شعرتجد فيه ملامح العصر العباسي، وبين شعر تجد فيه ملامح الجِدّة: جِدة شوقي وخليل مطران وبشارة الخوري وكُلّ تلك الأسماء التي كانت تتداول.

وتسمع اسم الجواهري والشرقي والشبيبي وغيرها من الأسماء التي كانت تحكم الوعي الأدبي هناك، تسمعهم وهم يلقون الأشعار، قد لا تفهم كل الأشعار، قد لا تستطيع أن تستوحي الكثير ولكنك تشعر أن الشعر يدخل في مسام إحساسك وتشعر أنّه يقتحم عليك طفولتك فتتحسس الشعر في الطفولة وعند ذلك تنشأ في عمقك طفولة شاعرة، شاعرة في الحالة الجنينية للشعر.

٥- الإيحاء الشِّعري والتجربة التقليدية :

وهكذا تسمع فتشعر أنّ اللحن الشعري على طريقة الخليل أصبح حالة غنائية شعوريه في داخلك وتشعر أن الكلمات تتكرر في وعيك ووجدانك فتلتقطها، تحفظ كلمة هنا تضمّها إلى كلمة هناك ثم تنطلق وتسمع وتسمع وإذا بك تشعر نفسك في الأجواء الثقافية التي تمثل عقلك آنذاك إن كان للطفولة عقل، تشعر أنك تتحدث شعراً، كيف ذلك. أنت لم تتكلّف كتابة ولم تسوِّد صفحات وإنما كانت المسألة شعراً يفرض نفسه عليك تماماً كما لو كنت تتكلم ببساطة. وهكذا رأيت أول تجربة لي في العاشرة من عمري تجربة تقليدية أحفظ منها بعض الأبيات:

«فمن كان في نظم القريض مفاخراً ففخري طراً بالعلى والفضائل

ولســـت بـآبـاء الأبـاة مفـاخـــراً ولست بمن يبكي لأجل المنازل

فإن أك في نيل المعالي مقصراً فلا رجّعت باسمي حداة القوافل
سأنهج نهج الصالحين وأرتدي رداء العلى السامي بشتى الوسائل
وأجهد نفسي أن أعيش معززاً وليس طِلاب العز سهل التناول »

وعندما انطلقت فلسطين في الأربعينات عند بداية المعركة أذكر أنني كتبت قصيدة أحفظ منها بيتاً أو بيتين:

« دافعوا عن حقّنا المغتَصَبِ في فلسطينَ بحدٌ القُضُبِ
واذكروا عهد صلاحٍ حينما هبّ فيها طارِداً للأجنبي »

وانطلقت كلمات الشعر تتحرك في الوجدان ولكنها كانت لا تتحرك في الساحة. وبعد ذلك بأربع سنين بدأت أقرأه في محافل النجف وكان هناك أكثر من تشجيع.

٦ً- أثر النَّجف في الأدب والشعر والثقافة:

هذه هي بداية القصة وأستطيع أن أستوحيها أنّ قصة أن تكون إنساناً يمارس التجربة الشعرية في بداياتك فيما هي تجربة، قد تكون شيئاً يختزنه الإنسان ممّا يسمى بالبيئة الشعرية.

فالبيئة العائلية بالنسبة إليّ هي بيئة شاعرة في التاريخ واستطاعت هذه البيئة أن تصنع حالة شعورية ضبابية حائرة تنطلق لتمتص ولتشم ولتتذوّق ولتجرّب. والنجف بلد شاعر كما هو بلد فقيه وأنتم في قراءتكم لأدب العراق تستطيعون أن تحكموا أن العراق الشاعر كان نجفياً بواسطة أو بغير واسطة.

فالنجف كانت هي التي تفتح الآفاق وتحرك التجربة وكان ذلك يمتد حسب امتداد النجف في كل بلد في العراق. وإذا قرأنا أعداد العرفان في بدايات صدور مجلة العرفان في صيدا فإننا نعرف أن أدب النجف وشعر النجف ترك تأثيره على الكثير من التجربة الشعرية في بعض المواقع الأدبية الثقافية في لبنان- لا سيّما- جبل عامل.

٧- إيحاءات المناسبات الروحيّة:

لذلك من يملك قابلية الشعر تصنعه النجف شاعراً لأن الشعر يحاصره من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وهكذا انطلقت التجربة. وقد كانت تجربتي الشعرية في أغلب مواقعها تنطلق فيما يشبه الإيحاء الذي يختزنه الإنسان في الداخل.

لا أذكر أنني عانيت في نظم بيت، كنت أكتبها في كثير من الحالات كما لو كنت أحفظها، وأذكر أنّ تجربتي الأولى الرائدة في هذا المجال كانت في تأبين المرحوم السيّد محسن الأمين وكان حفل الأسبوع حفلاً أدبياً رائعاً وأذكر أن هذا الحفل أوحى لي في ليلة واحدة بقصيدة تبلغ الستين بيتاً ألقيتها آنذاك في حفل الأربعين وكان في بيروت(١).

لذلك فقد انطلقت هذه التجربة من خلال كل هذا الجو، وتطوّرت هذه التجربة، فالشعر لم يكلّفني جهداً في كل التجارب الشعرية.

أذكر في ديواني «يا ظلال الإسلام» أنني كنت أكتب بعضه وأنا في سفرة الحج في الرباعيات التي تتصل بأجواء الحج وربما تزيد على الأربعين أو الخمسين رباعية، كنت أكتبها وأنا في السيارة كما لو كنت أحفظ شيئاً أخاف أن يفلت مني. وأذكر أنني كنت مع المرحوم الوالدالسيّد عبد الرؤوف فضل الله ركبنا من عرفات إلى المزدلفة في سيارة مكشوفة وكنا في المكان الذي يرتفع عن مكان السائق وكان الوقت ليلاً، كنت أكتب أكثر من يوم لأنني لا أتكلّف الشعرولا أنظم شعراً لأني أريد أن أنظمه ولكنه كان يفرض نفسه عليّ عندما تنطلق الفكرة في كثير من الحالات.

---

(١) راجع «قصائد للإسلام والحياة» ط2، دار الملاك، محور «مع علماء الإسلام في حكايات رثاء» ص:297- قصيدة: دمعة على المحسن الأمين.

٨- اسرة « الأدب اليقظ والتجديد في شعر النجف» :

وأذكر من خلال ضباب هذه الذكريات أننا في أواخر الخمسينات شكّلنا أسرة للأدب اسمها « أسرة الأدب اليقظ » وكان من المنتمين إليها الدكتور مصطفى جمال الدين الشاعر المعروف وشعراء آخرون من النجف وكانت هذه الأسرة تحاول أن تجدد شعر النجف، وأذكر أنني كتبت » الشعر الحرّ» تلك الفترة أواخر الخمسينات ، كما كتبها بعض أعضاء أسرة الأدب اليقظ وكنا نعتمد آنذاك أسماء رمزية لا أدري لماذا مع أنّ الشعر لم يكن سياسياً ربما كنا نخاف من الرجم بالحجارة الأدبية لأننا تمرّدنا على أوزان الخليل آنذاك، كنت أوقّع ولا أعرف مناسبة هذا التوقيع فيما كنت أنشره من الشعر الحر الذي لا أذكره حتى الآن في تلك التجربة في بعض جرائد العراق التي أفسحت لنا صدرها -كنت أوقّع باسم- « رشدي ناجي » كما كنت أوقّع في بعض الشعر السياسي آنذاك في أيام « نوري السعيد » الفرزدق الصغير« وفي بعض الحالات كان التوقيع الذي عُرفت به شعرياً بعد ذلك في النجف في القصائد الإسلامية كان توقيع « أبو علي » في ذلك الوقت، أعتقد أننا مع كثير من أصدقائنا في النجف ساهمنا في إدخال النجف في التجربة الشعرية الحديثة عندما كانت المعركة الأدبية التي كانت تعيش في مجلة الآداب اللبنانية بين الشعر الحر وكان هناك « بدر شاكر السيّاب » و »نازك الملائكة » و« عبد الوهاب البياتي » و« صلاح الدين عبد الصبور » وأمثال هؤلاء كنا نشارك في هذه المعركة في بعض التجارب الشعرية على طريقة الشعر الحر التي كنا ننشر بعضها في صحف العراق..

■ **كان في السؤال استطرادٌ وهو هل لنا أن نعرف مدى تأثير الالتزام الِّديني المبكِّر على تلقائية البوح وبخاصة فيما يتعلّق بشعر الحب والغزل؟**

من الطبيعي أنك عندما تكون ملتزماً دينياً بوعي فإنك تكتشف الحب بأعمق مشاعره وبأرحب آفاقه، وهكذا عندما انفتحت على الله اكتشفت الحب، ليس حباً ينبض به جسدك ولكنه حب ينفتح على روحك وقلبك ووجدانك وحركتك في الحياة.

وعندما تحب الله حباً منفتحاً لا حباً منغلقاً عابثاً كما يعبث بعض الناس عندما يتحدثون عن الله في مسألة الحب، عندما تنفتح على الله بوعي، الله الذي خلق كل هذا الجمال الذي يجعلك تبكي فرحاً وعندما يتحوّل الفرح إلى حالة بكائية تشعر بالسعادة التي لا تفهم أبعادها فإن معنى ذلك أن الجمال هذا احتواك كلك حتى لم تعد تستطيع أن تتماسك أمام البسمات، فالضحكات لا معنى لها والدمع أصفى تعبير عن الحب عندما يأخذك كلك وعندما تحب الله تحب الناس وعندما تحب الله ترى الجمال يمتزج بمعنى الإبداع في إيمانك بالله.

لذلك مسألة الدين أنه المنفتح على الكون وعلى الحياة، الدين الذي يُشعرك بأنك جزء من الكون، ونحن نقرأ في تجارب الإمام زين العابدينX التي سمّاها المرحوم السيد صدر الدين شرف الدين وهو الرجل الذي كان يملك ترف الكلمة وترف الفكرة ما أطلق عليه من خلالها: «شاعر الله» «أصبحنا وأصبحت الأشياء كلها بجملتها لله سهلها وجبلها وبرها وبحرها...» هذا الشعور بأنك جزء من الكون لست منفصلاً عنه تصارعه ويصارعك، «أصبحنا وأصبحت الأشياء كلها بجملتها لك سماؤها وأرضها وما بثثت في كل واحد منهما ساكنه ومتحركه ومقيمه وشاخصه وما علا في الهواء، وما كنَّ تحت الثرى» تشعر بأنك جزء من الكون تتفاعل معه وتحاول أن يتفاعل معك.

٩- الحب الإنساني في صفاء الإحساس ومواقع الجمال:

أن تبدأ الحب لا بدّ أن تعيش عمقه في عمقك وعند ذلك تكون حركة الحب تفاصيل في حياتك، مَن لا يملك عمق الحب كقيمة في قلبه ووجدانه لا يستطيع أن يحب، هناك فرق بين أن تشتهي وأن تحب، بين أن تلهو وأن تحب وبين أن تحب وأن تذوب، تلك هي المسألة.

وأتصوّر أننا عندما نعيش حبّ الله فنحن نعيش الشعر أحاسيس ومشاعر آفاق، وعند ذلك يصفو الحب في وجدانك، حتى وأنت تنطلق في كل مواقع الجمال، حتى الجمال الإنساني،

حتى جمال المرأة إنه لا يحرّك فيك غريزتك ولكنه يحرّك فيك صفاء الإحساس بالقيمة المبدعة للجمال التي تعطي الحياة شيئاً للطمأنينة وشيئاً للروعة وشيئاً للإبداع وشيئاً للحب، أذكر هناك تجربة مناجاة في بدايات الخمسينات، أقول فيها:

«ربِّ ما لي أبكي وما لي أغني وحياتي تصدُّ نجواكَ عنيٌّ
أنا أهواكَ لا لنعماكَ تستهوي كياني ولا لجّنةِ عدْنِ
أنا أهواك للهوى تشرِقُ الروحُ بآفيائِه ويهتز لحني
للسماءِ الزرقاءِ تنسابُ منها شعلةُ النورِ في جلالٍ وفنٍّ
للصبا يوقظُ الصبابةَ في الأعماقِ والحبُّ في الضلوعِ يغنيٌّ
أنا أهواكَ إنَّ آثامي السودَ ستنداح في شعاعِكَ عنِّي
أنا أدري بأنَّ خلفَ ظلالِ الموتِ إن ثارتِ الغريزةُ سجني
وبأني إذا أقتحمت لذاذاتي وأترعت بالغوايات دنِّي
سوف أهوي إلى الجحيم ولكن أنا أرجو في ظل عفوِك أمني
رب هذي حقيبتي ليس فيها لي من قربةٍ سوى حسنِ ظني(١)».

لا أريد أن أفيضَ في التجاربِ ولكن هناك تجربة أخرى أحبّها في هذا الجو:

«أنا يا ربي في طريقي أحثُّ الخطو نحوَ العلا ومنكَ العلاءُ
فاهدني الدَّرْبَ إن خطويَ حيرانُ ودنيَاي حيرةٌ وشقاءُ
أنا إما جلسْتُ في اللّيلِ ألقاكَ بقلبٍ يموج فيه الصفاءُ

كصباحٍ تنوّرُ الشمسُ جفنيه وتزهو بجانحيهِ السَّمَاءُ

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك ص:43 - وعلى شاطئ الوجدان، ص: 114-115 (أنا أهواك).

وإذا ضمّني النهارُ مع الناسِ وحنَّتْ لرجسِها الأهواءُ
فأنا تائهٌ فقد يجمحُ الخطو وقد يحجب الضياءَ بلاءُ
سرعةٌ في اللسانِ قد يحجبُ التفكيرَ فيها عبر الضجيجِ هراءُ

واضطرابٌ في فكرةٍ لستُ أدري كيفَ غشّى نجوى هداَها الغِشاء
وإذا بي وقد حملت ذنوبي فوق ظهري يقودني الإعياء
ويعودُ المساء فالقلب في نجواك حرٌّ وفي الشفاهِ نداء
وإذا بالحياءِ يلجُم نجواي فهل شافعٌ لديكَ الحياءُ
أنا راجٍ غفران ذنبي وإن ضجَّ بنتنِ الذنوبِ مِّني الفضاءُ
وأنا مَن أنا سوى الفقر للرحمة والعفو حسب قلبي الرجاءُ
أنت ربي وقد صنعَت بنعماكَ كياني وفاضت النعماءُ
واستمر الجحودُ مني ولم أشكر فهل لي لديك دربٌ مُضاءُ
أنت يا رب عالم بجراحاتي خبير بما يجنُّ الخفاءُ
وأناَ راجعٌ إليكَ بقلبي إن قلبي صحيفةٌ بيضاءُ
فإذا شئتَ أن تعذِّبَ جسمي بغواياتِهِ فحسبي الدُّعاءُ
دع لساني يدعوك يا رب وافعل بي ما شئتَ فالدُّعاءُ هناءُ[1]»

■ كيف يرى السيد محمد حسين فضل الله نفسه كشاعر بدأت حياته الشعريّة في النجف العراق؟

لم تكن ولادة الشعر في حياتي منطلقة من حالة فنية تتكلف الجو، بَل منطلقة من حالة

(1) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك بيروت. ص:19 (اعتراف وابتهال)

عفوية عاشت الإحساس بالأجواء الشعرية بشكل ضبَابِي غامض بحيث أنني لم أشعر إلا وأنا أعيش هذا الجو كما لو كنت قد دُفِعْتُ دفعاً».

كنت أعيش الإحساس بالمعاني والأجواء الشعرية بشكل غامض لأنني كنت طفلاً آنذاك، كنت في العاشرة من عمري عندما بدأت الشعر بشكل عفوي ثم تحركت التجربة في خط المعاناة، فقد كنت أعيش في النجف، البلد الذي يجلس على كتف الصحراء ويعيش بعض ملامح الخضرة من خلال جدول يمتد من الفرات، وينطلق من التاريخ السحيق، ليعيش في أجواء القداسة من خلال مرقد الإمام علي (عليه السلام)، وليعيش الأجواء التاريخية من خلال الحوزة العلمية التي ترقى إلى ألف سنة، والتي عاشت الأجواء الشعرية الأدبية بنفس العمق والقوة والامتداد التي عاش فيها الفقه الإسلامي.

ولذلك فقد عشت في النجف التي ولدت فيها وأنا أسمع قصائد محمد سعيد الحبّوبي، وقصائد محمد مهدي الجواهري وعلي الشرقي، وكنت أطل آنذاك على ما يصل إلينا من قصائد الشعراء اللبنانيين، كبشارة الخوري الذي تأثرت به كثيراً، والأخطل الصغير والياس أبو شبكة وكثير من الشعراء.

وكنت أقرأ الشعر النثر لجبران خليل جبران الذي تأثرت به كثيراً، وكانت المعاناة الروحية التي تتطلع في القهر السياسي مع كل الفئات الشعبية، وكنا نتطلع إلى الأجواء العامة من خلال القضية الفلسطينية التي تأثرنا بها في بدايات نمونا الفكريّ والشعري وكانت هناك بعض الأجواء الذاتية الوجدانية التي لم تصل إلى حد التجربة وإنما كانَتْ تعيش في أجواء التصور وأجواء الخيال، في الوقت الذي كانت هناك وجدانيات نفسيّة عميقة تعيش من خلال بعض حالات البؤس. أو حالات الضيق النفسي من خلال حصار البيئة والمحيط للتطلعات التي كنا نعيش فيها، ممّا خلق بعض الحالات التشاؤمية.

إنني عندما أريد أن أواجه هذا السؤال قد لا أستطيع أن أدخل في عملية تقويم دقيق

للإنسان الشاعر الذي أتمثله في نفسي، لأن من الصعب جداً أن تحكم على وعيها الفني، بل كنت أعيشها كحالة يومية تنطلق مع الجو، ليكون الشعر هو نتاج ذلك.

ربما لا أستطيع أن أقوّم نفسي كشاعر في درجةٍ كبيرة جداً لكنني أستطيع أن أقول إنني كنت صادقاً في كل ما قلت.

■ إذا تحملون جينات شعرية بالإضافة إلى الاكتساب والأجواء؟

هذا صحيح.

يرى البعض أن العلماء الشعراء والعامليون منهم بخاصة، يرون في الشعر نشاطاً قوياً يروّح عن النفس أويُمثِّلُ الذوق الأدبي أو يساعد على فهم القرآن الكريم والحديث الشريف، وتؤيد هذا الرأي أدلّة عديدة منها أنّ أحد العلماء الكبار سمّى ديوان شعره الجيِّد «سقط المتاع»، هل تعتقدون أنَ للشعر هذا الدور فحسب أم أنّ له دوراً آخر وما هو على المستويين الشخصي والاجتماعي؟

الشعر هو الإنسان المنفتح:

الشعر هو الإنسان عندما ينفتح على وعي نفسه وعلى وعي الكون والحياة، والذين يتحدثون عن الشعر أنّه «سقط المتاع» وأنّه مجرّد حالة هامشية قد لا يعيشون روح الشاعر حتى لو نظموا شعراً بالمعنى الإنساني للحسّ الشعري الذي يفيض من عقلك وحسّك ووجدانك.

إننا لا نتكلم عن الذين ينظمون الشعر ولكن عن الذين يعيشونه وتكون التجربة الشعرية نتيجة عيش لا نتيجة صنعة. نستطيع أن نعتبر أنّها تجربة عاشت على هامش حياته لأنّ شعره كان يهزّنا .

إننا لا نستطيع في شخصية شاعرة كشخصية السيد «محمد سعيد الحبوبي» إلاّ أَن نعيش الإبداع لأنّه شِعْرٌ لا يزال يهزُّنا، وهكذا نجد في تجارب شعرية كثيرة. وأتصوّر أنّ منطق بعض

لعلماء الشعراء ومنهم المبدعون في ذلك كان ينطلق من وضع اجتماعي يرفض للعالم أن يكون شاعراً وكانوا يحاولون أن يدافعوا عن مواقعهم الاجتماعية الفقهية بالإيحاء بأنّ هذا شيء على الهامش. فالشعر هو الأسلوب التعبيري الموسق الذي ينطلق من خلال اللمحة الإيماءة والإيحاء والإشارة من خلال صفائها في الحس. ومن هنا فإن الشاعر هو الذي ينفتح على كل آلام الإنسان وكل أحلامه وكل تطلّعاته وكل قضاياه لينفعل بها.

■ **هل في هذا سعيّ من الشاعر نحو الإلتزام بما يؤمن به في مسيرة الشعر ؟**

أنا لا أتحدث عن الالتزام في الشعر ليقول بعض الناس: إن الشاعر ليس مصلحاً ولكنه إنسان يعيش فنّه فيتفاعل معه لذلك لا تستطيع أن تفرض على الشاعر الموضوعات التي يحرّك فيها تجربته، صحيح ذلك ولكن هل يمكن أن تكون شاعراً ولا تتحسّس كل صرخات آلام الحرية؟! هل يمكن أن تكون شاعراً تعيش الشعر في عمق إنسانيتك ولا تتحسّس كل صرخات المشرّدين الجرحى والمستضعفين، إنك عند ذلك لن تكون شاعراً إنما تكون إنساناً يرقص على إيقاع الكلمات، ولكنه لا يعيش هزّة الشعور من خلال الواقع الذي لا يستطيع أن ينفصل الإنسان عنه.

إنني أقول: إن الشاعر يكون شاعراً عندما يملك صفاء إحساسه ويملك إبداع فهمه لهذا الإحساس، أنا لا أريد أن أجعل من نفسي ديّاناً على الشعراء ولكني أقول: إن الإنسان الذي ينظم قصيدة في فاجعة الورود عندما تذبل وتتساقط، وإن الإنسان الذي يتحسّس الطبيعة في رعودها وبروقها وشتائها وخريفها لا بدّ أن يتحسّس الإنسان: في كل الرعود والبروق والخريف والربيع سواء كان خريفاً إنسانياً في الآلام العميقة الذاتية للإنسان أو كان ربيعاً أو خريفاً أو شتاءً أو صيفاً سياسياً بالمعنى الإنساني للسياسة، لا بالمعنى الاستهلاكي الذي يصادر كل وجداننا لنشعر بالتفاهة والعبث فيما نتحدث به.

■ البعض يحب الشعر ويتذوّقه ولكنه لا يجيد كتابته فكيف يمكن ردم هذه الهوة؟

إنني أعتقد أنه شاعر من خلال انفتاحه على التجربة الشعرية، هناك شاعر قد يعيش الشعر حالة جنينية في وعيه كما أنّ هناك شعراء قد يفتقدون الشعر حتى في تجربتهم، لذلك أنا أعتقد أنّه كلما قرأ الشعر أكثر ووعاه أكثر وعاش الحس الشاعري أكثر أمكنه أن يكتشف ولو بعد حين تجربة الشعر بشكل حيّ في حياته.

المحور السابع

الشِّعر و النَّقد عند سماحةِ السيِّد رؤيةً ومفهوماً

"الشِّعر هو الذي ينطلقُ بنا إلى عمقِ الذّات الإنسانية وهو الذي يعيش الإنسياب الشعوري الذي يشعر الإنسان الشاعر معَهُ كما لو أنّ شعوره يلاحقه ليعبّر عنه".

محمد حسين فضل اللّه

أهميّة الشعر في ذات السيِّد الإنسان

■ برأيك، هل أن الشعر هو التعبير الأرقى عند الإنسان؟ وما مدى أهميته؟

أنا لا أستطيع أن أتحدّث بأفعل التفضيل، لأن لكل فن من الفنون خصائصه وعناصره التي يملك فيها التصور في الجانب التعبيري. والشعر هو من أفضل عناصر التعبير بالكلمة عن المشاعر أو الأفكار أو التطلعات الإنسانية، باعتبار ما يحمل من موسيقى تهز الفكرة في الإنسان عندما تهز الإنسان بالنغم الموسيقي المنطلق منها.

ولهذا فإننا لا نشجع إطلاق الشعر على القصيدة المنثورة، لأن الفارق بين الشعر والنثر هو الموسيقى الخارجية بينهما، وأما الموسيقى الداخلية فهي مشتركة بينهما، لأن قضية أن تكون الفكرة موسقة هي مسألة إبداع الكاتب أو الشاعر في أن يعطي للفكرة موسيقاها التي تهز المشاعر، بكل ما تملك من عناصر الإثارة.

■ لنحدد السؤال بشكل أدق أنت شاعر تنظم الشعر وتكتبه، فلماذا تكتب الشعر؟

إنني لا أستطيع إلا أن أكتبه، لأن القصيدة كانت تفرض نفسها علي عندما تجيش في نفسي مشاعر وأحاسيس وأكاد أسرع في الكتابة قبل غياب التجربة عني لأنها تتحرك بسرعة، إنه شيء يشبه الإلهام. وأستطيع التأكيد أني ما أمسكت قلَماً لأكتبَ شِعْرًا ليس موجوداً في داخلي.

زمن كتابة الشِّعر:

■ متى تكتب الشعر؟

أذكر عندما جئت إلى الحج، وكنت أركب على شاحنة في المكان الذي فوق السائق في

ظروف هي من أصعب الظروف وكانت الإنارة خافتة في الشوارع ونحوها، ما جعلني أكتب بسرعة، حتى بلغ ما كتبته في تلك اللحظات أربعين من رباعيات (يا ظلال الإسلام) وهي من أفضل ما كتبت، لأني شعرت أن الشعر يقتحمني قبل أن أقتحمه، ولو لم تكن مثل هذه الأجواء لذهبت هذه الحالة الشعرية مثلاً.

▪ هل ترى أنه ما زال للشعر دور حيوي في مجتمعاتنا المعاصرة، لا يقل شأناً عن العصور الغابرة خصوصاً عند العلماء؟

المسألة ترتبط بالتقاليد والتجارب الإنسانية، في ما يتعلق بتجربتي كنت حراً في كتابة الشعر الذي أرغب، وكانت تُثار بعض الكلمات التي تحاول أن تعقدني على سبيل أنني طالب علم حوزوي لا يليق بي إنشاد الشعر. أذكر أني تحدّثت مع الفقيه عمي الشاعر السيد محمد سعيد فضل الله، وقلت له أن البعض يدعوني إلى ترك الشعر، فقال: «لا تفعل أن الشعر يجعلك تنظر إلى السُنّة والحديث بذوق وجمالية أكبر، وتفهم العقيدة أكبر من العالم التقليدي الذي لا يتميّز بذوق أدبي ولا يتحسس بجمالية اللغة والتعبير والإحساس الذي تعطيه الكلمة. لذلك أتصور أن من شروط المجتهد امتلاكه حسّاً جمالياً في تحديد مدلولات الكلمة». والناس ما تزال تعشق الِّشعر وتسمعه، بدليل أنهم يقبلون على المغنين الذين يغنون الشعر الموزون وغيره الحر، ويحفظونه أيضاً... زد على ذلك تأثر الناس لسماع الشعر الجيد في الحفلات الاجتماعية والسياسية، فربما يملأ الفراغ الذي يعيشونه.

▪ ما هو الشعر من وجهة نظرك، وما هي الوظيفة التي عليه أن يشغلها؟

الشعر هو الذي ينطلق بنا إلى عمق الذات الإنسانية، وهو الذي يعيش الإنسياب الشعوري الذي يشعر الإنسان الشاعر معه كما لو أن شعوره يلاحقه ليعبر عنه، بحيث أن حركية حيوية الإحساس في داخل شخصية الشاعر هي التي تفرض عليه أن يتحرك شعراً دون أن يفرض على

ذلك الإحساس أن يعد نفسه ليكون شعراً بعد ذلك.

من الطبيعي أن الشعر لا بد أن يكون إنساناً (أن نؤنسن الشعر) حيث يعبر عن الإنسان في أحلامه وتطلعاته في آلامه وفي كل المشاكل التي يواجهها.

أنا لا أعتقد أن يكون للشعر وظيفة، خارج نطاق أن يكونَ تعبيراً عن الإنسان في كل حركته وأوضاعه، ولا أتصور أن للشعر مهمة تبشيرية بل إنني أفهم أن يكون التبشير نتيجة للشعر لا شيئاً يفرض نفسه على الشعر.

■ **يُقال إن الشعر وثبة في المطلق ترى ما هي القيود التي تفرضها الأيديولوجيا على الشعر، وهل الشعر يقترب إلى روحه من حيث هو، بتفلتّه منها؟**

إنني أتصور أن حياة المطلق، هي طموح الإنسان باللاواقع، إذ تفتح نافذة على المطلق في تجربتك، يعني أنك تعيش غيبوبة عن واقعك، باعتبار أن الإنسان يتحرك بالمحدودية من حيث وجوده، ومن حيث آفاق تجربته التي تتحكم في حركية أي نتاج له، لذلك قد يعبر الإنسان بالمطلق عن تجاوز بعض الحدود التي يعيشها، لينتقل إلى عالم أوسع، أن عالمنا هو عالم المحدود.

أما أن الإنسان عندما يعيش الأيديولوجيا في تأثيراتها على تجربته الشعرية، فإنني أعتقد أن الإيديولوجيا عندما تتحول إلى شيء في العقل، وتملك حجماً معيناً إلى جانب الأحجام المعرفية الأخرى، فإنه يكف عن أن يكون إنساناً وبذلك يكف عن أن يتحرك في امتدادات الإنسان.

ولكن عندما تتحول الإيديولوجيا إلى فكر في عقله وإلى إحساس في قلبه ومشاعره، وإلى حركة في واقعه، فإن الأيديولوجية لا تكون مجرد فكر يرقد في العقل ليكون مجرد كتاب تضمه إلى المكتبة ولكنه يتحول إلى إنسان!

وعندما تتحول الإيديولوجية إلى شيء في الإنسان، بحيث تحكم أحلامه، وتحكم تطلعاته

فإنها لا تقيده، لأن إنسانيتك لا تقيد أي شيء من نتاجك، بل إن نتاجك يكون تعبيراً عن إنسانيتك،

الشاعر وعفويّة الفكرة :

وعلى ضوء هذا فإننا نعتقد أن الشاعر لن يكون شاعراً إذا أراد أن يدخل خطوط تفاصيله التي لا يحسّ بها إلى تجربته الشعرية بل إن الشاعر هو الذي يعيش عفوية الفكرة، حتى الفكر الناضج في داخل نفسه، لأن نضوج الفكرة داخل النفس ومعيارها هو التفاعل بها. إذ تصبح شيئاً حقيقياً في داخل النفس، لهذا فإنني قد أعيش في تجربتي الشعرية بعضاً من انتمائي، ولم أنطلق مرة من أن الأيديولوجية تطلب مني أن أنظم شعراً، بل لأني أتحرك بما أحس به، مما قد يلتقي بالإيديولوجية في إنسيابها مع الحياة، ومع الواقع لتكون المسألة هي مسألة الحياة التي قد تتفاعل مع الأيديولوجية، لا الإيدويولوجية التي تقف لتتطلع إلي أو أتطلع إليها كشيء مفصول عن حياتي وواقعي.

■ **لك رأي تقول فيه «إن الشعر العربي في التجارب الشعرية الأخيرة ابتعد عن أن يكون شعراً عربياً» والسؤال ما هي مآخذك على تلك التجارب؟**

إنني لست سلبياً أبداً بالنسبة لتلك التجربة بحيث يكون الخروج عنها تجديفاً بل هي التجربة التي عاشها العرب، وأعطاها الخليل القواعد من خلال الأذن الموسيقية العربية في موسيقاها الداخلية والخارجية، وهذا ما كنت أجدُ في تجارب بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، إذا استطاعت تلك المرحلة من الشعرالذي كان يعيش مع هذه التجربة كما كان يعيش سابقاً. ونعتقد أن نزار قباني الذي بدأ قصيدة التفعيلة مع قصيدته (خبز وحشيش وقمر) التي أثارت كثيراً من الجدل في بداية الستينات والتي تمثل الحالة السلبية للإنسان العربي بعيداً عن الحالة

الإيجابية، قد أثارت كثيراً من الجدل، ولكن شعر الحداثة تمظهر في سلبيتين: السلبية الأولى هي الشعر الذي تحوّل إلى نثر، في التجارب الأولى لألبير أديب صاحب (مجلة الأديب) كما في بعض التجارب لنزار قباني وأنسي الحاج وغيرهم، إنك قد تدخل مع هذه الكلمات في نفسك من خلال موسيقية المعنى، وليس من خلال موسيقاها الخارجية، هذه التجربة تكون شعراً أو تكون نثراً من خلال مسألة الموسيقى لأنها لا تعيش في المنطقة الداخلية للإنسان، بل لا بد أن تعيش في المنطقة الخارجية لتهز أذنك، لتفتح قلبك، هذه هي المسألة، لذلك أرى أنهم قد يكونون تأثروا في نمط الشعر الغربي الذي يعتمد على الموسيقى الداخلية أكثر من الموسيقى الخارجية، بينما الشعر العربي يتحرّك من خلال الموسيقى المتصاعدة بين الداخل والخارج.

* المسألة الثانية هي أن شعر الحداثة دخل بما كان يعبّر عنه علماء البلاغة في تحديد هوية البلاغة، في أن تكون التجربة الشعرية أو النثرية تختزن في الطريقة التعبيرية البعد الهائل بين معنى الكلمة في القاموس أو في الوجدان الشعبي العام وما يقصده الشاعر وهذا ما أعبر عنه (بأنك تحتاج لأن تقطع ألف كيلومتر بين معنى الكلمة في القاموس والمعنى الذي يقصده الشاعر) بمعنى أن هناك مَنْ ذهَبَ مِنْ تقعُرِ الكلمةِ وغرابتِها إلى غرابةِ المفهومِ وتقعُرِه.

إن قيمة أية تجربة فنية سواء كانت شعراً أو نثراً هي بما تملكه من أسلوب الإيحاء وبما تفتح لك بعض الآفاق على أن تكون قريبة الحس والوجدان .

إلاّ أن ما يرمز إليه بعض شعراء الحداثة قد لا يعطي مما يريده من المسألة بحيث أنهم يحمّلون الكلمة ما لم تتحمله في القواميس والوجدان الشعبي أيضاً.

لذلك قلت إن اللغة العربية هي لغة الوضوح، والشعر العربي هو شعر الوضوح على ألاّ يتخلى عن الإبداع الفني، إنّك عندما تقرأ شعر البحتري أو أبي نواس وغيرهم تحتاج إلى أن تفكّر في مضمون التجربة الشعرية لكنك تبقى مع نفسك ومع وجدانك وإحساسك، لأنهم

ـصورون نفسك ويصورون روحك.

لذلك تراني لا أريد أن أتحدّث بسلبية مطلقة عن شعر الحداثة، لكنني أتصور أن فشله بأنه ـم يستطع أن يدخل في التجربة الوجدانية الشعبية، حتى التي تملك ثقافته، لم نجد في الوسط ـشعبي العام من يتمثل بمقطع من شعر الحداثة كما يتمثّل ببيت من شعر المتنبي...

قد يقول الحداثيون أن هذه التجربة تحتاج إلى أجيال حتى تدمنها الأذن العربية، ولكن ـتقد أن الأذن العربية قد أدمنت التفعيلة كإدمانها لبحور الخليل إلاّ أن خروج قصيدة النثر ـن الوزن بحالتيه يخرجها من أن تكون قصيدة إلى لون آخر من النثر.

■ **سماحة العلامة لدى مطالعتي لمجموعتك الشعرية (على شاطئ الوجدان) لم أر فيها ـروجاً من (هيكل الذكرى) إلا قليلاً، وقد بررت ذلك بأنه من الماضي، إذا ماذا سيحدثنا ـسيد فضل الله عن حاضره الشعري؟**

ربما جفت حركة الينبوع الشعري في تجربتي، نتيجة تراكم المسؤوليات بحيث لم تترك لي ـتاً شفافاً للتجربة، مما جعل مسألة التجربة الشعرية تتحرك بشكل طارئ بين وقت وآخر، ـكنني في الوقت نفسه أبقى مع كل التجارب الشعرية، بما فيها تجربة الحداثة، وما تتضمنه من ـحاءات ولمسات حتى أبقى شاعراً في الروح، إذا لم أكن شاعراً بالكلمة.

(الشعر العامودي) والموسيقى الكلاسيكية:

■ **ما زلت تكتب الشعر الكلاسيكي في زمن التحولات الدرامتيكية في مسيرة الشعر العربي، ـذا عن علاقتك بالشعر الكلاسيكي والشعر الحديث؟**

من الطبيعي أنني تأثرت بموسيقى الشعرية بالطريقة الكلاسيكية للشّعر أي الشعر العامودي. ـكنني كنت أعيش بعض التجارب التي لا تبتعد عن الشعر الحر الذي كنت وبعض أصدقائي ـن الشعراء في العراق، كنت أحاول، ويحاولون أن نقوم ببعض التجارب الشعرية في ما

يسمى بالشعر الحر، بالطريقة التي تكون وسطاً بين الشعر الحر الذي نقرأه، من دون أن نقرأه في بعض تجاربه التي قد تخلو من الموسيقى تماماً، وبعض نماذج الشعر العامودي. فاذكر إنني عندما انطلقت الانتفاضة العراقية في سنة 58 كتبت قصيدة بعنوان «أي ثورة» اعتبرها البعض رداً على قصيدة «خبز وحشيش وقمر» لنزار، أحفظ منها بعض الأبيات التي تقول:

أيُّ ثورة!
فجر الشعب بها للشرق ذاته.
فوعى فيها حياته.
مثلما ينسكب النور على الدنيا الكئيبة،
مثلما ينطلق الينبوع في الأرض الجديبة،
فإذا بالأفق أعراس وأحلام «خضيبة»،
وإذا بالقفر واحات وأَفياء رحيبة،
أي ثورة، إنه الشعب أتى،
يحصدُ الأف السنابل
وبكفيّهِ المناجل،
إنه الشعب الذي كان يعيش الأغنية.
عالماً حياً ودنيا موحيه.
وصدى يلهب روح التضحية.
شعبنا هذا الذي عانى وقاسى وتألم.
في سبيل الكلمة.
حرة يبدع فيها حلمه.
فافتحوا الدرب له.

للعبقريات الدفينة،
إنه يحمل في عينيه عزماً لن يخونه،
إنه يحمل تاريخ الرسالات الأمينة،
إنه قد يلعق الجرح،
وقد ينسى أنينه،
قد يغني ريثما يملأ بالدمع عيونه،
فيقولون مضى الشرق ومات
في ضباب الأغنيات.
غير أن الشرقَ لن ينسى شجونه...
إنه لن يترك الخائن يقتاد شؤونه(١)

الحداثة والشعر الحرّ:

لذلك كانت هناك عدة تجارب للشعر الحر، وكنت أفكر أن التجارب الرائدة التي قام بها بدر شاكر السياب الذي أعتقد إنه لا يزال القمة في الشعر الحر هي التجارب التي تستطيع أن تحقق النقلة النوعية الفنية لتطور الوزن الشعري على أساس أنها تحقق للشعر الانتقال من أسر القافية وأسر الأوزان المحدودة، في الوقت الذي تحتفظ للشعر بالموسيقى.

في تصوري أن قيمة تجربة السياب وتجارب الكثيرين الذين عاشوا في مرحلته مثل تجربة صلاح عبد الصبور، وتجربة الفيتوري وتجارب كثيرة تحتفظ للشعر ببعض المضمون الروحي والفكري بالإضافة إلى الموسيقى الشعرية، ولا تبتعد كثيراً عن مجالات الفهم الفني للمضمون

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، دار الملاك بيروت، قصيدة (أيّ ثورة) ص: ٢٠٣.

الشعري، لأننا نلتقي في المدة الأخيرة بمشكلة في التجارب الشعرية التي تحترمُ الكثير منها، ولكننا نشعر أن هناك مسافة واسعة بين الكلمة في مضمونها وبين المعنى الذي يراد للكلمة أن تتحمله، مما يسمى في علم البلاغة باللوازم البعيدة التي لا تستطيع من خلالها أن تفهم المعنى من الكلمة إلا إذا عشت إيحاءات واسعة في آفاق هذه الكلمة وأجوائها...

إنني أتصور أن هذه التجارب التي كثرت في المرحلة الأخيرة، قد تحمل شيئاً من اللمعان الفنية العميقة ولكنها لن تستطيع أن تحقق الكثير في ما هي رسالة الشعر والتي يراد لها أن لا تتحول إلى حالة تقريرية لتكون على نسق الخطاب السياسي ولكنها عندما تختزن التجربة الفنية للشاعر لا بد أن تبقى قريبة من الوعي العام للناس المثقفين، ولا أتحدث عن الناس العاديين ليقال إن الشعر كقيمة فنية لا بد له من أن يسمو بطريقته التعبيرية عن السطح العام...

أنني أتصور أن هناك بعداً كبيراً بين التجارب الشعرية التي يعيشها الكثيرون من شعرائنا، لا سيما الذين يواكبون الشعر الحر. وأصبحت أغلب التجارب الشعرية تجارب الشعر الحر أو الشعر المنثور الذي كنا نقرأ تجاربه في «الأديب» وفي تجارب كثيرة، إنني أعتقد أن هناك بعداً كبيراً عن الوعي العام للإنسان العربي في ما يقرأه من شعر وربما اتهم نفسي عندما أقرأ كثيراً من هذه التجارب بعدم مواكبة التطور الفني للتجارب الأدبية باعتبار أن كل إنسان يعيش ثقافة أذنية إذا صح التعبير في ما تعتاده الأذن في حركة الكلمات في مضمونها أو في موسيقاها.

■ **أرى أنني أختلف معك على مفهوم العلاقة بالشعر؟**

إنني احترم آراء الآخرين، إنني عندما أؤكد هذه اللفتة فإنني لا أريد أن أنكر الجانب الفني الإبداعي الذي تعيشه الطلائع الشاعرة في هذا المجال، ولكنني أريد أن أقول إن الفن لا بد أن يعيش رسالة، ولا أقصد بالرسالة المعنى السياسي، لكن حتى الرسالة الشعورية تحتاج إلى أن

تحتفظ بالأثر الفني بالتأثير المباشر في ما تمثله الكلمة من رمز. وما يفهم، إن الشعر يقوم على الرمز وعلى الإيحاء وعلى اللفتة، وعلى اللمسة، وعلى الجو أكثر مما يعيش على المعنى القاموسي. ولكن المسافات، إلى معنى يبتعد عنك ألف كيلو متر أو إلى معنى يبتعد عشر كيلومترات، وإن اللفتة التي تجعلك تعيش هذه المسافة البعيدة قد تقودك أن تلهث وعندما تريد أن تصل إلى المسافة النهائية، أو إلى المضمون، فإنك تفقد الراحة في إحساسك بالكلمة.

لست ضد الأنا في وجدان الفرد فهي التي تقوده إلى الإبداع:

■ **تتحدث في بعض شعرك عن حزن شديد يقابله فرح شديد، مثلاً تقول: «شاعر رنح الخيال جناحيه بأطياف عالمٍ فياح»... وتقول: «لك اليوم فافرح به ما غد سوى حلم كالصدى المهمل»... فأين يكمن توقك الحقيقي الذي يملي عليك كشاعر؟**

كإنسان أعيش الفرح والحزن ولكن حزني ليس حزناً يقتل مشاعري وأحاسيسي، وليس فيه أي إحباط. بل إن للحزن لذته عندما نعانيه.. والحياة لذتها في المعاناة.

أقول في قصيدة تعود لزمن الخمسينات وهي قصيدة وجدانية فلسفية:

«أنا يا ليلاي مهما يعتصر من دمائي الليل في عسف التجني.
فدمي قيثارة تعزف لي أغنيات النور في فجرِ التَّمنّي
وأنا– عبر المدى ـ ما ضرني إنني وحدي ـ أحيا وأغني
أزرع النشوة في دنيا غدي وأثير النور في أطياف جفني
وأناجيك وحولي جنة من رؤى فنٍ.. و من أطياف حسنِ
فأنا اخلق وحدي جنتي فأرى اللذة في أعماق حزني
فهوانا لم يعد أسطورة في خيال.. يبدع النجوى وظن»

تقول في إحدى قصائدك عن الشاعر:

«حر الضمير تثور في أعماقه حرية طافت على تبيانه»..

■ **ألا تتعارض هذه التجربة وما تفرضه من أسئلة وجودية ملحة ودقيقة مع ما يفرضه الدين من محاذير وممنوعات حمر؟**

لا أتصور الدين يفرض خطوطاً حمراً على الشاعر الذي يعيش دينه في الإسلام. سبق أن قلت، لا بد أن يبني الشاعر عقله وقلبه على أساس مبادئه وقيمه، وألا يكون هنالك انفصام بين الذات وبين الفعل، ولذلك فمن الطبيعي أن يعيش الإنسان حريته في نطاقِ فكره.

إن كل من يمارس الحرية، إنما يمارسها من خلال العناصر التي ترتكز عليها الحرية، إنه يعيش حريته من خلال حركته الوجدانية والعقلية والفكرية، ولا يدخل في حريته بالمطلق أن الصورة التي يطرحها السؤال عما يسمى بـ«رجل الدين، هي صورة قاتمة لا تعكس حقيقة ما يمثل هذا الإنسان في انسانيته».

النقد الأَدبي والناقد عند سماحة السيّد الشَّاعر:

■ **ما هو رأيكم بالنقد والناقد، وهل هناك نقاد على مستوى العمق النقدي؟**

- من الطبيعي أن النقد هو الجانب الآخر من الفن الذي يستطيع أن يحرك كل التجربة الأدبية ليكتشف جمالاتها. ويسير إلى مواطن القوة والضعف فيها. ونحن قد نشعر بأن هناك حالة نقدية عامة لا نستطيع أن نخضعها لمصطلح النقد بالمعنى الأدبي للكلمة. أما مسألة النقد الأدبي فأنني أتصور أنَّهُ ظاهرة أصبحت بعيدة عن النشاط الأدبي في مرحلتنا الحاضرة. إنني أتطلع إلى المرحلة التي كانت تصدر فيها الآداب في الخمسينات والستينات، وكانت تمثل حركةً نقديةً متنوعة الأبعاد والأساليب.

ولقد رأينا أن المراحل الأخرى في السبعينات وحتى الآن لم تستطع أن تطرح لنا ناقداً في مستوى ما كنا نعرفه من نقاد أدبيين مثل محمد مندور وغيره.

■ **هل يمكن للغة العربية استيعاب كل الحضارات، وهل أن سماحتكم مع تعريب كل العلوم، وهل هذا يؤثر على ثقافتنا؟**

- من الطبيعي أن كل لغة تغتني بالأمة التي تتحدث بهذه اللغة في رصيدها الثقافي. وبذلك فإننا نعتقد بأن اللغة ليست شيئاً جامداً متحركاً بل إنّها يمكن أن تتوسع وتتنوع بالطريقة العفوية التي يمكن أن يتحرك بها الناس، أو بالوسائل العلمية التي تتحرك فيها المجامع اللغوية. ولكننا نلاحظ أن المجامع اللغوية لم تستطع أن تحول مفرداتها اللغوية إلى لغة حية في حياة الناس.

إنني أتصور إنه من الممكن جداً للامتداد الحركي للغة في حياة الناس أن يغني اللغة بكثير من المفردات التي قد تكون موجودة في لغات أخرى. فقد نلاحظ الآن أنَّ اللغة تتطور وتتفاعل مع حركيّة الأمّة تماماً كما يتفاعل الفكر وكما تتفاعل الأوضاع العامة.

الرمز والمحاكاة:

■ **هل الرمز والمحاكاة للطبيعة أو المرأة أو أي من العناصر الأخرى، عنصر من عناصر الجمالية لا بد منه؟**

- من الطبيعي إن مسألة الرمز هي أساسية، في الفكرة التي تريد أن تنطلق فيها من خلال أن الرمز قد يختزن كثيراً من العناصر الذاتية التي يمكن لك أن تحركها في آفاق الإبداع من خلالها، ومن خلال ذلك فأنني أعتبر إنه من الممكن جداً أن ننطلق من خلال المرأة ومن خلال أي رمز آخر يختصر العناصر التي يمكن أن تثري الفكر سواء كان في سعة الأفق أو في المفردات التي تتحرك فيها الحياة من خلالها. إن ذلك أمر طبيعي في المسألة الفنية التي تحتاج إلى بعض العناصر التي تنطلق من حالة جمالة معينةِ.

■ حتى في الحالات الخاصة كالغزل لا بدّ من الانطلاق إلى أوسع من النقطة التي نعيشها ؟ هل تتآلف الروح مع هذا الإنطلاق ؟

– إنني أزعم أنَنا روحيُّون حتى لو كنا ملحدين، لأننا نشعر بأن الجانب المادي من حياتنا لا يستطيع أن يسكت جوعنا إلا إذا استطعنا أن نهيء له أجواء معينة تحاول أن تروحِنَ هذا الجانب المادي. لماذا نحب أن نأكل في الهواء الطلق. لماذا نخرج إلى الطبيعة من الربيع لنتناول غداءنا؟ لماذا نحاول أن نجلس على ضفاف النهر، لأننا نشعر أن الجسد لا يستطيع أن يتغذى غداء يشبعه بحيث يسكت جوع الإحساس وجوع الفكر، إلا إذا استطعت أن تعطيه أشياء تجعلك تحبه. مثلاً عندما نشعر أن الأغذية لا بد أن نضع فيها ما يسمى بالبهارات، البهارات لا تسمى حالة غذائية تضيف إلى الغذاء معنى ولكنها تضيف له جواً جديداً بحيث إنك تستطيع أن تعيش هذا الجو. لهذا إني أتصور إن الإنسان روحي بطبعه. لذلك لا يمكن أن يمارس أي عمل مادي إلاّ بعد أن يعطيه شيئاً من نفحات الروح.

الكتابة للجنوب:

■ الجنوب جرح الوطن الدائم، ماذا كتبتم للجنوب؟

– في الواقع لقد عملت له أكثر مما كتبت.

هل الشعر حالة روحية قائمة بذاتها؟

– أذكر أبياتاً للأخطل الصغير في هذا المجال:

«والشعرُ روح الله في شاعره

ذلك يوحيه وهذا يَنْشُرُ

ما الحسن لُولا الشعر إلا وردةٌ

يلهو بها في لحِظتين النظرُ

لكنها إن أدركتها رقّةٌ
من شاعرٍ أو دمعةٌ تنحدرُ
سالت دماءُ الخلد فِي أبياتِهَا
ونام تحت قدميها القـدَرُ

لهذا الشِّعرُ هو الإِنسانُ المنفتِحُ على الله في الكونِ والحياة والجمالات .. في سموِّروحيِّته وفي إشراقةِ وحيه .

المحور الثامن:

الإسلام والشِّعر
إِبداعٌ في التجربة شكلاً ومضموناً

"في تصُّوري أنَّنا عندما ننفتحُ على الاسلام في آفاقه الواسعة الرحبة فإنَّنا ننفتح على االشِّعر... لأنّ الشِّعرَ يتحرك في رحاب الجمال الإِنساني..."

محمد حسين فضل اللّه

الإسلام والشعر

الشعر والإسلام:

■ **الشعر بعد الإسلام لم يكن له معنى، إلا من حيث إنه كلام حسن أو سيئ، كان الشعر في الجاهلية «أصح علم»، لكنه في الإسلام بطل أن يكون كذلك، وصار القرآن هو العلم الأصح. وأصبح الشعر الذي يستلهم هذا العلم هو الأصح. لقد أصبح للشعر وظيفة جماعية. وتحول الشاعر إلى نسّاخ للمكتوب في الأمة وذوقها. هكذا ارتبط الشعر بالقيم الموروثة، بالسلطة الراهنة أو الممكنة، واتخذت الصلة بالقديم بعداً نفسياً، تجلى في رفض الجديد. ذلك أن هذا الجديد يحدث خلخلة في الثابت والسائد والمستقر.**

- في تصوري، أن هذا التحليل للمرحلة الأدبية التي عاشها النتاج الأدبي بعد الإسلام ليس دقيقاً. فهناك بعض الذين يحللون التاريخ،مِمَّن يستغرقون في نظرية يحملونها. ثم يحاولون أن يحمِّلوا الواقع أكثر مما يحتمل. عندما نريد أن ندرس القرآن فإننا نجد أن القرآن يمثل ــ بقطع النظر عن الجانب القدسي الذي تحمله كلمات القرآن. من إنها وحي من الله ــ في الجانب الفني ــ الإبداعي إنطلاقة شعرية. تحمل كل الأخيلة وكل الرؤى وكل الأحاسيس وكل المشاعر، التي تصور الإنسان في ضعفه والإنسان في قوته. كما أنها تطوف بالإنسان إلى عالم الجمالات كله، التي يتمثلها في اللّه، في المعنى الروحي للجمال. كما تطوف به الجمالات

الكونية، التي تنفتح على أحاسيس الوجد الإنساني، لتحمل مسألة العقيدة نتيجة للأحاسيس تصوِّر هذه الآية التي تقول: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج). ثم تأتي الكلمات: » إن الذي أحياها لمحيي الموتى ». إنه ينقلك ليربطك بكل الجمال الذي يمثله الربيع. ثم ينطلق بك لتعيش العقيدة باليوم الآخر، من خلال أحاسيسك من دون استغراق في الجانب الفلسفي إنني أتصور أننا عندما ندرس القرآن، من الناحية الفنية بعيداً عن كل التقاليد. نجد أن هناك جواً شعرياً رائعاً. إقرأ « سورة مريم » لترى كيف حشد القرآن في تجربة مريم (عليها السلام) الروحية، وتجربتها في ما عاشته من هذا الجو الجديد، وفي مسألة ولادة المسيح إنك ترى أن هناك قصيدة شعرية تبلغ كل النوتات الموسيقية. وكل التفاعيل التي تهز الوجدان والقلب والعقل. لذلك فإني أتصور أن القرآن كان وحياً لكثير من الشعراء ونحن نعلم أن الفلسفة البلاغية والحركة البيانية في الوطن العربي والثقافة العربية انطلقت من خلال القرآن على أساس أن عبد القاهر الجرجاني وغيره من علماء البلاغة. حاولوا أن يفسحوا المجال لعلم جديد في البلاغة، التي تمثل المعاني والبيان والبديع من خلال اكتشافهم الأسس الفنية للإبداع المتجه للنص القرآني. لذلك فإن حركة الشعر بعد الإسلام لم تتجمد ولم تتأثر.

الشعراء.. والغاوون:

■ هنالك أية كريمة في سورة الشعراء تقول: «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كلِّ واد يهيمون. وأنهم يقولون ما يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (صدق الله العظيم) كيف يجمع السيد فضل الله بين الشعر والدين في ظل هذه الآية ومنطلقاتها؟

هذه الآية تمثل أبلغ ألوان التعبير الذي يجمع للشعر أغراضه السلبية والإيجابية، كالحديث عن أن الشعراء يتبعهم الغاوون. إنه يتحدث عن واقع الشعر في عصر الجاهلية باعتبار أن أغراض الشعر كانت هي الأغراض التي تثير العصبيات، وتتحدث عن كل تفاصيلها، كما

تنطلق لتكون حركة من أجل مدح شخصية اجتماعية لا من خلال ما هي عليها في المعنى الإنساني فحسب وغير ذلك.. ما يجعل الأغراض الشعرية أغراضاً لا تلتقي مع الناس الذين يعيشون القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية.

ثم تتحدث الآية الثانية، «ألم تر أنهم في كُلِّ واد يهيمون»، ليست لديهم قاعدة فكرية ينطلقون فيها، فهم يتحركون في هذا الوادي، يهيمون في هذا الوادي وذاك من أجل بعض الجوانب الذاتية أوالشخصيّة، وإنهم يقولون ما لا يفعلون، لأنهم يتحركون في تصوير بعض القيم والمبادئ ولكنهم لا يلتزمون بها، هم صناع الكلمة وليسوا صناع الواقع، لأن هناك هوة بين الكلمة التي يقولونها وبين الواقع الذي يعيشونه «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، الآية تتحدث هنا عن الذين يؤمنون بالله. باعتبار أن الإيمان بالله يمثل القاعدة التي تجد للإنسان كل مفرداته، «وانتصروا من بعد ما ظلموا»: والذين يواجهون الظلم ويتحدثون على أساس إرادة الانتصار.

الإسلام والإبداع الشِّعري:

إن هذه الآيات لا تتحدث عن الشعر في كل أغراضه، أنها تتحدث عن الشعراء في أغراضهم المنفتحة على قضايا المجتمع وعلينا أن نعرف حقيقة، وهي أن الإسلام رسالة، وأن القرآن جاء لتأكيد هذه الرسالة، ولتأكيد هذه القيم، وإنه يريد للإنسان أن يرتكز على قاعدة حتى عندما يريد أن ينفتح على الكون كله، وأن ينطلق من وعي لفلسفة الكون، حتى في مزاجه إننا لا نفهم أن يكون المزاج شيئاً بعيداً من القيم التي يؤمن بها الإنسان أو العلاقات الإنسانية، وهذا لا يمنع الإبداع الشعري، والإسلام لا يريد أن يعلّب الإنسان الشاعر ولكن يريد أن يقول له: عندما تريد أن تنطلق لتكون عنصراً مؤثراً في الإنسان، فإن عليك أن تركّز قاعدتك الفكرية والعاطفية والحركية في داخل نفسك، حيث إنك تنفتح من خلال هذه المعرفية الإنسانية

المرتكزة على قاعدة.

■ **إذاً، نفهم أن الشعر يجب أن يكون ملتزماً:**

الشاعر ينبغي عليه أن يكون ملتزماً، وليست مواضيعه، عندما يكون الشاعر ملتزماً، فإن التزامه يحركه عفوياً في خط الالتزام، أنا لا أؤمن بأن تفرض على الشاعر موضوعاً يعيشه، ولكننا نقول أن على الشاعر أن يعيش الحياة وأن يعيش الإنسان وأن يعيش القيم حتى لا يكون الشعر مجرد هواية ذاتية، بل يكون مادة للحياة. ولذلك أنا لا أؤمن بأن نحدد على الفنان فنه، ولكن نريد أن نقول له كن إنسان الفن الذي يخدم الحياة، أي اصنع نفسك قبل أن تصنع فنك.

■ **هل كان لجذورك الإسلامية تأثير مباشر على تجربتك الشعرية، وهل حاولت من خلال هذه التجربة أن تعطي صورة جديدة عن الروحانية الإلهية في إطار شعري؟**

في تصوري أننا عندما ننفتح على الإسلام في آفاقه الواسعة الرحبة فإننا ننفتح على الشعر. لأن الشعر يتحرك في رحاب الجمال:

جمال المرأة، جمال الكون في كل مفرداته المتناثرة في البحر وفي النهر وفي الجبل والنجوم والشمس والقمر وجنائن الورد وفي كل المواقع التي تحمل عمق الجمال الذي يعيش الإنسان إحساسه بالسعادة لا الشعورية. وعندما تتحدث عن الله فإنك تتحدث عن مبدع الجمال. وعندما تتحدث عن صفات الله فإنك تتحدث عن عالم المطلق الذي لا حدود له. وأتصور أن الشعر لا يجتذب بشيء كما يجتذبه المطلق. فالشاعر يحاول أن يصنع من هذه الوردة التي تتمظهر بأوراق معينة وبروائح عطرية معينة كوناً واسعاً من الأسئلة الجمالية ومن المشاعر والأحاسيس التي يعيش فيها الإنسان معنى الجمال في الوردة، في فكره أكثر مما يعيشه في

جمال، الوردة المادي. إن الشاعر يحاول أن يتروحن في نظرته إلى الجمال ليجعل من الجمال حالة روحية ممتدة بحيث يمنح الصورة معنى الخلود في التجربة الأدبية أو الشعرية بعد أن تموت الصورة. وهذا ما عبر عنه الأخطل الصغير عندما قال:

ما الحسن لولا الشعر إلا زهرةٌ
يلهو بها في لحظتين النظرُ
لكنها إن أدركتها رقةٌ
من شاعر، أو دمعة تنحدرُ
سالت دماءُ الخلدِ في أبياتها
ونام تحت قدميها القدرُ

الإسلام وحركة الفن والفكر والإبداع:

لقد لاحظنا إن التجربة الصوفية التي تحركت على أساس حب الله والاستغراق في الله والانفتاح على الله والتغزل بالله انطلقت من خلال حالة شعرية وجدانية روحية رأت في الجمال الإلهي الذي اختزنته في إحساسها وفي فكرها من خلال الأجواء القرآنية ومن خلال الآفاق التأملية بحيث شعرت أن الله يمثل الجمال. والوجود كله إنما هو ظلال لهذا الجمال الذي يمثله الله، باعتبار أن الكون هو هدى لوجود الله، فإذا عشنا تجربة الجمال في كل مظاهر الجمال في الكون فإننا نكتشف الله من خلاله.

أما الفكرة التي يحملها الكثيرون عن الإسلام بأنه يمثل حالة تقليدية جامدة روتينية فإنني أتصور إنهم ينطلقون منها من إحدى حالتين: إما من خلال تجربتهم مع الذين عاشوا الجمود في شخصيتهم فجمّدوا الإسلام معهم، أو لأن هؤلاء الذين يتحدثون عن الإسلام يتحدثون عن لافتات قرأوها في التجربة الغربية للدين ولم يقرأوا الإسلام جيداً. ولذلك ادعوا هؤلاء إلى

أن يقرأوا الإسلام ليجدوا الفكر والفن والإبداع وحركة الحياة.

شعر الذّات:

■ **ديوانك الجديد «على شاطئ الوجدان» لم يتضمن كل هذا الذي تكلمت عنه؟**

هناك بعض التجارب التي يتضمنها الديوان تحمل مثل هذا. مثلاً القصيدة التالية:

رب مالي أبكي ومالي أُغنّي ... وحياتي تصدّ نجواك عنّي؟
أنا اهواك لا لنعماك تستهوي ... كياني ولا الجنّة عدن
للربيع الممراح يبتسمُ العشب ... بواديه للنَدى المطمئن

إلى أن أقول:

أنا أدري بأن خلف ظلال ... الموت إن ثارت الغريزة سجني
وبأني إذا اقتحمت لذاذاتي ... وأترعت بالغوايات دنّي
سوف أهوي إلى الجحيم ولكن ... أنا أرجو في ظل عفوك أمني
ربِّ هذي حقيبتي ليس فيها ... لي من قُربةٍ سوى حسنِ ظنّي(١)

وفي قصيدة أخرى:

«وأحبّي، ووزِّعي الحُبَّ أحلاماً على كل (سامرٍ يَتَدنَّى)
فأنا هاهنا أبارك ذكرى كنتِ لفظاً بها وحبي معنى(١)

الحب يتخذ هنا معنى الفكرة التي لا يعود فها المحبوب مجرد حالة مادية يستغرق فيها الإنسان. وهكذا أجد أن هناك عدة تجارب في هذا الديوان الذي كان يمثل شبابي الأول الذي

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك بيروت، قصيدة (أنا أهواك) ص: 43.
(٢) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ط1، دار الريِّس، لندن، قصيدة (إسمعيني) ص:30.

لم تستكمل فيه تجربتي الرسالية بشكل عميق وشامل. هناك كثير من اللافتات يمكن لمن يقرأها أن يلمس أن حياتي كانت تعيش في إشارات وإيحاءات توحي بما أعيشه الآن.

الإسلام وماهيّة الحياة:

■ **هل تشعر بنوع من الانفصال بين ما تعيشه في حركتك الإسلامية وما تعيشه كشاعر؟**

أشعر أنني إنسان حي أعيش الحياة بكل عمقها وبكل انفتاحها وبكل مواقع الصراع وآفاق الجمال فيها. ولذلك فأنا لا أجد أي نوع من الانفصال بين ما أعيشه كشاعر في تجربتي الفنية الشعورية وبين ما أعيشه كرسالة في حركتي الإسلامية وفي ما أعيشه في فكري في حركتي العلمية.

إنني أعتقد أن العلم هو رسالة والفنّ يمكن أن يحقق للحياة أكثر من غنىً في التجربة وأكثر من قوة في الموقع وأكثر من انفتاح على الله. ولذلك أنا أتكامل في كل ما أمارسه من تجارب من دون أن أشعر أن أي تجربة تحاول أن تلغي الأخرى أو تتنكر لها.

ماهيّة الكفر من خلال جدليّة الإسلام والشعر:

■ **تقول في قصيدة «يا ظلال الإسلام» لن يقف الركب: «إنها (الصورة) التي شاءها الكفر، ليوحي كما يريد ويعمي» سؤالي هنا، الإنسان ببساطته وذكائه يسكنه هاجس الخوف من الله بمستويات ومفاهيم مختلفة فكيف يمكن أن يوجد الكفر؟**

إننا نتصور أن الكفر ينطلق من حالة تمرد نفسي يحاول فيه الإنسان أن يستغرق في ذاته بعيداً عن الآفاق الواسعة التي تربطه بالأجواء البعيدة، سواء في ما هو معنى الجمال، في ما يختزنه من عظمة القدرة التي تصنع هذا الجمال، أو في آفاق الإبداع في ما يختزنه من آثار العظمة بما يوحي به.

إنني أتصور إن حالة الكفر هي حالة لا شعورية فيما يريد الإنسان فيه أن يوحي لنفسه، في حالات الاستغراق الذاتي، بالهروب من المألوف، والهروب من بعض أوضاع الواقع، ومن بعض ما يتمثله في حركة الواقع من أمور لا تنسجم مع أجوائه النفسية أو الروحية أو الفكرية، مما يمكن أن يعتبر من نتائج الإيمان بينما قد يكون من نتائج التخلف الذي يأخذ عنوان الإيمان.

في تصوري أن الكفر ليس تجربة إنسانية شعورية هادئة بل ينطلق من حالة يعيش فيها الإنسان الضوضاء الشعورية في داخله مما يجعله يتمثل حالة التمرد لكل ما يسمى إيماناً.

بين الكفر والشك:

إنني أريد أن أطل على نقطة في هذا المجال، عندما نريد أن ننفتح على مسألة الكفر والإيمان في ما هي مسألة الإيمان بالله والكفر بالله. إنني أريد أن أقول إن هناك حالتين: هناك حالة شك، وهناك حالة رفض. أن تشك في الله تلك قضية يمكن أن يتحرك فيها فكرك، باعتبار أن أي فكر تريد أن تنطلق نحوه، أو أية حقيقة كونية، أو أي هدف فكري في الكون لا بد لك لكي تصل إليه من أن تعيش المعاناة في نهايته، ومن الطبيعي أن الشك يمثل عنصر الحركة الفكرية التي لا تعيش الحيرة لتستغرق فيها وتسقط، بل تعيش الحيرة التي تراقب كل الأجواء وكل المفردات وكل المشاعر والأحاسيس لتصل فيها إلى النتيجة الحاسمة في ما هو السلب أو الإيجاب.

لذلك إنني أتصور أنّ الذين يكفرون ليسوا كافرين، وإنما هم شاكون يتطلبون الوصول إلى ما يطرح أمامهم من مضامين فكرية دون أن يجدوا جواباً لكثير من حالات الكفر، إلى حالة الرفض بينما نعتقد أن مسألة الرفض تحتاج إلى دليل كما هي مسألة الإيمان في القبول، تحتاج إلى دليل.

إننا في ما نتمثله من هذه الأجواء نتصور أن الكفر لا يحترم الجانب الفكري في شخصية

الكافر أنه لا يملك الأساس لرفض الله، إنه يعيش أجواء الشك في الله والذين يفكرون بالإيمان يتصورون إن هناك إمكانيات كبيرة أن تكتشف الله من خلال الجانب الجمالي في الكون، أو الجانب الإبداعي في الكون، بالإضافة إلى الجوانب الفلسفية. لهذا إنني أتصور أن حالة الكفر التي لا تمثل حالة عقلانية في ما هو الرفض، لا في ما هو الشك، تنطلق من أوضاع نفسية فترتبط بالواقع الذي يحيط بالكافر أو بالحالات النفسية التي يختزنها في رواسبه البائسة.

▪ سؤال لا يخلو من الاتهام: هل أنت متصوف، فمن يراقبك فكرياً وثقافياً وشعرياً، وحتى في أسلوبية تعاطيك مع الواقع وكيفية طرحك للمسائل الحياتية والسياسية والفكرية وكيفية توجيهها يعتقد بأنك تتحرك من منطلق إيحاء غامض؟

لا أستطيع أن أعد نفسي من المتصوفة، لأن للتصوف أبعاده وخفاياه داخل النفس وفي عنصر الممارسة، بحيث يمثل كياناً قائماً بذاته لا تدخل فيه التقاليد إلى جانب الحالة الفكرية أو الشعورية. ولكنني أستطيع أن أقول بأنني أحاول دائماً أن أرتفع عن سطح الأشياء لأحلق في الأعالي، في كل الأبعاد الكونية التي قد أعيش غموضها فأحاول الاستغراق فيها لأكتشفها. كما أنني أحاول أن لا أتوقف على السطح؛ بل أنفذ إلى العمق، فأعمد على أساس أن أنفذ إلى كل فكرة من خلال عمقها في الحياة وفي التجربة الإنسانية وفي داخل الشعور. كما إنني أحاول أن أطل على كل الأمور التي أعيشها حتى بالنسبة إلى أحاسيسي النفسية، أو أحاسيسي الروحية، فلا أمارسها ممارسة بسيطة عفوية، بل أحاول أن أتعمق فيها.

إن تجربة العمق في تمثل الفكرة ـ في المعاناة الشعورية وفي حركة الواقع تُلّح على أن أتحرك فيها بما أملك من إمكانات، وربما تطل بي على أجواء المناجاة مع الله في كثير من الأجواء التي تمثل حيرة الواقع، ولكن لا حيرة الواقع الذي يريد أن يهرب منه ولكنها الحيرة التي تريد أن تكتشف سر الواقع في جمالات الواقع، وتكتشف عمق الواقع في بؤس الواقع. لهذا كنتُ

أَقول في إِحدى قصائدي:

ومشينا مع الضباب. كما يرتع في وحشةِ المكانِ النزيلُ
هكذا نحن حيرةٌ، يرقص الوهم عليها وتستطيلُ السدول...

إلى أن أقول:

رب هذا الليل البهيمُ. هدوءٌ شاعريٌّ طلقٌ وأُفقٌ جميلُ
ونسيمٌ يموجُ في سرحة الروح نديّ.. كما تشاءُ عليلُ
وشعاع ترقرقت فيه ألوان.. من السحر رجرجتها الحقول
يبعث الشاعر المولّهْ صوفياً يناجيك، والنجوم مثولُ(١)

■ هل يمكن للإنسان أن يقيم علاقته بالله من خارج إطار الدين، فهناك عظماء كبار خاطبوا الله على طريقتهم، مثلاً، الألماني الموسيقي الشهير بيتهوفن؟

من الطبيعي أن التصور الإنساني لله لا يمكن أن نحبسه في زنزانة تقليدية فكرية ضيقة. لأنك عندما تتمثل الله على أنه الوجود المطلق كما يُعبر عنه في الفلسفة، فإن معنى ذلك إنه يمثل الأفق الذي لا حد له في مضمون التصور، الرحمة التي لا حد لها، العلم الذي لا نهاية له...، وعلى هذا الأساس، فإن إنطلاقة الدين في نفس الإنسان تتحرك من خلال تمثله لله في كل ما يملك من آفاق الفكر ومن حالة المعاناة التي يستطيع أن يكتشف الله فيها من خلال الألم ويستطيع أن يكتشف الله فيها من خلال الجمال، ويستطيع أن يكتشف فيها الله من خلال الإبداع. عندما تكتشف الله في كل الآفاق الواسعة التي لا تحدها أي حواجز مما تعارف الناس من حواجز، فإنك تكتشف الدين.

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك بيروت، ص 15، قصيدة (صوفيّة شاعر).

الدين هو انفعال بالحالة التي تكتشف فيها الله بعيداً عن الصيغ التقليدية، وعندما يريد الدين أن يحبس التصور لله في صيغ تقليدية، أو صيغ جامدة محيطة، فإنك قد تفاجأ بأنك لن ترى الله في هذه الصيغ، حتى المسألة الدينية التي تتحول إلى تقليد في حياة الناس لا تمثل الله إلا بقدر ما تفتح كل آفاق شعورك على الله في عملية التقاء بالله من خلال نفسك المنطلقة بعيداً عن أي حدود.

التجربة الروحيّة:

إننا عندما نتمثل الصلاة، فإن النص يقول: ليس لك من صلاتك إلا ما أقبلت فيه بقلبك على الله، معناه إن الصلاة في ما تمثل من هذه الحركات التي تقوم بها لن تجد الله فيها إلا إذا انطلق قلبك في معاناتك الروحية الذاتية في اللقاء بالله، بحيث تعطي الحالة الشعورية النفسية المعنى لهذه الحركات حتى تكون هذه الحركات دينية.

من خلال ذلك نستطيع أن نقول إن بإمكان الإنسان، أن ينطلق بعيداً عن القوالب الدينية في تمثله لله وفي التقائه به، ويمكن له بطريقة وبأخرى أن يلتقي بالدين من خلاله وأن يعطي الدين فهماً أوسع وأعمق وأغنى من تجربته الروحية.

الشعر والدين:

■ **هل يمكننا القول إنك اخترت أن تكون الشاعر بمحض إرادتك، في حين فرض عليك أن تتجه إلى الدين في حياتك؟**

قد لا تكون كلمة الاختيار دقيقة، لأني عشت الشعر.. كنت أعيشه ولم أجد هناك أي تنافر بين أكون شاعراً وبين أن أكون طالباً في الحوزة الدينية، فأغلب العلماء الذين يعيشون في الحوزة العلمية في النجف كانوا شعراء حتى أن بعضهم ينظم الشعر الغزلي والشعر الخمري.

هناك شاعر معروف وكبير اسمه السيد محمد سعيد الحبوبي وهو من العلماء والمجاهدين. كان عنده حتى أشعار خمرية وكان بشارة الخوري (الأخطل الصغير) يقرؤها ويستمتع بها كشعر ومن الطبيعي ـ يردف الأخطل الصغير ـ إن ثقافته كانت من خلال قراءاته الخمرية لأبي نواس وغيره.

■ **ألا يتنافى الشعر مع الدين عندما تصل إلى شعر الخمرة؟**

لا أدري كيف يتقبّل الوسط الديني هذا النوع من الشعر الذي ينتشر لدى الشعراء التقليديين الذين كانوا غالباً لا ينفتحون على أغراض جديدة غير الأغراض التي قرؤوها في ما قرؤوا من شعر. إننا نلاحظ إننا قد نجد في هذا الوسط الديني قولاً فاضحاً يعبر عن أحاسيس مباشرة بشكل طبيعي جداً... ومن هنا فإن هذه المسألة تدل على أن المجتمع لم يكن على الأقل في هذا الجانب مجتمعاً تقليدياً.

■ **من المفترض أن طمأنينة الدين تلغي القلق الوجودي، وفي حين لا يعيش معظم الشعراء قلقاً وجودياً.. ما تعليقكم؟**

هناك فرق بين أن يعيش الإنسان الدين كطمأنينة وكسكينة روحية في إحساسه بالله. وإحساسه بأنه يعيش في وجود لا يتحرك من خلال الضياع أو من خلال حالة ضبابية... وجود منظم، ولكن من الطبيعي أن الإنسان عندما يدخل في التفاصيل يعتقد دينياً أن الله أوكل إليه، فكره فإنه يعيش قلق مستقبل حركته في مسؤولياته. إن الله يقول: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».. بمعنى إن الإنسان عندما يتحرك في خط التغيير الذي أوكل الله أمره إليه، فإن ذلك يعني إن الله أوكل إليه صنع تاريخه. إن مسألة أن تغير نفسك هي أن تغير التاريخ. لذلك عندما يجاهد الإنسان نفسه ويحركها في خط التغيير. لا بد أن يعيش

قلق هذا المسار ولا بد أن يعيش قلق نفسه في الالتزام بمسؤوليته أو الالتزام بالصواب في مقابل الخطأ. إن هناك فرقاً بين ألاّ يعيش الإنسان قلق الوجود، ولكنه يعيش قلق تفاصيله.

■ **هل يمكنني القول أن الشاعر في داخلك ظل عصيّاً على رجل الدين؟**

لا أتصور الدين وكأنه تلك الزنزانة الضيقة التي يتصورها الآخرون، فالدين ينفتح على الجمال، وعلى الإنسان الآخر وعلى الطبيعة وعلى كل تطلعات المرء وآماله وأحلامه وأفراحه وهواجسه.. الدين لا يلغي الشك، فهو يسعى نحو اليقين، ولذلك فإننا عندما نقرأ القرآن الكريم نجده يخاطب الذين يشكون ليسير بهم نحو اليقين.

لذلك فالدين لا يلغي تفكير الإنسان واستمتاعه بالجمال.. ولكنه يقول له كن إنساناً بكل غرائزك، بكل أفراحك وأحزانك، كن إنسان القيمة، كن إنسان الحياة، فالحياة لن ترتكز إلا على إنسان الحياة في خط القيمة. ولا أعتقد أن مسألة أن يعيش الإنسان حياته تتنافر مع أن يعيش قيمه، حتى الشعراء. فأنا عندما مارست التجربة الشعرية. كنت أعيش هذه الهواجس، حتى هواجس التطلع في الوجود. وأذكر في هذا السياق بعضاً مما نظمته في الخمسينات في قصيدة «أنا يا ليلاي»[(١)].

■ **تدعو في كتابك «على شاطئ الوجدان» إلى استغلال حاضرنا، والاحتفاء باللحظة الراهنة من دون الالتفات إلى الزمن المقبل... كيف تقارب ذلك من كونك علاّمة دين؟**

الغد هو مجموعة اللحظات وعلى الإنسان أن يعيش لحظته، أن يمسك بها حتى لا تهرب منه بل أن يعتصر اللحظة حتى يبقى للمستقبل شيءٌ منها. وهذا ما يعالجه القرآن الكريم عندما

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطيء الوجدان، ط١، رياض الريِّس للنَّشر قصيدة «أنا يالبلاي» ص ٢٨.

يتحدث عن القصة «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» إنه يقول، لا تنفتح على القصة أو التاريخ لتلهو به، لتتسلى، لكن اعتصره وأَبقِ للمستقبل شيئاً منه، إن العمر لحظات ولذلك يكون قد فاتنا الكثير إذا أفسحنا في المجال لأن تهرب منا من دون أن نحدق فيها وأن نعتصرها، وقتها سوف لن نستطيع أن نعطي المستقبل شيئاً من لحظات الماضي.

المحور التاسع

الحداثة والشِّعر الحُرّ

"أنا أقرأ الشّعر الحديث وأرى فيه إبدعات فنيّة ميّزة من حيث إشراقة الفكرة وعمقها. ولكنّي اتصوَّر أنَّ الشعر الحديث هو شعر النخبة وليس شعر النّاس".

محمد حسين فضل اللّه

الحداثة والشعر الحُرّ

■ **شهدت المراحل الأولى من الصراع بين تياري الشعر: التقليدي والحر، وتابعت قراءة روادهما _ بدر شاكر السياب ونازك الملائكة _ أين كان موقفك بينهما، وهل تعتبر نازك الملائكة رائدة الشعر الحر؟**

أعتبر الشعر شعراً، والمسألة متعلقة بالشاعر نفسه، الذي يمكن أن يبدع في الإشكال التقليدية تماماً، كما يمكن له أن يبدع في ما يسمى بالشعر الحر. فهو يستطيع أن يتجاوز ما يسمى بعراقيل الأوزان الشعرية بقدرته اللغوية الإبداعية، وأسلوب التعبير لا يشكل فارقاً عندئذٍ، إنما تبقى القدرة الشاعرية كامنة في المضمون. من هنا أنا من الذين لم يتعقدوا من الشعر الحر، كنت أمارسه تماماً كما أمارس الشّعر التقليدي بالإنفتاح والإمتاع، نفسه فالشعر تعبير تحكيه موسيقى داخلية يعيشها الشاعر فيحولها إلى موسيقى الكلمات، وبهذا يتشابه النثر مع الشعر، ويفترق عنه في الموسيقى الصوتية، وهناك الكثير من أشعار اليوم هي نثر وليست بشعر، كشعر أنسي الحاج، فقد يكون نثراً مبدعاً يُشْعِر الإنسانَ بالاهتزاز، إنما ليس شعراً، لذلك فإنَّ مسألة التفعيلات هي التي تعطي الحس الموسيقي المألوف في الشعر العربي، لأن الخليل بن أحمد الفراهيدي لم يضع أوزان الشعر بابداع ذاتي محض، إنما هو رصد موسيقى الأوزان الموجودة لدى كلمات العرب، إذا كانت موسيقاهم يعبرون بها عن مكنونات دواخلهم النفسية، حتى

عندما ابتدع الأندلسيون الموشحات، لم يخلقوا مشكلة في الشعر أو للشعر، بينما شعراء الحداثة قلبوا الكثير من المقاييس، حيث بتنا لا نميّز الشعر من النثر، ففرضوا علينا موسيقى جديدة لا علاقة لها بالإيقاع التعبيري الخاص باللغة العربية.

لهذا كان تأثري بالشعر التقليدي أكثر مما هو عليه تأثري بالحر، وما زلت أعتقد، أن التقليدي يمثل ثقافتنا، وهناك مشكلة لدى شعراء الحداثة، وهي افتقارهم القدرة على إخضاع الأذن العربية لموسيقى أشعارهم: هذه الموسيقى أو الحس اللغوي، أدمنت على الأوزان التقليدية، فالناس ما زالت تتمثل وتستشهد بشكل طبيعي بأبيات من الشعراء القدامى، في حين لا نجد هذا الصدى لهؤلاء الشعراء، فالشعر الحر ما يزال شيئاً غليظاً على الأذن العربية ولم يستطعْ أن يحل مكان الموسيقى الشعرية القديمة التي يختزنها الإنسان العربي.

■ وكأنك تستبعد التغيّرات الاجتماعية المستجدة والمتابعة على مدى العصور، حيث تعكس آثارها على الحياة الأدبية؟

لا أريد أن يفسرّ كلامي بهذا الاتجاه، فمن الممكن للمجتمع أن ينتج أساليب جديدة، تماماً كما تتطور الموسيقى بأساليبها، فيقبل عليها الناس، ولكن المسألة هي هذا المد التاريخي الطويل الذي عاش الإنسان العربي رواسبه في العمق، حيث من الصعب أن ينتقل في هذا المدى القصير من الزمن، الذي مر حتى الآن ــ إلى أشكال من الأوزان الأخرى خصوصاً وأنها غريبة عن بيئتنا العربية، ولم تتشكّل بفعل تطور حضارتنا إنما بما طوّره الآخرون.

أما نازك الملائكة، فقد كانت من شعراء الحداثة الأوائل الذين قرأت لهم، وأوافق المؤرخينْ أو النقاد في ما ذهبوا إليه في اعتبارها رائدة الشعر الحر آنذاك. لكن لبدر شاكر السياب تجربة لا تقل أهمية إبداعه في الحداثي و(خشبة الألم) من القصائد التي أدخلتني في متاهة الألم والمعاناة.. وهناك أسماء أخرى تعيش هذه الآفاق، ولعل» نزار قباني» في هذا الميدان...

■ **كيف هي علاقتك بالشعر الحديث:**

أنا أقرأ الشعر الحديث وأرى فيه إبداعات فنية مميزة من حيث إشراقة الفكرة وعمقها، ولكن أتصور أن الشعر الحديث هو شعر النخبة وليس شعر الناس، وهذا رأي يمكن وضعه في دائرة السلب أو الإيجاب، لأن هناك ما كتبه علماء البلاغة في تعريف البلاغة وشروطها، ومنه الخلوّ من التعقيد اللفظي، والتعقيد المعنوي، ويقصدون بالتعقيد المعنوي هو أن تكون الفكرة منطلقة في التعبير عن الشيء بلازمه، وعندما تكون اللوازم طويلة، فمن الصعب عليك معرفة الفكرة من خلال لوازم الفكرة التي تحاول أن تعبّر عن الفكرة من خلالها. وقد عبرت عن هذا بطريقة صارخة، وهي أنك عندما تقرأ بعض الشعر الحديث أو بعض الكتابة الحديثة، فإنك تشعر أن المسافة بين المعنى اللغوي والمعنى الذي يقصده الشاعر طويلة وشاسعة جداً.

وبعبارة أخرى، إذا أردت أن تفهم التجربة الشعرية الحديثة، فإنك تحتاج لثقافة الرمز، لأن الكلمات تتحوّل إلى رموز على الفكرة، ولا تتحول إلى إطار للفكرة تماماً كما هو المصطلح، وكما هي الإشارات. إن الشعر الحديث يتحرّك عن طريق الإشارة والرمز وهذه هي المسألة.

ومن المؤكد أن الشعر الحديث يملك درجة عالية من الفن في مفهوم النخبة تماماً كأي رمز يرمز إلى فكرة مشرقة. أما أن يكون الشعر للناس، للحياة، فإني أتصور أن الشعر الحديث قد فشل في ذلك.

وهناك تجارب قد تسمى شعراً حديثاً ولكنها تمثل جسراً يربط بين الشعر الحديث والشعر الكلاسيكي القديم، كتجربة نزار قباني، وسميح القاسم، أو محمود درويش أو غيرهم.

■ **تأسيساً على ذلك برأيك هل شرط الشعر أن يكون للعامة؟**

* لا، أنا لا أقول للعامة، أنا أقول أن يكون مفهوماً للناس، فأنت لا تستطيع اعتبار شعر المتنبي شعراً سطحياً أو شعر أبي تمام، هو ليس شعراً للعامة بالمعنى السطحي الساذج، ولكنه

استطاع أن يعطي العامة ثقافته.

إننا نعتبر أن قيمة الأدب، سواء بالشعر أو بالنثر، هو أن يثقف العامة والإنسان وأن يتحرك مع الإنسان في حياته. فأنت تجد الناس تتمثل بشعر للمتنبي أو غيره بشكل عفوي في البيت والشارع وأثناء السهرات والاجتماعات..

لم أقل إن الشعر لا بد أن يملك الوضوح الذي يجعله كلاماً عادياً، وأعتبر أن اللمسة واللفتة والإيحاء حتى الرمز ضروري في شعرية الكلمة لكي يكون فناً ولا يكون مجرد كلام موزون مقفّى كما كانوا يعرّفون الشعر، ولكن على نحو تستخدم فيه اللغة التي من الممكن أن تعيش في وجدان الإنسان لتثقفه ولتكون جزءاً من حياته.

■ هل من رموز شعرية قديمة أو حديثة تأثرت بها؟

أنا أقرأ الشعر كله،ولست ممن يقيدون أنفسهم بشاعر معين، بل أحاول القراءة لألتقط من هذا الشاعر قصيدة ومن الآخر قصيدة، ولا أعتبر وجوب التخصيص بشاعر معين.

■ هل لك أن تُحدِّثنا عن تجربتك الشّعريّة الكلاسيكيّة والمحدثة؟

لقد عشت التجربة الشعرية بكل انفتاحها. فقد كنت أقرأ الشعر القديم كما كنت أقرأ الشعر الحديث. قرأت لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل وخليل مطران وإلياس أبو شبكة وبشارة الخوري وصلاح لبكي وغيرهم من الشعراء اللبنانيين، كما قرأت، كما قلت آنفاً، محمد مهدي الجواهري وعلي الشرقي. ثم عندما انطلقت التجربة الشعرية في تطوير شكل الشعر على ما يسمى بالشعر الحر في الخمسينات... عندما انطلقت تجربة نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتي وكل هذا الجيل الشاعري الذي لا يزال يتحرك في هذا الاتجاه كنت أتابع التجربة. وقد شاركت في عدة

تجارب في الشعر الحر. وكتبت في الشعر الحر عدة تجارب منشورة في كتاب «قصائد للإسلامِ والحياة» لأنني لا أومن بأن على الشعر أن يتجمد في الأوزان التي جرّبها الشعراء الأقدمون لأنهم كانوا ينطلقون في مسألة الوزن من موسيقى معينة عاشت في تجربتهم الشعرية. ويمكن للشعراء الآخرين أن يستحدثوا أوزاناً جديدة ولكنني أتصور أن من الضرورة للشعر أن تبقى له موسيقاه. ولذلك فإنني لا أفهم مسألة الشعر المنثور. إنه مجرد حالة نثرية قد تحمل صوراً فنية مبدعة ولكن من الصعب أن نعطيها اسم الشعر في ما هو المفهوم العربي للشعر. لأن مسألة الموسيقى الشعرية أساسية في مسألة الموسيقى الشعرية أساسية في مسألة الشعر. وقد أجد أن التجارب الشعرية الأخيرة في الأسلوب الجديد الذي ينطلق فيه الشعراء قد تحمل الكثير من الابداع في الصورة وفي التعبير ولكنها تمثل حالة من الغموض الذي يمنع القارئ الذي يحمل ثقافة متوسطة من أن يتفهم مضمون الفكرية الشعرية. إِن الشعر الحديث الذي يعيش الشعراء تجربته الآن قد ابتعد عن الوضوح.

الشّعر بين الوضوح والإِبداع:

وعندما أتحدث عن الوضوح لا أتحدث عن الوضوح في الصورة الشعرية وعن البساطة. إنني أعتبر أن الفن لا بد أن يحمل تركيباً فنياً في الصورة وفي الأسلوب وفي الكلمة، ولكنه لا بد أن يعيش كل هذه العملية الفنية في إطار من الوضوح. وهذا ما يسمى بحسب التعابير الأدبية السهل ـ الممتنع. فأنت تجد سهولة في الفهم ولكنك تشعر بأن هذه الفكرة التي تستطيع أن تتمثلها بوضوح ليست بسيطة باعتبار العناصر الفنية الأساسية التي تختزنها. لذلك فإنني أتصور أن الشعراء المحدثين الذين لا نستطيع أن نغفل مستواهم الشعري في بعض التجارب استطاعوا أن يجعلوا شعرهم شعر النخبة. ولا أريد أن أقول أن الشعر يمثل حالة شعبية. ولكن الشعر هو الطريقة الجدية في التعبير التي تطل على واقع الناس الذين يملكون قدراً معيناً من

الوعي ومن الفهم بحيث يجد الناس في التجارب الشعرية صوت حياتهم وآفاق حياتهم. وهذا ما نلاحظه في أن الشعراء الأقدمين الذين نقرأهم مثل المتنبي وأبي تمام والبحتري وأمثالهم نجد أنهم في تجاربهم الشعرية قد ارتفعوا إلى مستوى عالٍ من الإبداع الفني. ولكنك تشعر بأن شعرهم يترنم به كل الناس، حتى الذين هم أشباه الأميين، يفهمونه بطريقتهم، ويفهمه المثقفون كل بحسبِ مستواه الثقافي. لهذا ليس معنى الدعوة إلى الوضوح البساطة والسهولة بل أن العاديّة يكون الشعر حالة فنية شاملة. ولكن الشاعر الشاعر هو الذي يستطيع أن يجمع بين الوضوح وبين الإبداع.

■ **كيف واكبتَ حركة الشّعر الحُرّ ومتى؟**

عندما بدأت حركة الشعر الحر، كنت من أوائل الذين كتبوا الشعر الحُرّ في النجف، وكنت في ذلك الوقت أتابع نازك الملائكة.

■ **سبقتها أم سبقتكَ؟**

لا.. سبقتني وبدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي، وهكذا كنت مع مجلة الآداب، بدأت معها في أوائل الخمسينات عندما بدأت، وكنتُ أدمِنُ قراءَتَها، وكنت أتابع حركة الشعر الحر وحركة القصة فيها وحركة الرواية.. ولذلك عشت مع كل هذه الألوان المعرفيّة الأدبيّة.

■ **إنك هكذا تترنّح بين العبثية والرومانسية، إحساسك أين كان؟**

كان إحساسي هو إحساس التطلعيَّة للجديد

■ **مجرّد اتجاه تقني إذاً؟**

لا، الجديد في التطلع للمضمون، كنت أريد أن أحس بنفسي في العصر، كنت لا أريد عيش التقليدية التي كانت البيئة تفرضها علي، كنت أريد أن أعيش في العصر دون فقد الأصالة.

المحور العاشر

الشَّكل والمضمون الشِّعريان عند سماحةِ السّيد فضل اللّه (الإتباعيّة والإبداع)

"عندما نلتقي بالفكرة الشعريّة فمن الطبيعي ان الفكرة عندما تكون شاعرة. لا بدَّ أن تعيش في النطاق الفني الذي تتحرَّك فيه اللفتة والإِيماءَة والإِيحاء والموسيقى...".

محمد حسين فضل اللّه

استيحاء الشكل الشعري في الشكل الموسيقي

▪ هل أن الشعر في أزمة وهو يتردد بين الحداثة الخجولة التي ترزح تحت كثير من الضعف وتفتح مجال بين القصيدة العامودية التي ما زالت تفرض نفسها وبالتالي هي قضية أسلوب ونمط في الكتابة أم قضية تجربة وفكرة ومضمون؟

من الطبيعي أنه عندما نتحدث عن الشعر فإننا لا نشعر بأية قداسة لأي شكل من أشكال التجربة الشعرية الَّتي جاءَ بها شاعر من خلال ما يختزنه في داخل نفسه من هذه الموسيقى المتنوعة في حركة عامود الشعر ثم انطلق الشعراء بعد ذلك على هذا المنوال. ونحن لا نملك أي تاريخ للبداية الشعرية حتى نستطيع أن نعرف كيف انطلقت القصيدة الأولى.

أن الشعر يمثل شكلاً موسقاً من أشكال التعبير ومن الطبيعي أنه عندما نتحدث عن الجانب التعبيري في الشعر لا بد أن نلتقي بالفكرة التي هي المضمون لهذا الشعر وعندما نلتقي بالفكرة فمن الطبيعي أن الفكرة عندما تكون شاعرة، لا بد أن تعيش في النطاق الفني الذي تتحرك فيه اللفتة، والإيماءة والإيحاء والموسيقى الفكرية التي تعبر عن الإحساس الشعري بحث تلتقي موسيقى الشكل مع موسيقى المضمون. لهذا هنالك فرق بين أن تكتب الشعر وبين أن تكتب النثر، فقد نستطيع بالنثر أن نتحدث عن أي شيء من أشياء الفكر، حتى تلك التي لا تملك عنصر الإثارة، في الموسيقى التشكيلية في الشعر.

موسيقى الفكرة:

لذلك فنحن نستطيع أن نقول إن الموسيقى أساسية في الشعر ولا تكفي الموسيقية الفنية

للفكرة. وبهذا كنا نقول دائماً عن كل التجارب النثرية التي اعتبرت شعراً منثوراً إنه من الصعب أن نطلق عليه اسم الشعر، باعتبار أننا لا نستطيع عندما نسمعها، أن نسمع تغريد البلابل وخرير المياه وأنغام الشلال وحفيف الاوراق ولهذا كانت التجربة تحمل عنصر الإبداع. ونحن نؤمن بأننا نستطيع أن نطور الشكل الشعري، في تجارب متعددة على مستوى حركة التفعيلة بشرط أن نحتفظ بجانب الموسيقى، كل تجربة في أي شكل من أشكال حركة التفعيلة أمر جدي وتفرضه طبيعة التطور في الموسيقى الداخلية التي يتأثر بها الإنسان في حركة الشعر.

التفعيلات الموسيقية الشِّعرية:

أننا نستطيع أن نقول أنه من الممكن أن نستوحي الشكل الشعري من شكل الموسيقى. أن ننطلق إلى كل التراث الموسيقي أي أن ننطلق من التفعيلات الموسيقية ونحولها إلى تفعيلات شعرية، بالطريقة التي تأخذ من تطور الفن في وسائل التعبير، نأخذ منه الأساليب الحديثة في طبيعة اختزان الكلمة للفكرة من خلال تطوير الاستعارة والكناية والمجاز ولكن بشرط واحد هو أن يبقى الوضوح في الشعر لا أقصد الوضوح هنا للإنسان العادي، الذي لا يملك ثقافة أدبية. ولكن أقول الوضوح للإنسان المثقف الأديب الذي يفهم الإيحاء والإيماءة واللفتة الفنيّة الإبداعية. إن مشكلتنا في كثير من التجارب الشعرية الحديثة هي أن على الإنسان أن يعتصر كل فكرة ليتعرف بكل ما يملكه من ثروة أدبية، ويعبر إلى الجسر الذي يربط بين المعنى اللغوي، وبين الفكرة التي يفكر بها الشاعر. إنني أتصور أن الشعر الحر، هو الذي يستطيع أن يعطي الإنسان البسيط المتوسط الثقافة بعض التجربة، ويعطي الإنسان العالي الثقافة بعض التجربة. لقد قال المتنبي شعراً، ولا نزال ندرس شعر المتنبي في الجامعات، ولا نزال نتمثل بشعره في المجالات الشعرية، ويبقى شعر المتنبي في درجته الرفيعة التي استطاعت أن تعطي الجو العام موسيقاها وفكرتها، واستطاعت أن تحتفظ للمثقفين بكثير من الفن والإبداع، الذي يستطيعون أن يكتبوا

فيها مجلدات.

وإنني أستحضر بيتاً من الشعر يقول فيه صاحبه:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس جديراً أن يقال له شعرُ

الشِّعر هو في هذه الهزة الشعوريّة التني تنتابك عند سماعِهِ.

■ **هل تأثرت في مطلع شبابك بشعر المتنبي؟**

الواقع لم أتأثر بشاعر معين، لقد تأثرت بالمتنبي، والبحتري كما تأثرت بالمحدثين أمثال الجواهري والأخطل الصغير.

الإبداع الشِّعري والأَدبي:

■ **للإبداع علاقة وثيقة بتاريخ الحريات في الحضارة الإنسانية، أترى ثمة إبداع في ظل غياب الحريّة، العنصر الأساس لتفجير الطاقات وصقلها؟**

اختلف مع هذا الإطلاق، فالكبت والقيود كما أتصور ينتجان شعراً أعمق من التجربة المعاشة في أجواء الحريات، فمن شأنهما جعل الإنسان يختزن الإحساس بحيث تتفجر كل هذه الينابيع المكبوتة داخل نفسه لتخلق منه عالماً رائعاً من الأحاسيس والمشاعر وبطريقة مختلفة جداً. ونعرف أن الشعر يعتمد الإيماء والغموض، ففي دراساتنا للشعر العربي في تاريخ الأدب، كنّا نقرأ أشعاراً غزلية مكشوفة لعلماء فقهاء، وقد نجد هناك من عبّر عن القلق الفكري في القضايا العقائدية والاجتماعية ـ كما في الزندقة ـ وما إلى ذلك.

لذلك لا أتصور أن هذا الكبت في الواقع العربي منع أو يمنع الشعراء من أن ينالوا حرياتهم في التعبير عما ينتابهم وعما يرونه من أمور وبطريقة مكشوفة، ومجتمعاتنا العربية كانت تتقبل هذه التجارب، حتى المتدينة منها، كانت تقبل على شعر عالم فقيه مثل السيد محمد

سعيد الحبوبي (من كبار الشعراء) وهو يصف الخمرة، وكأنه عاش تجربة حيّة، حتى أن بعض الشعراء اللبنانيين لم يصدقوا قدرته البارعة في وصف مشاعره برهافة جمالية مميزة عندما علموا أنه لم يعشها فعلاً في واقعه. تماماً كما نجد الشعر الصوفي، عندما يفرض الشاعر نفسه حبيباً لله في أسلوب لا يقبله المنطق، وهناك شعر عرفاني يتحدث بأساليب يخجل منها الإنسان أحياناً، لما يجده فيها من تعابير توحي بالابتعاد عن هذا الخط.

ولعل من يقرأ شعر الإمام الخميني (رض) يجد أسلوباً تعبيرياً يقف أمامه مذهولاً بهذا الشخص العارف الذي يتحدث عن الخمر والحانة.. لكنَّها جميعاً تنطلق على سبيل الاستعارة والتشبيه من خلال عمق تأثير هذه الأمور في النفس الإنسانية، للتعبير عن الشوق الذي يحاول التعبير عن داخله، وكأنه يشتهي الخمرة، فيتخيل ما يتخيله في شعر، وتساعد التعابير اللغوية وقدرته الإبداعية على ذلك.

■ لكن يؤخذ على العلماء هذه الجرأة في التعبير عن تجارب محرّمة وإن لم يعيشوها فعلاً؟

يتحدثون عن هذه المسألة في ما يتصل بالمحرمات.. لكن الشعر العربي يملك ما يملكه من الاستعارات البيانية والمجازات اللغوية، وما يمكّن الشاعر استيحاء المعنوي من المادي، والرمز إلى مشاعر وقضايا يعيشها الإنسان، فالمحرّم يبقى في الدائرة العملية من الفعل، ولكن العلماء الشعراء كانوا يرون أن مثل هذه التجارب الشعرية أو الحديث عن القصص المكشوفة خدمة للناس الذين يعيشون للتعبير عما ينتابهم من غرائز وإثارة، لم يملكوا القدرة على ممارستها.. وربما كانوا يفلسفون ذلك.. ولكن مجتمعاتهم كانت تتعامل مع هذا الأدب المكشوف بطريقة لا تتقبلها مجتمعاتنا الدينية التقليدية الحالية، وحتى غير التقليدية أو الدينية، مما يدل على أن العلماء الأدباء متقدمون علينا في مسألة التعابير الأدبية الجريئة والحرة. وهذه حرية أيضاً.. وربما يتدخل علماء النفس للنفاذ إلى داخل هؤلاء ليرجعوا إلى عقد وما شابه من حالات

الكبت، ولكننا نتحدث عن التجربة الشعرية، وليس التجربة فعلاً ومعايشتها بالضرورة.

التّقليد والاتباعيّة والإبداع:

■ **أود أن أتحدث هنا عن الاتباعية في شعرك: أن يأخذ الشاعر فكرة قديمة فيعيد نظمها. أو لنقل أن يلجأ الشاعر إلى الإحتذاء والنسج على منوال الآخر، أين هو الإبداع في هذا السياق، ما دام أن التراث يحضر كنقطة ثابتة يدور حولها الشعراء؟**

هناك فارق بين أن ينطلق التراث ليعلِّبك وبين أن يتحرّك التراث ليكون نقطة انطلاق، وليتدخل شعورياً أو لا شعورياً في أجوائك الثقافية. نحن نعرف أن كل التجارّب الشعرية في العالم، سواء في الشعر العربي أم الشعر الفارسي أم الشعر الأوروبي. لم ينطلق الشعراء منها– حتى الشعراء المبدعون– من التمرد على الشكل بل كانوا اتباعيين في الشكل إذا صح التعبير قد لا تكون الاتباعية حالة من التقليد، ولكن الاتباعية كانت تمثل حالة ذهنية وأدبية وفي الواقع الأدبي لا يشعر الإنسان بأنها يمكن أن تجمده أو تحجزه عن الإبداع لذلك قد يمارس الإنسان التجربة، التي مارسها الآخرون في الشكل،لأنه لا يشعر بأنها تتخلف عن حركة الإبداع الفني، ولذلك لا يشعر بالحاجة إلى تغييرها ومع ذلك نجد أن الاتباعية إذا صح التعبير –التي عاشها الشعراء الأوروبيون أو الشعراء الفارسيون أو الشعراء العرب –لم تمنعهم من الإبداع. لأن مسألة الشكل ليست هي المسألة التي تمثل التطور المطلق للقصيدة، باعتبار إن حركة تطوير الشكل للقصيدة، تنطلق من إحساس الإنسان بأن القصيدة في أوزانها التقليدية قد تفرض ذلك وقد تفرض عليه فكرة لا يريد أن يوحي بها، باعتبار أن إيحاءات التغيير تفرض ذلك، بينما يملك الإنسان الحرية عندما يقلّب التفعيلات أو عندما يتحرر من الموسيقى: كما في التجربة النثرية ــ إذا صح التعبير ــ ولكنك في الوقت، الذي تتحرر فيه من هذه السلبيات، فإنك لا تجد في الوقت نفسه في التجربة الشعرية الجديدة الانفتاح المطلق، الذي يتخفف من

السلبيات الفنية فإنك إذا استطعت أن تتجاوز القافية هنا، فإن التفعيلة لا تزال تحاصرك، وإذا كنت تتجاوز التفعيلة في نوتتها الموسيقية، لتتحرك مع قصيدة النثر، فإنك تفقد الموسيقى.

إذاً، ليست عندنا تجربة فنية في المطلق، التجربة الفنية في الشكل تخضع لضوابط تجعل الحدود هنا يعطيك نقلة نوعية. ولكن الحدود، التي وضعتها هناك، يمكن أن تجمد تجربتك الإبداعية بعض الشيء. عندما تتفق أن لا مطلق في المسألة التعبيرية، فلا بد لنا عند ذلك أن نقوم بعملية موازنة ومقارنة دائماً، بينَ نقاط الضعف في التجربة هنا ونقاط الضعف في التجربة هناك.

هناك ذهنية تقول إنه لا بد للإنسان أن يتمرد على الماضي. لأن روحية التمرد توحي بالإبداع. ولكنني أخشى في بعض حركة هذه الذهنية أن تعيش التمرد، لتعتبر أَنه هو قيمة في الذات، بعيداً عن النتائج التي يتحرّك فيها التمرد. لذلك فإن ما سمّيته بالاتباعية لا أتصور أنه يبعد الإنسان عن الإبداع في التجربة الشعرية.

مآخذ سماحة السيّد على بعض ما في الشعر العربي:

إن النقد الذي يوجه إلى القصيدة العمودية، التي لا ألتزمها دائماً أنا ولا أعتبرها من المقدسات، يوجه إليها النقد من خلال بعض التجارب الشعرية، وهو قد يكون نقداً للتجربة الخاصة نفسها، وليس نقداً للخط الذي تتحرك فيه التجربة. فنحن نعتبر أن الشاعر الشاعر يستطيع أن يسيطر على الشكل التعبيري، فلا يوحي بما لا يريد.

إن المسألة تعود إلى أن التجربة هي تجربة الشكل. لذلك فإنك عندما تقرأ التجربة الشعرية التقليدية في الشكل، تجد أن هناك تجارب رائعة فرضت نفسها على الزمن. واستطاعت أن تحفر عمقاً في شخصية الإنسان. بحيث تحوّلت إلى جو داخلي يعيشه الإنسان في عفويته وبساطته. وهذا ما نلاحظه في عمق تجربة «شكسبير» لدى الإنكليز، أو لدى الشعوب الأوروبية

أو «لامارتين» بالنسبة إلى الفرنسيين، أو المتنبي بالنسبة إلى العرب، فإنك قد تجد هناك تجارب رائعة في الوقت الذي قد تجد فيه تجارب فاشلة.

الحداثة في الشعر:

وهكذا عندما نلاحظ في الشعر الحديث، أنه بمختلف تجاربه، التي بلغت الآلاف أو أكثر من ذلك، أنك لا تستطيع أن تتوقف عند أكثر هذه التجارب، بل لا بد لك أن تشعر بأن عليك أن تتوقف عند صلاح عبد المنصور، بدر شاكر السياب أو عند بعض الأسماء التي تشعر بأن هناك حساً شاعرياً عميقاً وأفقاً واسعاً ولفتة إيحائية، تعيش في داخل الذات، ولكنك لا تستطيع أن تتوقف ولو للحظة أمام الكثير من التجارب الشكلية.

لذلك نقول: إن الشكل قد يعطينا إنطلاقة جديدة، ونحن لا نعتبر أن الشكلية التقليدية هي حالة مقدسة ولكننا نقول: إن الحديث عن القصيدة العمودية كتجربة إيقاعية تقليدية توحي للإنسان بالشعور بالقدم وبالماضي وبعدم الانفتاح على الحاضر، وإن ذلك قد لا يكون دقيقاً في الحساب الفني.

الثقافة والشّعر:

▪ لنسأل عن الأصل. هل هو كامل حقاً، وهل يستحيل الإتيان بما هو أفضل. وإذا كنا بحاجة إلى التراث من أجل ضرورة فهمه والاستفادة منه. فإن هذا لا يلغي الإبداع، فالإبداع في ذاته هو أصل أيضاً. فالإبداع يتجدّد معناه على إنه فعل النشاط الإنساني، الذي يهدم الراهن المعروف ويولد الجديد. فالحضارة الحية ليست تكويناً واحداً؟. وإنما هي على العكس إعادة تكوين مستمرة. من هنا لا يكون الفعل حضارياً إلاّ إذا كان خلقاً لا تكرار فيه؟

عندما تريد أن تتصور الشعر، فإنك لا بد أن تستحضر في ذهنك الشاعر، في مسألة الإبداع، قبل أن تستحضر الوسائل التي يستفيد منها الشاعر للتنسيق إبداعياً. لأن مسألة

الإبداع في المسألة الفكرية والثقافية، هي مسألة ذهنية وشعورية مسألة تعبيرية، أنت بانفتاحك الواسع على كل المعاني المنثورة في العالم أو كل الأحاسيس، التي تتحسسها عندما تواجه المفردات والجمالات، التي تثير فيك هذه الأحاسيس، ترى أن المسألة هي كيف تتمثل هذه المعاني؟ وكيف تستوحيها وكيف تختزن هذه الأحاسيس وكيف تحركها وتنظمها وتصنع منها فكرة، عندما تملك هذا الانفتاح للثقافي المتنوع، في ما هي الأفكار والإيحاءات والأحاسيس تنطلق لتبحث عن الأدوات، التي تملكها في المسألة التعبيرية، في هذا المجال.

عندما تكون شاعراً فأنت تختار الكلمة من خلال إيحاءاتها. وما تستطيع أن تحملها من الفكر، وتختار الشكل وتختار الموسيقى؛ التي يمكن أن تبعث الاهتزاز في الكلمة لتتكامل مع الاهتزاز، الذي تثيره الإيحاءات من حيث طبيعة الفكرة والإحساس والإيحاءات، التي تثيرها الموسيقى الشعرية. في هذا المجال، الشكل لن يتدخل في عملية الإبداع في العمق إلاّ من خلال أنه يمثل نقلة تتجاوز المألوف. في ما يتمثله الإنسان من الجدّة في وسائل التعبير.

الشِّعر في المضمون:

لأن القضية هي قضية المضمون الذي يعيش في داخل شخصية الشاعر. فهو الذي يعطي للكلمة والشكل حيويتهما وإبداعيتهما، لذلك، فالجانب التعبيري قد يعينك على أن تتحرر في حركة الفكرة والإحساس أكثر، ولكنه لن يكون الأساس الذي يمثل الحالة الحضارية للإبداع، لأننا عشنا كل التاريخ الثقافي في العالم، الذي يمثل الحضارة الثقافية. ولم يكن الشكل هو العنصر الذي تتمثل فيه النقلة الحضارية النوعية في التجربة الشعرية. بل كان المضمون يمثل نسبة كبيرة في هذا المجال.

■ **اللحظة الإبداعية لا تتطابق بالضرورة مع اللحظة التاريخية أو التراثية. بل يمكن أن**

تناقضها. فالفنان لا يقيم في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. من هنا نفهم أن الأثر الفني ليس بالضرورة لحظة الذوق السائد. أنت أين تقيم؟

ليس من الضروري أن تتطابق، ولكن ليس من الضروري أن تتنافر.

■ **بل يمكن..**

عندما نضع القضية في نطاق الإمكانات الجريئة يمكن أن نقول قد تتطابق أو قد تتنافر لأن المسألة هي مسألة الإنسان الحضاري. وعودة إلى سؤالك. أنا لم أقم في الماضي لحظة، كنت أعيش الحاضر، ولكنك عندما تعيش الحاضر المحكوم بالماضي لا شعورياً لا تستطيع أن تتحرر من الماضي. هناك فارق بين أن تختار العيش في الماضي. وبين أن يزحف الماضي إليك، من خلال كل هذا التاريخ، الذي يدخل في رواسبك، وفي بعض المعطيات الثقافية.

تفاعل الحضارات، وامتداد التُّراث:

نحن حاضر يتحرك وينفتح على المستقبل، ولكننا نتاج الماضي.. لذلك، إن أية حضارة تتحرك لا يمكن أن تكون حضارة مفصولة عن جذورها، وهذا هو معنى تفاعل الحضارات وتكامل الحضارات في السير التاريخي (لذلك أنا أرفض أن نطل على الماضي وأن نعيش دائماً في الماضي) ولكنني لا أرفض أن نطل على الماضي. لننظر تأثيراته على الحاضر، ولنحاول أن ننقد بعض مواقعه وبعض تأثيراته. وأنا أنطلق في هذا المجال من الفكرة القرآنية، التي لا تريد للناس أن يتجمدوا في الماضي. لأنها تعتبر الماضي صنع أناس آخرين، ونحن لا نتحمل مسؤولية أولئك. وليس من الضروري أن نتبعهم كماضٍ، إذا لم يحملوا عناصر الحقيقة الخالدة، التي تتجاوز الزمن. والتي لا تتأثر بالزمن. تلك أمّةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتُسألون عمّا كانوايعملون» فلنعمل على تحقيق حركيّة الإبداع في روحيّة ما نحمِلُ من فكرٍ وثقافةٍ وأدب وانطلاقةٍ في رحابِ الحياة.

المحور الحادي عشر

السيِّد العلامة:
فقيه الشُّعراء وشاعر الفقهاء بين رؤيةِ رجل الدِّين و الشِّعر

"لا أعتقدُ أنَّ معنى ان تكونَ علاَّمة دين هو أن تُعلِّبَ عقلك أو تعلِّبَ فكرك وقلبكَ أوكلمتك..."

محمد حسين فضل الله

علاّمة الدّين والشِّعر

معنى رجل الدين:

■ **ألم يكن المشهد سريالياً، رجل دين بين علمانيين من خلال الواقع الذي كنتَ تعيشُه لا سيَّما في مجالات الحوار؟**

لا أعتقد أن معنى أن تكون رجل دين هو أن تعلِّبَ عقلَك أو تعلِّب قلبك أو كلمتك.

أنا لا أفهم أَنْ نُصنِّفَ النَّاسَ رجُلَ دين ورجل دنيا، الدِّين حالة في عقل الذي ينتمي إليه ويؤمن به ويتفاعل معه، كما أن اللاَّدين هو حالة عقلية.

لذلك أنا أعتقد أن مسألة الدين أو اللاَّدين هي فكر يَخْتَارُهُ الإنسان أو يرفضه... أمَّا أن تعلِّبَ نفسك أن تكون رجل دين، أن تتحنّط وأن تنظر للناس وأنت في بُرجٍ عاجيٍّ، فنحن نقرأ عن رسول الله (ص) في سيرته (كان فينا كأحدِنا) حتّى أنه في جلوسه مع أصحابه لم يكن يميزه شيء، فإذا جاء القادم يقول أيُّكُم مُحَمَّد؟ فاتَّفَقَ أَصْحابُه أن يأتوا بحجرٍ ليجلس عليه حتى يتميّز ولا يُرهِقَ الآخَر القادمَ بالسؤال عنه.

فأنا لا أفهم هذا التصنيف الطبقي لرجل الدين، كما لا أفهم فكرة أن رجل الدين لا علاقة له بالسِّياسة، وهو إنسَانٌ كبقيَّةِ النَّاسِ، فما معنى أنك تضطهد إنساناً لتحرمه من أن يكون له رأي.

■ **هو إنسانٌ طبيعيٌّ يعيُش واقعه كبقيّةِ النّاس؟**

أجل إنسان طبيعي، وهناك نقطة أخرى، هو رجل كبقية الناس، رجل اللادين، إذا صحَّ التعبير، أو العلماني، قد يكون طليعياً وقد يكون متخلفاً.

أن يكون علمانياً ليس معنى ذلك أن يكون متقدماً بالمستوى، فرجال الدين كغيرهم، فيهم المخلِصُ، وفيهم المزيّف، والمتخلِّفُ، والواعي، نعم هناك نقطة ينبغي الإشارة إليها: أنْ يُقَالَ إنَّ رجل الدين يحاولُ أنْ يَعطيَ رأيه السياسي قداسة، وبذلك يفرض نفسه على الناس تماماً كما لو كان رأيه دينياً.

كذلك رجل المال يعطي لرأيه السياسي أو موقعه السياسي قداسة اجتماعية أو سياسية، وهكذا رجل العشيرة يفعل ذلك... إن ما يسمى برجل الدين ليس بدعاً من الناس في استغلال منصبه إذا كان يحاول أن يتحرك في خط الاستغلال وأن يفرض نفسه على الآخر.. فأنا أعتبر أنك حين تعي نفسك أستاذاً، فمعنى ذلك أنك بدأت التقهقر، وكلما كنت تلميذاً للحياة أكثر، وتلميذاً للناس أكثر، تكون مالكاً لأعلى الشهادات الجامعية. قد تجلس إلى فلاح أُمِّيٍّ يملك تجربة غنية يمكن أن تكتب فيها كتاباً لا يستطيع أن يبلغ مستواه المنظّرون.

■ **هل ما زلت تلميذاً للحياة التي تغني وتصقل تجربة الإنسان؟**

ما زِلْتُ، إن الفرق بين الإنسان الذي يتتلمذ على الحياة وبين الذين يتتلمذون في الجامعات، أنَّ الأول من خلال تجربته يصنع الفكرة وأيضاً من خلال كل عناصر إحساسه ووعيه وحركته، أما الجامعيون فإنهم يستظهرون الفكرة من خلال أناس جربوا.

ولذلك أنا أحترم جداً الأمثال الشعبية، لأنها تمثّل خلاصة كل التاريخ. من هنا أقول إنك تستطيع أن تقرأ في اليوم أكثر من ألف صفحة عندما تقرأ الناس الذين تلتقيهم، تقرأ تجربتهم، أفكارهم وأساليبهم، حتى أنني كنت أتحدّث بما يشبه النكتة ـ ولكنها لَيْسَت نكتة ـ «أننا نتعلم من أطفالنا». فهناك طرق للأطفال في إقناعك بما يريدون، ويمكن لنا أن نعمل على

تطوير هذه الطرق وهذا الأسلوب لنتعلم منهم كيف نقنع بالأسلوب العاطفي مثلاً، ولكن بطريقة شبابية.

العلاقة بين اللُّغة والدِّين:

■ **أين هي نقطة التقاطع السحرية بين اللُّغةِ والدِّينِ عند السيد محمد حسين فضل الله؟**

من النص الديني تعلمت اللغة، تعلمت حركية اللغة. عندما أقرأ القرآن نصاً أكاديمياً يبدأ الموضوع من أول نقطة لينتهي به إلى آخر نقطة. لقد تعلمت من القرآن أنك عندما تحدث الإنسان عليك أن تنفذ إلى كل عناصر الإحساس والعقل والوعي فيه، وتطل على مستقبله وحاضره، فالقرآن قد يبدأ بموعظة. لينتهي إلى نقد، ليتحرك في خط العلاقات، ولينفتح على قصص العبرة في الماضي.

ليسَ في القرآنِ وحدةُ موضوعٍ، ولكن في القرآن وحدةَ إنسان. لقد نزل القرآن من أجل أن يثري إنسانية الانسان وأن يدخل عقله وعاطفته وغرائزه وحركته وحياته، لتصعد كلها إلى الله.

لأن الله يريد الإنسان كما هو، فإذا أحسن من خلال عناصر الخير فيه التي ينميها، أعطاه ثوابه ومحبته، وإذا أساء فإنَّ الله الذي يعرف كل عمق نقاط الضعف في الإنسان يعطيه مغفرته ومحبته.

(إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات).

إِنَّهُ أحبَّ الذين يخطئون ويكتشفون الخطأ فيتراجعون عنه، لأنه يحب الإنسان الذي يبقى يحدق بنقاط الضعف والقوة في إنسانيته.

■ **العمامة أو «الجبة» ألا ترمز بطريقة أو بأخرى إلى تكبيل المشاعر وتقييد الحركة.**

العمامة هي مجرد زي تقليدي، والمهم ألا يعيش الإنسان في داخل نفسه مقيّد العقل والروح.

■ **ولكنها كزيّ يتخذ صفة الرمز تضفي على رجل الدين رهبة؟**

قد تكون رهبة للآخر. لكنني وأنا في هذا الموقع، وأعتقد أنه موقع تحيط به الكثير من الهالات، لا أستمد شخصيتي من هذا الاعتبار بل أحس بإنسانيتي تتحرك بشكل عفوي جداً، ولذلك أنا لا أشعر بأي قيد يقيد هذه الإنسانية في علاقتي بالناس الآخرين.

أنا أجلس مع الذين يؤمنون بالدين، ومع الذين يكفرون به وأتحدث معهم بشكل جد طبيعي. أنا لا أشعر بوجود حاجز بيني وبين أي إنسان، حتى وإن كنت أختلف معه في الفكر لأنني أعتقد، أنه إذا كان من حقي الاختلاف مع الآخر فلماذا لا يكون للآخر الحق في أن يختلف معي؟!

الإبهار والذّات:

■ **بسيكولوجياً، ألا تتملَّكُكَ أحياناً نزعةُ الإبْهَارِ، إبهار الآخرين؟**

قد يعيش الإنسان بعض نقاط الضعف الإنسانيّة، لقد حاولت أن أعلِّم نفسي شيئاً، أن أعلِّمها أنَّ الإبْهَارَ لا يمكن أن يتجذَّرَ وإنما ينفتح كالبرق الخاطف، ولكن أن تحصل على وعي الناس لك، أن يحمل الناس فكرك، أن ينفعل الناس حتّى يتمثلوا مواعظك، حتى نزواتك، إن معنى ذلك أن تدخل في عمق الناس، وأنا أقرأ دائماً عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام الكلمات التي تجعل الإنسان لا يسقط أمام الإبهار:

(اللهم لا ترفعني في الناس درجة إلاّ حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً

إلاّ أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها) هذا التوازن بين الإبهار الذي ينطلق من خلال عناصر القوة فيك، وبين الوعي لنقاط الضعف في داخلك والتي تقول لك ربما رأى الناس منك شيئاً يجذبهم إليك، ولكن لو أطلع الناس على نقاط ضعفك لفقدت الكثير من هذا الانجذاب، ولذلك تَوَازَنْ...

رجل الدّين/ الزّي:

▪ قبل قليل فهمنا أن رجل الدين بالنسبة لك لا يختلف عن رجل الدنيا، لماذا هذا الزي الخاص؟

إنه جزء من التقاليد، أنا لا أعتبر الزيَّ مقدَّساً، ولكن تماماً كما هو الزيّ الذي أخذناه من الغربِ، إنه أصبح متجذراً، عندما دخل الغرب إلينا تمردنا على أزيائنا التي لم تكن مقدسة، ولكننا درجنا عليها، هناك حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول لبعض أصحابه: (خيرُ لِبَاسِ الزَّمَانِ لِبَاسُ أَهْلِهِ) لَيْسَ هناك قداسة للباس، حتى أننا عندما نقرأ في سيرة النبي (ص)، أنه كان يلبس عمامة حمراء تارةً وبيضاء أخرى، فهذه مسألة تقليدية وليس لها شيء من قداسةِ الدين من قريب أو بعيد.

▪ تلك اللحظة التي اخترت فيها أن تكون رجل دين، لم تكن لحظتك، أنت من بيت ديني وقد عشتَ في النجف، ويفترض أن تعود إلى عيناثا بعمامة؟

أنا من بيت معمّم ــ إن صحّ التعبير ــ ولم أختر العمامة، وإن كنت مزهواً بها، لبستها في سن مبكرة جداً في الثانية عشرة من عمري، ولكن المسألة أنني درجت معها بفعل الجو من جهة، ولم أجد فيها غربة من جهة أخرى.

▪ ألم تتمنَّ في لَحْظَةٍ ما أنْ تَخْلَعَ هذه العمامة وأن تلقيها جانباً؟

من الممكن جداً أن تأتي للإنسان بعض النزوات، ولكني لم أشعر بضغط العمامة علي، لأني لم أعش في الدائرة التقليدية للعمامة، لم تقيِّدْني العمامة، لأني كنت أعيش حرّيتي مع كل الناس وأعيش نفسي، والعمامة بالنسبة لي تمثل خط الإيمان الذي آمنت به، خطّ الإسلام ولا تمَثِّلُ لديَّ شيئاً تقليدياً، لقد عشت حالة القلق النفسي، حيثُ قلتُ:

أنَا مَنْ أنَا أيُّ شيْءٍ أكُــوْنُ ... ومَاذَا وراءَ غدِي المُبْدِعِ؟
أَسِيرُ، ولَكِنْ، وراءَ الضَّبَابِ ... وأَهْفُو، ولكِنْ،إلى أدْمُعِي[1]

ولي قصيدة صوفية:

مَا حَياتِي هُنَــا ونَحْــنُ عَــلى ... الكَوْنِ ظِلاَلٌ سَتَمَّحِي وَتَزُولُ
رَنَّحَتْنِي الغُيوم في هَدأَةِ الفَجْرِ ... فَمَاجَتْ بِنا الرُّبَى والسُّهُــولُ
وَمَضَيْنَــا مَعَ الضَّبَــابِ كَمَا ... يَرْتَعُ فِي وَحْشَةِ المَكَانِ النَّزِيلُ[2]

أنا أعتقد إن الإنسان الذي يعيش غربة الزي هو إنسان لا يعرف كيف ينفتح على الحياة.

■ **إن الناس يقولون في ما تعارفوا عليه في حياتهم هذا شيخ؟**

فليقولوا ذلك.. هذه مسألة تدخل في المصطلحات، والمسألة هي من أنت عقلاً وقلباً وحركة في الناس، أما أن تلبس على طرق مختلفة فهذه تفاصيل.

السياسة والشعر:

■ **أين تجد نفسك أكثر، في السياسة كمفكر ومحلّل أم في الشعر كأديب وفقيه وناقد؟**

الواقع عندما عشت السياسة لم أعشها مهنة، إنما عشتها شعراً، عشتها حيث التقيت

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك ص: ٤٢ (ربّاه).
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للاسلام والحياة، ط٢، دار الملاك ص: ١٥ (صوفيّة شاعر).

الإنسان و أحسست بآلامه واختزنت أحلامه. وعندما انطلقت في الدين تصورت الله في الدين، الرحمن الرحيم اللطيف الذي يعطي الحياة جمالاً ويريد للناس أن يعيشوا جمال الروح في جماله، وجمال الحياة في حياتهم ليتكامل جمال الإنسان في روحه مع جمال الطبيعة في كل سحرها الإلهي.

لذلك أنا لست سياسياً بالمعنى التقليدي لكلمةِ سياسة ولكني أعيش الأجواء السياسية من خلال معنى العدل في السياسة ومن خلال معنى الحرية في السياسة ومن خلال معنى الإنسانية في السياسة.

إنني أتصور الاستكبار العالمي، صورة للقبح بكل ما في القبح من عتمات، وتشويه، ومن مشاعر تثقل روح الإنسان، كما إنني أتصور عالم الحرية في الشعوب عالم الجمال الإنساني الذي أتطلع، أن يعيش الناس فيه ليتكاملوا في بناء الحياة، ويحدّقوا بالشمس ليروا بالشمس إشراقه الإنسانية في كل مشاعرهم وأحاسيسهم، وليكتشفوا من خلال إنسانيتهم معنى الله وبذلك فإنهم لن يختلفوا على الله بل سيتوحدون بالله، عندما يتوحدون من خلال الكون الذي هو خالقه كما هو خالقهم وبالحياة التي يحركها بكل إبداعه كما يحركهم بكل إبداعهم.

■ **أنت شاعر وأديب ومرجع ديني ومرجع سياسي، وواعظ من الطراز الأول. في أي موضوع تصنف نفسك؟**

إنني لم أتصور نفسي أبداً أجلس تحت لقب ضخم لأتفيّأه. أنني أجلس مع نفسي إنساناً، وإنسانيتي هي التي تقودني إلى أكثر من موقع يجسّدها، ليخدم إنسانيته والناس من حوله.

لذلك فأنا لست من الذين يحاولون أن يتحركوا ليقدموا أنفسهم على عربة من الألقاب. إنني أعتبر أن اسمي إذا كان يستطيع أن يختزن مشاعري، فهو أشرف من أي لقب تتحرك به التقاليد.

■ **هذا العطاء الثقافي والشعري والأدبي هو ما نحن بأمس الحاجة إليه؟**

للحياة سمُوها.

■ **ماذا ينقص رجل الدين إذا لم يكن شاعراً وماذا ينقص الشاعر لو لم يتكئ على الدين؟**

لا أعتقد أن الجانب التعبيري هو كل شيء، فربما يكون الإنسان شاعراً من دون أن يكتب بيتاً واحداً من الشعر. وقد يجعله ما يعيشه من الإحساس بالوجود وبالجمال..

وبحركة الحياة وبمعنى الإنسانية، قد يجعله مبدعاً في شاعريته. الشعورية ــ إذا جاوز التعبير ــ أكثر من كتابة الشعر في حد ذاته. وقد يعيش الشاعر آفاقاً من الشعر في تأملاته وتطلعاته وأحاسيسه أكثر مما يكتب.. وقد قرأت لبعض الشعراء الرمزيين: «رُبَّ ورقة يضعها شاعر أمامه ليكتب عليها شعراً فيستعصي عليه الشعر، قد تكون أجمل من أبدع قصيدة ينظمها» وأعتقد أن القصد هو أن هذه الروح الشاعرة تريد أن تنسكب في الورق لكن الحواجز تحول بينها وبينه، هذا القول يعبر عما يختزنه الشاعر من القصائد في داخل شعوره، مما لا يملك أن يعبر عنه بالكلمة.

■ **إذا، يمكن لرجل الدين أن يكون الشاعر ورجل دين بإنسانيته؟**

إن الدين الذين يُحلِّقُ بالإنسان في آفاق المطلق وفي رحاب الله خالق الجمال والطبيعة والإنسان..

إن هذا الدين هو الذي يفجر الشعر في نفسه إذا عاشه الإنسان في آفاقه، ولم يعشه في الدوائر المغلقة التي تحبسه في داخل قمقم لا ينفتح على الهواء.

دور الشعر والثقافة:

■ **كيف ترى العلاقة بين الثقافة التي يعيشها الإنسان والسياسة التي يواكبها؟**

انطلق من التوحيد بين الثقافة والسياسة، لأني أعتبر أن هناك وحدة أساسية في كل عناصر الإنتاج الإنساني. فالسياسة هي حركة الإنسان في الواقع على مستوى الفرد والمجتمع في كل آماله وتطلعاته وأحلامه وقضاياه لذلك كلما تعمقنا في المعنى السياسي والواقع الإنساني أكثر، كلما انفتحنا على عالم رحب من الثقافة والمعرفة، لذا مسألة الثقافة والسياسة والدين هي من الأمور المتداخلة بحسب مفرداتها العضوية وارتباطاتها في ما بينها وبين عناوينها، باعتبار أنها تلتقي مع الإنسان الذي هو مخلوق سياسي وديني وشاعر ومفكر وناقد وباحث ومحلّل.

المحور الثاني عشر

الإلتزام الأدبي والنَّظرة إلى الفنون عند سماحة السيد!

"الإلتزام هو ما يعيشه الإِنسان بحيث تتحرّك قضيّة ما في مشاعره لتتحوّل إلى حالة فنيّة إبداعيّة تناسب فكره ونفسه. تماماً كما هو انسياب الضوء من الشمس والماء من الينبوع.

محمد حسين فضل اللّه

الالتزام في الشِّعر

■ **لفتني في آرائك الأدبية، أنك لا تؤمن بالشعر الملتزم في حين أنك مارست شعراً إسلامياً، مما يعني حتماً شعراً ملتزماً، فأين يصبح الجانب الشعري، وأين تصبح القضية في هذا الشعر؟**

أنا لا أؤمن بأن يُفرَض على الشاعر الالتزام، إنما بأن ينطلق من عفويته الشاعرية وتحسّسه بالفكرة، بالتجربة التي يعيشها ويلتزم بمبادئها، لذلك فعندما كنت أستغرق في تجارب شعرية ملتزمة، فلأني كنت أعيشها، وأحسّ بها فعبرت عنها، ولم أقصد إليها تكلّفاً، على طريقة أنه لا بد لي من التزام الفكر الإسلامي في الشعر كوني عالماً وفقيهاً مسلماً.

فما أقوله أنه ليس من الطبيعي أن نفرض على الشاعر إلتزاماً معيناً، كأن يكتب قصيدة إسلامية لمجرد كونه مسلماً، بينما هو لا يعيش آفاقها وإيحاءاتها. لذا أعتقد أن الشعر فن من الفنون التي لا بد أن تخضع لعفوية الفكرة والصورة والتجربة، وهذا ما يضمن له الانفتاح على الأجواء الشاعرية، معتمداً في ذلك على ما يمتلكه من أدوات فنية، عندها يتحقق الشعري سواء، كان ملتزماً بالقضية أو لم يكن.

شعر الحداثة والشعر الملتزم:

■ **تقول: «لم أقرأ حتى الآن أي شيء يمكن أن يعبر عن العمق الإنساني في المحنة» ألا يعني**

كلامك هذا نسفاً لبعض التجارب الشعرية المتميزة؟

عندما تحدثت عن العمق الإنساني، كنت أتحدث عن جوهر الإنسان الذي يعبر عما يمثل العناصر الحقيقية للإنسانية.

لقد عاش الشعراء تجربة عبروا فيها عن المشاعر والأحاسيس السطحية التي تلامس السطحي في الإنسان ولا تلامس عمقه. ولكن لا يخلو من بعض اللمحات الإنسانية بين تجربة وأخرى.

وأحب أن أؤكد ما قرأته من بعض الترجمات العربية لأشعار «طاغور» وفي بعض أشعار «لامارتين» وفي بعض اللمحات من الشعر العربي. ولكني كنت أبحث عن جوهر الإنسان بحيث إذا تمثلت هذه التجربة، تمثل الإنسان فيها.

■ **لكن قلة من الشعراء المعاصرين تتوصل إلى لمس العمق الإنساني الذي تتكلمون عنه؟**

قلت إن هناك بعض اللمحات، حتى لدى الشعراء المعاصرين، ولا أزعم أنني قرأت كل الشعر المعاصر لأحكم عليه.

ولكن مشكلة الشعر العربي الحديث الذي يعبّر عنه بشعر الحداثة. هي ما يسمى بعلم البلاغة «التعقيد المعنوي» الذي يجعل القارئ يعيش في متاهة الفاصل بين ما هو معنى اللفظ في اللغة. وبين ما يختزنه الشاعر من معنى، لأنه يمر بالكثير من اللوازم التي تتبع بعضها بعضاً، بحيث قد يتعسر على الذي لا يعرف اصطلاحات الشاعر أن يفهم مقصوده.

ونحن نعرف أن الشعر يمثل حركة الإحساس في الإنسان، في تمثّلاته الفكرية والتجريبيّة، ولا يكون مجرد رموز لحالات وتعقيدات.

■ **ربما كانت ذات الشاعر تحمل هذه التعقيدات، فالشاعر بطبيعة الحال إنسان يعيش فوضى حواس ومشاعر حياة؟**

حتى هذه الفوضى يحتاج إلى صيغة فنية يمكن أن يفهمها القارئ، لا أن يقضي القارئ وقتاً طويلاً لإيجاد الرابط بين الكلمة وبين المعنى في قلب الشاعر.

■ **هل تعتقد أن عصرنا الحالي معقّد بعض الشيء، وقد يحتاج إلى عصر ينسجم مع إيقاعه؟**

أنا لا أتصور أن العصر هو عصر معقد، بل إنه يتطور نحو البساطة.

■ **كيف يتطوّر هذا العصر باتجاه البساطة سماحة السيِّد؟**

البساطة التي تجعل الإنسان يتجاوز الكثير من التعقيدات الاجتماعية التي كان يتمثلها الإنسان في الماضي، والقيود التي تحكم العلاقات بين إنسان آخر في وسائل العيش أو وسائل الاتصال والتقنيات لهذا فإن العصر أصبح يتحرك نحو البساطة في العلاقات الإنسانية .

■ **ألا تعتقدون سماحة السيد أن القيود أحياناً تكبّل الإنسان، لكنها تنظمه بعض الشيء ولو جاءت بالإكراه، بينما الإنسان الذي يتمتع بمساحة في الحرية _ مهما كان حجمها- يضيع ويتوه؟**

عندما نتحدث عن حرية، لا نتحدث عن حرية إنسانية، وهي الحرية التي تلتقي لصالح الإنسان وقضاياه الحيوية في الحياة. من الطبيعي إن الحرية في هذا الإطار، تمثل الحالة الحركية في الحياة حيث لا بد من أن تخضع لبعض الضوابط.

■ **ما مفهومك للشعر الملتزم؟ وهل له معايير عامة برأيك؟**

الشعر الملتزم هو الشعر الذي يعبّر عن قضية ومشاعر وواقع، والالتزام عن شيء يتكلفه الإنسان، وإلا لما كان الفن فناً.

الالتزام هو ما يعيشه الإنسان بحيث تتحرك قضية في مشاعره لتتحول إلى حالة فنية إبداعيّة تناسب فكره ونفسه، تماماً كما هو انسياب الضوء من الشمس والماء من الينبوع.

لا أتصور الالتزام في أن يفرض على الشاعر شيء منه، فالشاعر إنسان كأي إنسان آخر لا بد من أن يلتزم الحياة، وقد يلتزم في عيشه للحياة الدين وقد لا يلتزم الدِّين نهجاً قياسياً، وقد لا يفعل، وقد يلتزم الحرية وقد يلتزم الجمال...

لهذا فإن الالتزام ليس مسألة عيش خارج نطاق الإنسان.. بمعنى لكي تكون فنَّاناً لا بد أن يكون لك موقف مما تنفتح الحياة عليه أو تتنوع فيه، ولذلك فلا بد أن يكون الفن تعبيراً عن التزامك الذي هو تعبير عن إنسانيتك المسؤولة في الحياة.

وعندما يتنوّع مضمون الالتزام بين السلبي و الإيجابي لا بد من أن يكون لنا موقف في هذا الالتزام وفي القبول به تبعاً لإلتزامنا. ولكن الشعر يبقى شعراً حتى لو كنت مرتاحاً لمضمونه من الناحية الفكرية.

■ ولكن ثمة من يقول إنه في مواجهة سؤال. إنّ التزام الشعر لا يدمن مغامرة فكرية مستقلة يقام بها لذاتها ليكون الشعر أكثر إبداعاً؟

علينا أن نحدد ما هو الالتزام. الالتزام هو تطلعات الإنسان إلى أهدافه، نظرته إلى الواقع وتفاعله معه ومع الحياة، مع الخطوط الفكرية ومع القضايا المصيرية. لذلك فإن مسألة أن تكون مسؤولاً هي أن يكون ثمة مضمون لحركة إنسانيتك في الواقع أو في الإنسان الآخر. ولهذا فإن الالتزام يختلف حسب اختلاف الأفق الذي يعيشه الإنسان والتجربة التي يتمثلها.

■ وهنا، ربما، تكمن أهمية الشعر الذي يميز شاعراً عن آخر؟

الشعر هو مرآة نفس الشاعر.. إنه مرآة الشاعر في تأملاته وفي تجاربه، لذلك من الطبيعي إننا نتحدث عن الشاعر الذي يعيش شعره، لا الشاعر الذي يتكلف شعره، بحيث يتحول إلى نظّام

لما يريده الآخرون أو لما يتحرك به الواقع من حوله من دون أن يلامس حسه.

■ **ما معنى أن يقوم رجل الدين صاحب المؤلفات المتميزة وهو المرجع الديني والروحي والسياسي. على أعتاب العقد السابع من العمر (64 سنة)، بالإعلان عن ذاته من خلال قصائد كتب بعضها في مقتبل العمر. هل يعني ذلك أن الإعلان عن الذات بالشعر هو خصوصية لا يمنحها «الديني» أو السياسي؟**

لا أؤمن بتعليب الإنسان في الموقع الذي يعيش فيه. أن يكون الإنسان مرجعاً أو ذا موقع رسمي أو اجتماعي أو سياسي لا يعني أن يعلب بحيث يضغط الموقع على إنسانيته.

من الطبيعي أن يعبّر الإنسان عن أحاسيسه، لأن أي موقع يتخذه هو حركة في تطورات حياته. ولهذا من الطبيعي أن يعبر عن نفسه بالشعر أو بالقطعة الأدبية النثرية أو بالخطابة.. ربما كانت التقاليد تفرض على الإنسان في موقع ديني مميز أن يظهر على الناس من خلال الهالة.

أنا أرفضُ الهالة التي يمكن أن تُحاط بالذات لأنني أحب في كل مراحل حياتي منذ الطفولة وحتى الكهولة أن أعيش نفسي. لأنني لا أحب أن أكون مرائياً، ولا أحب أن أبرز إلى الناس من خلال كل هذه الجدران السميكة التي تفصل الناس عما أعيشه وأتطلع إليه.

إنني لا أعتقد أن التزامي الديني يبعدني عن الإلتزام الإنساني، وأن موقعي المرجعي يبعدني عن التزامي بالحياة وبالناس لأعيش كأي واحد منهم. ونحن نقرأ في حياة النبي محمد (ص) في ما ينقله بعض أصحابه عنه إنه كانت لديه هذه النظرة الإنسانية التي كان يعيشها ويتحرك بها مع الناس، وُيْقَرأُ كذلك عنه في القرآن الكريم:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

لقد كان النبي يتحدث ويتحرك مع الناس بكل عفويته وتواضعه، لذلك كان الناس يتحركون معه بطريقة قد لا تتناسب مع موقعه، فقد كان بعضهم يأتي إلى خارج بيته ويخاطبه بصوت عال: «يا محمد»، حتى نزلت الآية:

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»، باعتبار أن عفويته وتواضعه، يجعلان الناس لا يشعرون بوجود حاجز بينه وبينهم. حتى أننا نقرأ في بعض سيرته أنه كان يحطم الحواجز التي يتصور الناس وجودها بينهم وبينه. فقد شاهدته امرأة فارتعدت من هيبته فقال لها: «لا عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة».

فلكي يبسّط العلاقة بينهما قال لها أنت كأمي ليس هناك حاجز بيني وبينك. كان يسعى إلى أن يؤنسن العلاقات بحيث لا يشعر الناس بوجود أي حاجز بينه وبينهم ليكلموه بصراحة ويسألوه بصراحة من دون أن يتمثلوا المواقع ليكون الموقع حاجزاً بين الطرفين.

ولذلك أعتقد أن التقاليد التي وضعت للإبتعاد عن اللقاء بالناس بطريقة عفوية إنسانية. ابتعدوا من خلالها عن أن يفهموا الناس أو أن يفهمهم الناس بشكل دقيق.

■ أنت لا تعيش في شخصيتين يقتضيهما الشِّعر والدِّين؟

أنا لا أحب أن أعيش في شخصيتين، شخصية باطنية وأخرى خارجية. ولا أريد أن أكون مزدوج الشخصية انطلق إلى الناس بوجهين أو بلسانين.

أريد أن أكون نفسي ليحكم الناس عليّ سلباً أو إيجاباً من خلال نفسي التي تبرز أمامهم بطريقة فيها الكثير من وضوح الرؤية.

المحور الثالث عشر

الحُبّ: الحياة / والموت
في التجربة الإنسانيّة عند سماحةِ السيِّد...

"إنَّ الحُبَّ يختزن شيئاً من الموت من حيث أنَّهُ يعطي كلّ الحياة. حيث لا يحسّ الإنسان وهو يحبّ باختياريّة في مشاعره وأحاسيسه تجاه حياته"

محمد حسين فضل اللّه

السيّد محمد حسين فضل الله و«الحبّ»

نحن نحب ولكن لو فكرنا في الحب نحن لا نحب الأخر؛ نحن نحبّ ما نفكر فيه بالأخر، فعندما نحب الجميل؛ نحن لا نحب الذات ولكن نحب الجمال في الجميل لأن الجمال يمثل قيمة عندنا.

ومن هنا؛ فإننا من خلال ارتباطنا بهذه القيمة؛ نرتبط بمن تتجسد فيه هذه القيمة.

وهكذا عندما تحب المخلص والامين؛ أنت تحب الأخلاص والأمانة اللتان هما قيمتان في نفسك؛ وهكذا عندما تبغض أو لا تتعاطف مع القبيح؛ فلأنك تعتبر القبح قيمة سلبيّة، ولا تتعاطف مع الخائن لأنك تعتبر الخيانة قيمة سلبية... لذلك عندما نحب أو عندما نبغض ؛ فإننا نحب في أنفسنا فيمن نحب ونبغض فيها فيمن نبغض... لأن العاطفة ليست شيئاً يفرض نفسه علينا؛ بل هو شيء يولد مع ولادة مفاهيمنا التي نصنعها أو نرثها أو نتأثر بها هنا وهناك.

وهناك عاطفة تتحرك دائماً في خط الصلاح. وعندما تتفتح هذه العاطفة على القيمة الطيبة في الإنسان؛ فإنها تكون صلاحاً؛ لأن الطيبين والمخلصين في الحياة؛ الذين يعيشون روحية العطاء في الحياة؛ هؤلاء عندما تمنحهم عاطفة؛ فإنك تستطيع أن تمنحهم حباً وقوة من خلال هذا الحب؛ لأن الإنسان في انسانيته يقوى بعاطفة الآخرين، تماماً كما يضعف أمام العاطفة اللامبالية التي يوجهها اليه الآخرون.

فنحن مسؤوليتنا الحب، حب الذين يعطون الحياة حباً من مشاعرهم وطاقاتهم ومن جهدهم ومن حركتهم ومن كل ما عندهم من علم... إننا بذلك نقوّي مواقعهم والعكس صحيح، إننا نضعف هؤلاء إذا واجهناهم مواجهة اللامبالاة ولم نعطهم كلمة حب، أو عاطفة شعور ولم «نفضفض» لهم عما في أنفسنا من مشاكل ولم نتحدث واياهم شتى الأحاديث...

وهكذا؛ عندما نعطي الحب (ولو كان عابراً) لمن لا يستحقه؛ اننا نقوّيه لذلك، للعاطفة صلاحها وفسادها... ونحن نستطيع أن نعقّل أو نحجّم عاطفتنا، ولكن بعض الناس يقولون أننا (لا نملك قلوباً) المسألة ليست صحيحة فالمتنبي يقول:

خلقتُ ألوفاً ولو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلبِ باكياً

علينا أن ندرس داخلنا، أن ننزل الى أنفسنا، لنفهمها جيداً، لأننا في بعض الحالات لا نعرف أن نميِّز بين ما نريد، وما نقدر على فعله...

فقد أقول أَستطيع أن أحب فلاناً ولا أستطيع أن أبغضه، ولا أستطيع مفارقته ولو عرف الإِنسان نفسه لقال «لا أريد ذلك»...

كما نحرك عقولنا، دعونا نحرك عواطفنا، أن نعطي العاطفة جرعة من العقل، ونتعرف كيف نبصر الى الآخر بقلوبنا لا بأعيننا، لأن الغريزة تتحسس والقلب يعي...[١]

---

(١) للانسان والحياة، محور النفس والوجدان، ص: ٢٠٨-٢٨٢.

الحب والموت

■ هل يشبه الحب عندك حالة الموت في مراحله المتسلسلة؟

الحب يمثل هذا الاستغراق الإنساني المطلق في من نحب، بحيث لا يتحسس الإنسان حياته فكأنه يعطي كل حياته كما تعطي الفراشة كل حياتها في محبتها للنور. لذلك يختزن الحب شيئاً من الموت من حيث أنه يعطي كل الحياة، بحيث لا يحس الإنسان وهو يحب باختيارية في مشاعره وأحاسيسه تجاه حياته. إنه يذوب في إحساسه تماماً كما تذوب الفراشة في النور فتفقد ذاتها عنده.

■ في ضوء ذلك ما هو تعريفكم للحب؟

الحب لا يمكن أن يُعرَّف، إنه يعاش. إننا لا نستطيع التعبير عن العطر كما هو حقاً. ولو جئنا بألف قصيدة في وصف العطر لما استطعنا أن نتحسس العطر كما نشمه في الوردة، كذلك هو الحب في ذات الإنسان وروحه.

■ أسألك بطريقة أخرى، ما الأعراض التي تنتابنا عندما نحب؟

إنها هذا التوق الإنساني لما نحب ولمن نحب، بحيث يشعر الإنسان بأن ذاته تحوّلت إلى شيء في الآخر وابتعدت عن شيئيتها في داخله. إنه يعيش في الآخر، يتطلع إليه، يهفو إليه،

تتحرك أحاسيسه في كل معانيه التي يتمثلها في وجدانه.

■ وهل صحيح أن الإنسان الذي يعيش الحب يقترب أكثر من الله؟

عندما يعيش الإنسان الحب، فإنه يقترب من المطلق.

وعندما يقترب من المطلق، فإنه قد يقترب من الله، لأن الإنسان يتمثل الحب في بعض العناصر الموجودة في المحبوب، ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يتمثل هذه العناصر المحدودة في هذا أو ذاك، لا بد له أن يتمثلها في الله المطلق.

إن الذي يتجاوز الجمال المحدود في ذاته، يتجاوز كل العناصر الأخرى التي يحبها الإنسان في الإنسان أمام الله.

ولعل هذا مما خلقه الله في طبيعة الإنسان من عناصر الإحساس بحماية نفسه من الآخر لأنه ليس موجوداً وحده في العالم، بل إن العالم يمثل وجوده ووجود الآخر، ومن هنا لا بد له من أن يعيش وجوده في وجود الآخر بمقدار ما يحمي وجود الآخر بوجوده.

■ وكيف يلعب الدين دوره هنا؟

- إن دور الدين هو أن يقتحم النفس الإنسانية ليخلق فيها هذا النوع من التوازن. وإن من خصوصية الإسلام هو هذا التوازن بين المادة والروح، وبين الفردية والجماعية وبين العقل والغريزة.

لذلك فإن دور الدين هو أن يطهّر الإنسان من القذارات الروحية والمادية التي قد تحوله إلى وحش أو إلى حالة حيوانية وحشية في مواجهة الآخر. إن قيمة الدين في كونه يعمّق في الإنسان إحساسه بإنسانيته في إنسانية الآخر أي يتمثل نفسه في الآخر بحيث يتطلع إلى الآخر في تلك الدائرة التي يتطلع فيها إلى نفسه:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها». وفي حديث

آخر: «يا بنيَّ اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك فأحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها».

■ **تصرّح بفقدان العدالة الإنسانية وإنك لا تجد لها أثراً في حياتنا المعاصرة... إذاً أين نعيش ومن نحن؟!.**

إننا نعيش أنانيتنا الذاتية التي لا تنفتح على الإنسان الآخر بل تحاول أن تضطهده عندما تصطدم عناصر الذات لدينا بعناصر الذات لديه.

لست ضد الإحساس بـ«الأنا» في وجدان الإنسان الفرد لأن «الأنا» هي التي تحركه نحو كل طموحاته وهي التي تقوده إلى الإبداع، وهي التي تحميه من كل ما يمكن أن يعتدي على حياته أو يقتله. إن «الأنا» هي عنصر إيجابي في حياة الإنسان ولكن السلبية في «الأنا» تكمن في عدوانيتها عندما تتحول إلى حالة مغلقة وعندما تحول صاحبها إلى مخلوق يعيش في سجن ذاته بحيث لا يتصور العالم إلا من خلال هذا السجن الشخصي في كل عناصره الشخصية.

لهذا، فإن هذه الذاتية المغلقة أو الأنانية العدوانية هي التي حطمت العدالة في واقعنا الاجتماعي، لأننا أصبحنا نعيش في معاملة «أنا لا الآخر» بدلاً من «أنا والآخر». لكننا لا بد لنا أن نعيش في حياتنا هذا الإرباك الإنساني في مسألة العدالة، لنجرب أن نخفف شيئاً من هذا الظلم ولنعط شيئاً من تجربة العدالة. إن وجود السلبيات في الحياة لا يعني أن نسقط أمامها، فلا بد لنا من أن نقتحمها لنحوّلها إلى إيجابيات، أو لنخفف من تأثيراتها السلبية في الإنسان وفي الواقع.

■ **لكن هل تحتمل الحياة اليوم مزيداً من العدوانية و«الأنوات» الذاتية المغلقة؟**

هناك نقطة تخفف من هذا التأثير السلبي في حركة الوجود وهي أن العدوانية المطلقة ربما

تتحول ضد صاحبها، ولذلك بدأ الإنسان يشعر بأن عليه أن ينظّم حياته مع حياة الآخر الذاتية، لذلك فإن استمرار الحياة عندنا هو في هذه التوازنات بين الذات وبين الذات الأخرى والتي قد تتحول إلى توازنات بين محور دولي ومحور دولي آخر.. وهكذا.

■ **هل تعتقدون أن التجربة الإنسانية عبر التاريخ برهنت على أن الدين استطاع أن يقدم حلولاً للمشاكل الوجودية؟**

لم يستطع الدين تحويل الإنسان إلى ملاك يحلق في المطلق، لكن الدين استطاع أن يضع بعض النماذج التي يتمثل فيها شيء من هذه الملائكية.

ليس الدين أمراً مفروضاً على الإنسان في تكوينه. بل إنه مسألة تتحرك في عقل الإنسان لتصطدم بغرائزه، ولتنفتح على كل ما حوله ومن حوله، وهذا ما جاء في الآية الكريمة: «وما أبرئ نفسي أن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي» لذلك فإن تمثل الإنسان للدين، تجربة صعبة لا بد من أن يواجهها بالكثير من المعاناة، ولذلك اعتبرت أنَّ هذه هي المعاناة النفسانية، التي يربي فيها الإنسان نفسه ليكون مدعياً أو مدعى عليه، ويكون مجاهداً يعيش الشيء وضده. وقد يسقط الإنسان أمام هذا النوع من الصراع النفساني تحت تأثير البيئة والعناصر المحيطة به.

■ **بعد كل ما ذكرتموه سماحة السيد، أسألكم ثانية هل طمست ممارستكم الدينية هويتكم الشعرية؟**

لقد عشت الدين في الهواء الطلق وفي الصحو المبدع، ولذلك عشت الشعر ليتنفس في رحاب الله، ولذلك لم يبتعد إحساسي الشعري عن إحساسي الديني.

■ **هل كتبت بعض القصائد التي أخفيتها وربما بعض منها يتناقض مع مكانتك الدينية؟**

من الطبيعي أن الإنسان يتجدد ويتطور، فأنا في هذه المرحلة من حياتي اختلف عن المرحلة التي عشتها سابقاً.

■ **وهل ثمة بعض خجل من شيء ما في مرحلة عشتها في السابق؟**

أنا لا أخجل مما عشته ولكني قد أخجل مما اعتبره خطأً. أخجل لأني كنت أحب ألا يكون، وقد كان. ولذلك لم أخف هذه الأخطاء بل عرضتها على الناس واعترفت بأنني تطورت وقمت بعملية نقد ذاتي.

■ **ألا تحتفظون سماحة السيد «بورقة توت» ما؟**

من الطبيعي إن هناك من الأمور التي تدخل في حساب الأحاسيس ولا سيما أمام ضعف النفس، مما لا يبديه الإنسان للآخر. وليس من المفروض أن نعيش نقاط الضعف التي يختزنها الإنسان بين وقت وآخر مع الناس، لأنها لا تهم الناس ولا تدخل في مسؤولية الإنسان، إن على الإنسان أن يقدم مما في نفسه للناس... مما يتصل بحياتهم أما الأشياء التي لا تتصل بحياة الناس، مثل إنه يشتهي هذه الأكلة أو تلك، أو ذاك الشراب، أو ينفتح على هذه اللذة أو على تلك الشهوة، فهذه ليست من اهتمامات الناس.

وربما يحتاج الإنسان إلى أن يعيش بعض خصوصياته ليتحسس نفسه في ذاته، لأنه عندما يطرح كل نفسه للناس، فإنه يفقد استقلاله الذاتي، ولذلك يحتاج إلى أن يعيش شيئاً من هذه الاستقلالية.

■ **وكم تدوم لحظات الضعف التي قد تعيشونها؟**

بمقدار ما اكتشف سلبياتها.

■ **ربما تدوم طويلاً؟!**

قد تدوم طويلاً لأن الإنسان ضعيف: «وخلق الإنسان ضعيفاً».

■ **نلاحظ تفاوتاً في مستوى قصائدكم من الناحية الفنية كيف تفسّر هذا التفاوت؟**

من الطبيعي لمن يعيش التجربة الشعرية أن يعيشها في تنوّعٍ من حركة الشعور أو من طبيعة التجربة. فقد تضعف التجربة وقد يتيه الشعور والإحساس في بعض الحالات.. ولهذا من الصعب في دراسة تجربة أي شاعر أو أي أديب أن يجد الإنسان تجاربه متساوية في مستواها الإبداعي.

■ **وهل يحدث هذا التفاوت حتى على الصعيد التقني.. ألا يرتبط العمل «تقنياً» بمعايير ثابتة؟**

كما يعيش الإنسان نقاط ضعفه في ذاته، قد يعيش نقاط ضعفه في فنه. وهذا ما يعبر عنه في بعض الأمثال العربيَّة بالقول، «إن السيف قد ينبو وأن الجواد قد يكبو».

■ **يقال: «بدأ الشعر غريباً وغريباً سيعود الشعر». على الرغم من كل المصالحة التي تعيشها مع ذاتك، هل ما زلت تتحسس طعم الغربة وهل ما زلت تصارعها أم أنك تأكدت من أنها جزء من ذاتك؟**

قد يشعر الإنسان بالغربة عندما يعيش بعض تطلعات أو آفاق أو أحلام لا يجد لها فرصة للتحقيق واقعياً فيشعر بأنه يغرد خارج سربه، أو يعيش خارج موطنه، لأن الموطن ليس أرضاً يعيش الإنسان فيها، ولكنه الأفق الداخلي الذي يعيش في عقله وقلبه وإحساسه وشعوره.

■ **إذاً تعيش الغربة على الرغم من كل الظروف المحيطة؟**

أعيش الكثير من الغربة، والكثير من الأحاسيس التي تنبع من الوجدان الذي يقوم بجولة دائمة في مفردات الواقع.

■ بلا جواز سفر؟

حركة الإنسان في عالم الفكر والإحساس لا تحتاج إلى جواز سفر، لأنها تتجاوز الحدود ولا تعترف بالمواقع الجغرافية.

■ لكنها جولة تبدو باهظة الثمن؟!

من الطبيعي أن يكون كل شيء يدخل في العنصر الإنساني الحيوي غالي الثمن.

■ لمن تقرأ من الشعراء وبمن تأثرت؟

لم أتأثر بشاعر معين على النحو الذي اعتبر نفسي فيه من مدرسته، ولكنني قرأت لأكثر الشعراء في مرحلة الشباب. لقد قرأت مبكراً الأخطل الصغير وأحمد شوقي، ولشعراء لبنانيين مثل الياس أبو شبكة، وقرأت الجواهري ومن الأقدمين المتنبي وأبو تمام والبحتري وسواهم.. وأنا لا أزال معنياً بأن أقرأ كل تجربة شعرية حسب ما يسمح به وقتي الآن.

■ ما هو المشترك بين هؤلاء الذين قرأت لهم؟

لا أظن أن شيئاً مشتركاً بينهم، «فهم في كل واد يهيمون». (يضحك).

■ كشاعر ما مدى علاقتك بسائر الفنون الأخرى كالرسم والموسيقى والغناء؟

لا أملك موهبة الرسم، ولكنني أتفاعل مع الرسم، وكذلك لم أعش تجربة موسيقية لأن

الظروف لم تهيئ لي ذلك، ففي بدايات حياتي كنا نقتدي بالفتوى التي تحرم الموسيقى جملة وتفصيلاً، ولكني في اجتهاداتي أجد أن الموسيقى المحرمة هي التي تثير الغرائز، وتقع النفس فيها بالعنف والقوّة، أما الموسيقى الهادئة والمنفتحة التي تحلق بالإنسان في أجواء الروح فأمر مختلف تماماً.

■ **ما رأيك بأغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم.. ألم تسمعها؟**

لم أعشْ هذه التجربة.. ولم أعرفها بكامل معناها.

■ **كيف يستطيع أمرؤ ما أن يعيش دون صوت العصافير، وصوت فيروز، أو موسيقى موزارت؟**

عندما تعيش إنسانيتك فإنَّكَ تُؤَنْسِنُ حتَّى صوت العصفور، القضية ليست هي أن تسمع صوتاً موسيقياً، وإن كان لذلك دوره في تحريك مشاعر الإنسان، ولكن ليس هو نهاية الموسيقى. فالمسألة أن تعيش موسيقى الداخل وموسيقى الجمال والحياة.

ثُمَّ من قال إننا نحرّم الموسيقى؟ نحن نفتي بأن الموسيقى المرتفعة بالنفس والتي تسمو وتصفو وتنفتح على الحياة ولا تثير الغرائز ولا تدمر الأعصاب هي موسيقى روحية. ونحن لا نتنكَّر للموسيقى الكلاسيكسة، «شوبان»، و «موزارت». ويجب دراسة طبيعة الموسيقى، ومنها مثلاً موسيقى الجاز، وهناك موسيقى تجعل الإنسان يعيش حالة غير طبيعية، حيثُ ننظر الآن إلى كثير من الموسيقيين أو المغنيين، الذين عندما يتحركون بموسيقى عنيفة، نشعر أنهم يتحركون كحالة طوارئ.

وليست المسألة في الكمية بالنسبة للموضوع، ولكن في ما تحمله الكمية من عمق نوعي، أن تكون الحقيقة هي أن النَّاسَ تُحِبُّ ذلِك...

الشعر والفنون:

■ **كيف ترى دور الفنون في تفعيل الثقافة؟ وتحديداً الرسوم والموسيقى؟**

من الطبيعي أن الفنون تمثّل تعبيراً حيّاً عن الفكرة، بالطريقة التي تكتب فيها الفكرة أو ترسمها أو تحركها بطريقة مسرحية أو ما أشبه ذلك، لأن قصة أن تقدّم الفكر للآخر هو أن تعبّر عن هذه الفكرة بالطريقة التي يفهمها، إما من خلال الصورة وإما من خلال الكلمة أو من خلال المشهد والحركة وما يُعبِّرُعن حركيّة الفكر.

■ **هل هناك فنون محرمة بالنسبة للدين؟**

ليس هناك فن يحرّمه الدين إلاّ من خلال ما اشتهر بين العلماء المسلمين من حرمة التماثيل المجسمة لأنهم يتصورون أنها توحي بالصنمية، حيث يمثل التمثال، حتى في ذهنية الفنان النحات عندما يستغرق فيه، حالة عبادة. وربما يتحدّث البعض أن مبدأ الصنمية كان عندما كان الناس يستغرقون في التمثال. ولكن هناك بعض التحفظات الفقهية التي برزت الآن، ومن بينها تحفظاتنا حول التحريم في هذا الموضوع، فإننا نتحفظ في مسألة الحكم بحرمة التماثيل.

أما بالنسبة إلى الفنون الأخرى، فمن الطبيعي أن للإسلام أحكاماً شرعية ترتبط بالجانب الأخلاقي. فمن الطبيعي أن الإسلام يريد للفن الانفتاح على الخطوط الأخلاقية تماماً كما يريد لكل الحياة أن تنفتح على الجوانب الأخلاقية، باعتبار أنها تمثل مصلحة الإنسان، ما يعني أن الإسلام لا يفهم من خلال نظرته الواقعية للحياة مسألة التشجيع لنظرية (الفن للفن) الفن هو للحياة، وعندما نرى أن هناك فناً يسيء للحياة فمن الطبيعي أن ترفضه الحياة.

المحور الرابع عشر:

الموقف من التجربة الشِّعريّة عند الرجل والمرأة ورؤية سماحة السيِّد

"إنَّ الإنسان هو حركة الحياة في كلّ صورة سواء أكان الإنسان الرجل أو الإنسان المرأة... وعندما تكونُ المرأة شاعرة فهي تختزن ما يختزنه الرجل تماماً من الأحاسيس ومن القدرة التعبيئية والثقافية وربّما تتفّوقُ أحياناً على الرجال...".

محمد حسين فضل اللّه

الموقف من شعريّة المرأة والرجل

▪ المرأة قلق الرجل، ومصدر الجمال، كيف يرى السيد محمد حسن فضل الله هذا المخلوق الذي ما زال السر المفتوح على الأسرار؟

في تصوُّري إنَّ الإنسان هو حركة الحياة في كل صوره سواءٌ أكانَ الإنسان الرجل أو الإنسان المرأة، وهو الذي يُعبر عن عمق الجمال في الإحساس المختلف وعن القلق الغني بالأحاسيس في مجالات تنوعه. كيف ذلك؟ لماذا كانت المرأة قلق الرجل؟ هل انطلق ذلك من خلال حالة معاناة نفسية عميقة في ما هو الإحساس بالجمال، في أبعاده الفنية التي تحتضنها المشاعر بطريقة تجريدية؟ أم أن المسألة تنطلق من خلال أنه ليس هناك شيء اسمه الإنسان الفرد في التكوين الإنساني؟ الإنسان دائماً هو الإنسان الزوج في تكامله الإنساني، لذلك فإن القلق، قلق الإنسان في حاجته للتكامل مع الإنسان الآخر هو الذي يهيء له أن يحتوي كل آفاق الإنسان الآخر، في أجواء حاجاته. وبذلك يختلط الجانب الروحي بالجانب الشعوري بالجانب الغريزي. وتندمج الجوانب الحسية بالجوانب المعنوية، بحيث يواجه الإنسان في نظرته للإنسان الآخر نوعاً من أنواع العيش في داخل ذاته وهو يتطلع إليه، فأنت عندما تبصر المرأة الجميلة، فإنك تحاول أن تصنع لجمالها معنى تعيشه في داخل نفسك، فأنت لا تتمثل الجمال الحسي عندما تريد أن تعيش الإحساس بالجمال، وإنما تستغرق في نفسك المتطلعة إلى الجمال في

الصورة التي تعيشها من خلال حاجاتك فتعطي الصورة الجميلة معنى آخر يختلف عما هو الواقع.

المرأة آفاق الجمال الإنساني:

من خلال ذلك نستطيع أن نفهم أن إحساس الرجل بجمال المرأة لا ينطلق من أن المرأة تتفرد بهذا الجمال، وإنها هي اللوحة الإنسانية التي يمكن أن يقف الفنان أمامها ليعيش كل آفاق الجمال الإنساني. بل إننا عندما نتمثل الرجل في المرأة فإننا نجد أن المرأة المنفتحة على الحاجة إلى التكامل الإنساني في داخل شخصيتها تحس بالفراغ لاحتواء هذا الجمال تماماً كإحساس الرجل، لأن المسألة هي مسألة أن هناك كياناً يعيش حالة من النقص الذي يبحث عما يكمله.

المرأة وتمثّل الجمال:

ولكن المسألة هي أن التاريخ كان تاريخ الرجل وكان الرجل هو الذي يعيش حالة الفعل بينما كانت المرأة تعيش حالة الانفعال، بحيث أن الواقع التاريخي، الإنساني منع المرأة من أن تتمثل الرجل كما لو كان شيئاً يكملها كما يتمثل الرجل المرأة باعتبارها شيئاً يكمله، وبهذا لم يرتفع إحساس المرأة بجمال الرجل في هذه الأجواء الفنية العميقة الواسعة إلى الدرجة التي عاشها إحساس الرجل بجمال المرأة، ولكننا عندما نعيش الكثير من التجارب الإنسانية في عالم المرأة، سواءٌ في بعض مواقع التاريخ، أو في بعض مواقع الحاضر نجد أن هناك عمقاً في إحساس المرأة بالرجل بحيث يخيل إليك أن المرأة تتمثل جانب الجمال في الرجل أكثر مما يتمثل الرجل جانب الكمال في المرأة.

النّفس الإنسانية الواحدة :

لهذا إنني أستطيع أن أغير صيغة السؤال فأقول : إن الإنسان يعيش قلق الإحساس بالإنسان الآخر، كما أنه يعيش آفاق الإحساس بالجمال في الإنسان الآخر، ولكن مسألة الإحساس بالجمال تحتاج إلى نوع من الثقافة النفسية الشعورية التي تمتد إلى رواسب تاريخية بالإضافة إلى المعاناة التي يعيشها الإنسان في واقعه . وهكذا أتصور أن الآية القرآنية التي تتحدث : «إن الله خلق الإنسان من نفس واحدة وخلق منها زوجها» هناك نفس واحدة تستطيع أن تكتشف في داخلها الزوج .

أنني لا أفهم هذه القضية كما تتحدث فيها بعض الآثار الدينية في صحتها «إن المرأة خلقت من ضلع الرجل»، إنني أفهم من هذه المسألة أن هناك شيئاً في داخل الرجل تعيش فيه المرأة وأن هناك شيئاً في داخل المرأة يعيش فيه الرجل، وهذا ما عبر عنه القرآن في آية أخرى عندما عبر عن العلاقة الزوجية : «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» . بحيث أن الرجل متداخل في المرأة في ما هو الإحساس والشعور والشخصية تماماً كما تتداخل مسألة الجسد بالثوب .

لغة الرجل والمرأة الشعريّة :

▪ يتناول أدباء وباحثون حالياً قضية لغة المرأة ولغة الرجل خصوصاً في الشعر، هل ترى أن هناك انفصالاً حقاً ؟

عندما تكون المرأة شاعرة، فهي تختزن ما يختزنه الرجل تماماً من الأحاسيس ومن القدرة التعبيرية والثقافية وربما تتفوق أحياناً على الرجل، وأذكر أنني عندما كنت أقرأ شعر فدوى طوقان، وأتذوقه، أستشعره تماماً كما أتذوق شعر أخيها إبراهيم وغيره من الرجال الشعراء . لذا لا أتصور أن هناك شعراً أنثوياً وآخر رجولياً، فالشعر شعر هو إنسان المنشأ . . لكن ربما تتميز المرأة في مجتمعاتنا العربية بحالة من الكبت الشعوري والغريزي، مما يجعل هناك ملامح ضبابية في تعبيرها عما تختزنه من تجارب ومشاعر حقيقيّة، لأن المجتمع لا يتقبل قيامها بالتجربة

والتعبير عنها. "

إني أرى الشعر حالة وجدانية إنسانية تعبيرية عامة وخاصة، فلا فرق بين شعر المرأة وشعر الرجل. كلاهما فن، التفوق والإبداع فيه أمر مرتبط بظروف الشخص وقدراته وليس بجنسه.

■ ويقال بأن الرجل يبرع في الشعر الغزلي والعاطفي تحديداً، لأنه يبقى مالكاً لجسده، بينما المرأة تفتقر إلى هذه المالكية، فما رأيك؟

لا أحد يملك تعريفاً محدداً للشعر، لكنني أتصور أن ما تعيشه المرأة ولا تتحدث به هو عمق إنساني في ذاتها، تدركه لنفسها وللآخر وللحياة.. ولا أتصور أن المسألة تتصل بالجسدية، بل بالظروف الاجتماعية التي تعيشها المرأة. إذ محرّم عليها التعبير عن ذاتها وتجاربها، كما يحل للرجل، من هنا نجد أنها كثيراً ما تبتعد عن دراسة الاختصاصات الأدبية، وتتوجه للعملية، خوفاً من أن تتجرأ وتعبّر عن نفسها.. ولكن رغم كل ذلك لا تخلو الساحة من شاعرات، ولنا أن نأمل في ذلك.

العلاقة مع المرأة:

■ إنك شاعر لا بد أن تتلبس المرأة، وتتلبّسك؟

من الطبيعي أن الشاعر إنسان، وأنا إنسان قبل أن أكون شاعراً، ومن الطبيعي عند عيشك الإنسان، لا بد وأن تعيش الإحساس بالجمال، كل الجمال، وفي إنسانيتك المادية أنت إنسان الغريزة، ولا بد أن تجذبك الغريزة إلى الكثير من الأحاسيس.

لكن المسألة هي أن الغريزة عندما تجذبك فلا بد أن تلتقي بالإرادة التي تجعلها تتوازن، ربما تصور الصورة الجمالية التي قد يستوحي منه الآخرون شيئاً غرائزياً.

الشعر الوجداني:

■ **نحن نتحدث عن حالة عشق؟**

لم يتح لي أن أعيش تجربة في مجتمع يمكن للإنسان أن يعيش فيه مثل هذه التجربة، ولكني كنت أعيش هذا الأفق، ولي قصائد كثيرة في هذا المجال في ديواني (على شاطئ الوجدان) لكن عندما أقرأ شعري في الحب، أجد أن هذا الحب يغلب عليه الحب الفلسفي، هل هو هروب من الواقع؟ هل هو منفى؟ أم هل هو تعبير عن أن الغريزة لم تكن بهذا الحجم، بل إنها استطاعت أن تتحسس الجمال في المرأة لتنفتح على جمال الكون كله؟

وأذكر قصيدة نُشرت في مجلة (الأديب) في بداية الخمسينات:

وعادَ حُبّي في عُروقِ الضُّحَى مُنْطَلِقـاً يَحيى بِقَـلْبٍ كَبيرْ
لَيْـلاَهُ ما في الكَـوْنِ مِنْ فِتْنَةٍ غَرْقى بِأَمْواجِ الصَّبَاحِ النَّضِيرِ[1]

■ **كيف ينظر السيد فضل الله إلى المرأة الملهمة؟**

تختلف النظرة إلى المرأة من موقع إلى آخر، فثمة نظرة إلى المرأة من موقع حركة الحيوان في حسه، وهناك نظرة لها من خلال حركة الإنسان في وعيه، إن الإنسان قد يلتقي بالمرأة في حركة الحيوان في حسه، ولكن ذلك لا يدوم، لأنه مجرد لحظة، على عكس ما يحدث عندما يعيش الإنسان الجمال في معناه الروحي، لينفتح به على الآفاق التي تتمثل فيها عناصره، عندما يتمثل إنسانية المرأة، والنقاء والطهر والصفاء فيها. بحيث إنه ينطلق من جمال الجسد إلى روحية الجمال وهذا ما عبر عن بعضه الشاعر «الأخطل الصغير».

■ **والأم... كيف تصفها؟**

لا أستطيع التعبير عن الأم، لأنها هذا الينبوع المتدفق الذي يعطي من دون أن يسأل إلى أن

---

(١) محمّد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ص: ٢٧ ط١، رياض الريِّس للنّشر. قصيدة: (حُبِّي).

يتجه العطاء إنها ينبوع يعطي بكليته. إن الأم تعطي الجنين من دمها وغذائها وقوتها وحياتها وآلامها وأحلامها ما يجعله ينمو في هذا الجو داخل الرحم، ثم عندما تضعه وتحتضنه وترضعه فإنها تعطيه كل روحها ونفسها بحيث يرتضع الحليب من ثديها وهو يعيش روحها في الحليب.

لذا نجد أن الإرضاع الطبيعي لا يمنح الطفل الغذاء فقط ولكنه يمنحه كل الدفقات من الحنان والإنسانية والروحية التي تنساب إليه من أمه وهي ترضعه.

وهكذا تعيش الأم بالمستوى الذي تفقد فيه ذاتها مع ولدها. حين توفيت أمي سنة 1992م، رثيتها في قصيدة تُمثِّلُ مرحلة عمري معها وهي «رحماك في روح أمي»[1] فقلت:

وتبقى الحياة.
وتهرب مني جمالاتها حكاياتهـــا،
في طفولة عمـــــري،
غنائية الهدهدات الحميمـــة،
أراجيح روحي التي يشهق الضياء بهزاتها،
ويغفو العبير على وحيها الضائع
الأمنيات وأمضي...
وترحَلُ بي الذكريات
تغيبُ طويلا
بوعي الضباب
وتشرقُ بسمة
وألمح كُل عيون الحنان

(١) منشورة في ختام الكتاب، وهي من القصائد غير الواردة في داووين سماحة السيِّد.

وكُلَ الصفاء

وكل الطهارة

هي الأمُّ

أمي التي يروقُ الخيالُ

بكلماتها...[1]

■ كيف ترى إلى دور المرأة في المجتمع؟

إن المرأة إنسان لا بد أن تعيش دور الإنسان كله في المجتمع، مع الخصوصيات التي تتمثل في معناها كامرأة، كما إن الرجل لا بد من أن يعيش دوره كإنسان في المجتمع مع خصوصياته كرجل: يقول الله جل جلاله «هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها» لذا هناك شيء من المرأة في الرجل، وشيء من الرجل في المرأة: «هن لباس لكم، وأنتم لباس لهن».

■ هل تؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة؟

إن علينا أولاً تحديد معنى المساواة هل تعني مساواة المرأة للرجل، أن تعيش المرأة ذكورة الرجل أو أن يعيش الرجل أنوثة المرأة.. إن ذلك لا يعني المساواة، بل يعني فقدان الشخصية في الآخر.. وألا يكون الإنسان نفسه.

إن المساواة هي أن تأخذ المرأة حقوقها في إنسانيتها، وأن لا يكون الرجل سيد المرأة التي يلغي شخصيتها، وألا تكون المرأة ظلاً للرجل، بحيث تذوب شخصيتها فيه. المساواة هي أن تعيش المرأة إنسانيتها، وأن يعيش الرجل ذكورته في إنسانيته لتتكامل الإنسانية في هذين النوعين بعلاقة الذكورة والأنوثة التي قد يتميز كل منهما ببعض الأحاسيس والمشاعر والأدوار

(١) محمد حسين فضل الله، من قصائده المخطوطة، والمنشورة في كتاب العلاّمة فضل الله وتحدّي الممنوع، ص: ١٦٦ / ١٧٧.

التي تتمثل في امتداد الجنس البشري، حيث تمتزج المادة بالروح في ذلك كله.

إن على الرجل أن يعترف بإنسانية المرأة كإنسان له عقل وإرادة وحرية في النطاق الذي تتحرك فيه الحرية في خط المسؤولية، كما تعترف المرأة للرجل بذلك. كما يعترف كل منهما بالخصوصيات التي تمثل تنوعه الذاتي.

■ هل يلتقي رجل الدين والشاعر في شخص السيِّد فضل الله حيال النظرة إلى حجاب المرأة؟

عندما أتمثل المرأة إنساناً، فأنا لا أرى الحجاب مسيئاً إلى إنسانيتها لأنه يجعلها من ضمن ما يختزنه الرجل من نظرته إلى المرأة في الإطار الجنسي.

إن خروج المرأة سافرة بالطريقة التي تعارف عليها الناس قد يجعل الرجل يتصورها كأنثى لا كإنسانة. كما أن المرأة أصبحت تشعر من خلال وسائل الحضارة الحديثة (الإعلام والرواية والقصة).. تشعر بأنوثتها أكثر مما تشعر بإنسانيتها، لذلك فإن الحجاب المعتدل قد يغرس في نفس المرأة معنى الإنسان وإنها ليست مجرد جسد بل هي إنسان يمتلك عقلاً ويجتذب نظرة الناس إليه في عقله وإنسانيته وليس في جسده.

■ كيف تنظر إلى استخدام المرأة اليوم كسلعة ترويجية في وسائل الإعلام؟

إننا نرفض ذلك لأن ذلك يوحي للمرأة وللرجل بأن الجسد هو القيمة وليس العقل.

■ هل يجب على المرأة أن تكافح «تسليعها» من خلال الحجاب فقط؟

الحجاب إحدى الوسائل، لكننا لا نعتقد أن الحجاب يعصم المرأة، ولكنه يهيئ بعض المناخات، لذلك ولطالما قلت من قبيل الطرفة: «إن الحجاب هو أمر يسلم به الجميع، ولكن

الفرق في قطع الثياب ».

▪ أخيراً بماذا يحلم السيد فضل الله وهو في الرابعة والستين من العمر ؟ !

أحلم بأن أبقى في روحية العطاء للإنسان الآخر، أحب أن تكون حياتي متحركة في الإنسان الآخر، أن أعطي الفكر والروح والحياة حيث يتحرك الزمن في رحلة العمر فلا تفلت منه لحظة من دون عطاء.

إنني وأنا في هذه المرحلة من العمر، لا أشعر بأيّةِ لذة حسية، أو بأي جانب حسي ولكن لذتي هي كيف أعطي أكثر، وكيف أنتج أكثر، كيف أكتب وأفكر وأحاضر وأعظ، وكيف أعيش مع الله.

▪ هل تعتبرون أنكم في هذا العمر وصلتم إلى قمة النضج ؟

لا أعتقد أن بإمكان الإنسان الوصول إلى قمة النضج.. إنني أشعر أنني أتعلم من كل من ألتقي، ومن كل ما ألتقي، وأعتقد بأن الإنسان الذي يشعر بأنه وصل إلى دور المعلم، وفَقَدَ دور التلميذ يبدأ بالتراجع.

▪ هناك مأساة الجنوب، وهناك شعراء كتبوا عن هذه المأساة، هل هناك من كلمة تقييمية لشعراء الجنوب ؟

هنالك بعض التجارب الشعرية في بعض ما قرأت من شعر الجنوبيين ولكنه ليس كثيراً. أتصور أنه لم يكن هنالك عطاء كبير بعد مرحلة النهضة من الشعر الحر، إذا صح التعبير، مرحلة بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصَّبور ومحمد الفيتوري. أن مرحلة عصر النهضة في الشعر الحرّ لم تستطع كل التجارب الشعرية أن تصل إليها أو تتجاوزها. هنالك تجارب شعرية

قد تجدها هنا وهناك، ولكنها لا تمثل ظاهرة تقول أن الشعر قد تطور.

■ **كيف تنظرون إلى المرأة من خلال تجربتك الشعرية؟**

أنا أختلف مع كل الناس الذين يريدون أن يعلبوا المرأة ليصوروها إنساناً، عليك أن تحدق فيه كما لو كان مخلوقاً مميزاً عن المخلوقات الأخرى. لكل عناصره وطِبَاعه لنتحدث عن حقوق المرأة، ومشاكلها ونفسيتها. المرأة، إنسان له مشاكله التاريخية والذاتية كما هو الرجل له مشاكله التاريخية. ومشكلة المرأة في إنسانيتها المسلوبة كمشكلة الرجل في إنسانيته المسلوبة مع وجود فارق هو أن التاريخ تاريخ الرجل، وأن المجتمع مجتمع الرجل. وبذلك ازداد اضطهاد المرأة من خلال النظرة الدونيّة التي يُنظر فيها إلى المرأة. أما عندما نريد أن ننطلق إلى الحياة، لنتصور المرأة إنساناً لها خصوصيات، كما الرجل، فقد نستطيع أن نلتقي في حقوق المرأة بحقوق الإنسان الذي يتكامل فيه الرجل فكراً وتجربة وإرادة وحياة كما تكون أنثوية المرأة مع دائرة خاصة في حياتها كما هي ذكورية الرجل. المشكلة هو إننا عندما نتحدث عن المرأة نتحدث عن الأنثى لا الإنسان. وكأني بالمرأة عنصر خلق للرجل، لم يخلق كإنسان يتكامل في الحياة مع الرجل، وهذا هو سر المشكلة.

■ **من خلال تجربتك الشعرية هل هناك من أبيات للمرأة؟**

هناك قصيدة بعنوان «مولد حب» نظمتها في أوساط الخمسينات أقول فيها:

حملتُ قلبي والضحى في يدي أنشودة عذراء لم تُكتبِ
نديةً كالفجر أن تنطلق أنغامُها في خاطرٍ يُعشبّ
سحريةُ الضوء ربيعيّةُ الأشواق ريّا الخطو إن تلعب
حملتها وانطلقت في دمي وادعة أضواء فجرٍ نبي

وعشتُ عمري ضائعاً لا أرى ... ألا بقايا حلمٍ مرعبٍ
يلتفت النور إلى خاطري ... فأن بدت لي غيمةٌ يَذْهَبِ
كأني أدورُ في حلقة مفرغةٍ ... من عمريّ المجدبِ
وعشتُ أحسو خمرتي من رؤى ... عينيكِ، يا للُحلم المُخصِبِ
وأرتوي فيظمأ الملتقي إلى ... انهلالِ النورِ في الملعبِ
وأنتِ تجرين على أذرعِ الضّوءِ ... مع الأطيافِ في موكبي
وأينع الحبُ وعاشَ الضّحى ... في قِصةٍ حولَ هوانا الصّبي[1]

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ط١،ص: ٣٤. (مولِدُ حُبٍ).

المحور الخامس عشر:

الرواية والمسرح: في إشكالية الأدب الإسلامي

"قيمةُ الرواية أنَّها أكثر تجذراً في وجدان الإنسان منذُ كانت القصّة لأنَّ الإنسَانَ معنّي ان يتابع الأحداث لما يعيشه الإنسان...".

محمد حسين فضل اللّه

الرواية ودورها في ظلال الشِّعر

ثمة من يقول إن الرواية أخذت دور الشعر في هذه الأيام ، فهل أنت على علاقة بالرواية ؟

قيمةُ الرواية أنها أكثر تجذراً في وجدان الإنسان منذ كانت القصة . لأن الإنسان معنيّ أن يتابع الأحداث لما يعيشه الإنسان ،ولهذا تشعر كيف كان الناس في العصور الوسطى يدمنون الاستماع إلى أبي زيد الهلالي وقصص عنترة في ظل الأميّة وقصص ألف ليلة وليلة وغيرها . . .لأن طبيعة حركية القصة وتحولها من مشهد إلى مشهد هي التي تجذب الإنسان، وتملأ فراغه، وتشعره بنوع من الحيوية .

أما الشعر فقد أخذ دوره في حياة الإنسان، ولكن عندما كان الشعر شعر الناس والحياة . أما عندما صار شعر النخبة فإني أظن أن النخبة ليست متفرغة لقراءته ، لأن النخبة قليلاً ما تقرأ وقد كنت في بداية شبابي أقرأ أناتول فرانس ، وقرأت تولستوي والروايات الروسية، والروايات المترجمة (طاغور) وكنت أعيش في جو روحي من هذا الجو الفلسفي الهندي القصصي،وقرأت الكثير :نجيب محفوظ ، وإحسان عبد القدوس والروايات اللبنانية كالرغيف لتوفيق يوسف عواد ونحوها .

■ **سماحة السيِّد أَودُّ أَن تكون مداخلتي هي التالية :**

X ضرورة الالتزام في الأدب، نعرفها من بقايا الواقعية الاشتراكية وهناك ما يسمّى بالالتزام الإسلامي في الأدب لانعرف أبداً نموذجاً له في الشعر إلاّ « حسان بن ثابت »، إذا تكلمنا عن

فيلم سينمائي إسلامي فهو غير موجود. في العمارة يقولون لنا راجعوا الأندلس وراجعوا الأثارات القديمة . هناك انفصام حيث ينجح الخطيب في المسجد وينجح السياسي الإسلامي ويفشل المبدع الإسلامي وهذه مفارقة. حيث هناك تراث كبير في هذا المعنى ولا يمكن أن نجد تواصلاً. في هذا المعنى أنا ككاتب أحياناً أشعر بحاجة للتعبير عن بعض القضايا الكبرى ومنها الإسلامية وحين أبدأ بالكتابة أشعر مباشرة برقيب ما تحت خوف ما ، أنا أقولُ بأنّي لست مرتداً أنا مؤمن وأنا لا أشعر بأي انفصام فأنا أحياناً استيقظ الساعةالخامسة أشعر بأني شيوعي وفي الساعة السابعة مسلم وفي الساعة التاسعة لبناني وفي الساعة العاشرة عربي ، أنا نموذج غير معروف حتى الآن ، وهذا حتى عند المؤمنين أن الإنسان يكون لبنانيا في العمل وفي المساء هو مسلم. هناك بالنسبة لي أزمة . أنا أريد أن أستعرض تاريخي وتاريخ عائلتي وأمتي وعلاقتها مع الحضارات الأخرى

وسؤالي سماحة السيِّد : هل يسمح لي أن يتخفف هذا العبوس كما أراه من الخارج وأنا لأسمي ذلك تخلفاً حيث الآخر يسميني كافراً أو ملحداً، أريد أن تساعدني في حل هذه لإشكالية ؟

الإسلام لا يرفض الرواية أو المسرح :

النقطة التي أثرتها في البداية في فقدان التجارب المسرحية أو الروائية أو القصصية أو إلى ما ذلك فيما يتصل بالمضمون الإسلامي قد يكون صحيحاً ولكن هذا لاينطلق من أن الإسلام رفض أسلوب الرواية وأسلوب المسرح... ولكن المشكلة أن هذا النوع من الأساليب الفنية نشأ في بيئة أخرى نتيجة ظروف معيّنة. ربما طبيعة التاريخ الثقافي الذي كان يرتبط باليونان بغيرها مثلاً استطاع أن يجعل هناك تواصلاً بين المنطقة الغربية أي المجتمع الغربي وبين هذا للون، الواقع الإسلامي عاش تجربة قصص متنوعة قد يدرسها شخص فيجدها شيئاً مثلاً :

نحن الان لا نستطيع أن نغفل أن ألف ليلة وليلة ، من إنتاج التجارب الفنية المبدعة على مستوى القصة بقطع النظر عن المفردات والمضامين الموجودة فيها . .وهكذا هناك تجارب كثيرة موجودة للقصة ولكن بالأسلوب الذي كان يحكم ثقافة ذاك الزمن.

النقطة الثانية : الواقع أنت تتحدث في هذه المسألة عن مرحلة ومجتمع يضج بالعنف،نحن الآن عندما عشنا في لبنان كُنَّا نعيش العنف اللاشعوري بالنسبة إلى أنفسنا وإذا كنت تتحدث أنك وأنت تكتب تخشى من وجود رقيب كأنه يعيش في داخل عقلك وفكرك ،فالواقع أنَّ هذه ليست مّما يرتبط بالمسألة الإسلامية .إنَّ القضية أيضاً وعندما كان الاتحاد السوفياتي أو أيَّة دولة أخرى ـنحن لانتكلم الآن في مقام استهلاك سياسي لنوزع الاتهامات ـمجتمعاً له تقاليد معيّنة فأنت تشعر بالرقابة فيه . لكن أنا لاأعتقد أن المسألة تصل إلى المستوى الذي يقمع حرية الإنسان في تجربته أذا أحسن الإنسان إدارة التجربة هناك فرق بين أن تنطلق في رفضك للفكر الآخر . من حالة تدميرية خانقة تفجرها بطرق معينة أنت لاترضى أن يخاطبك بها الآخر في هذا المجال ، وبين أن تطرح فكرك بطريقة يمكن أن تعطي فيها حريته في الحديث دون أن تسيء إلى المواصفات الموجودة عند الآخر، وأنا أتصور أنَّ الإنسان الذي يملك الكلمة الفنية المبدعة يستطيع الإقتراب من المواصفات الموجودة عند الآخر أن يعبّر عن فكره بأي أسلوب . نحن قرأنا في علم البيان حديثاً يقول إن علم البيان هو العلم الذي يستطيع من خلاله أن يعبّر عن الفكرة الواحدة بأساليب متعددة في الوضوح والخفاء والرمز والإيحاء . . . وكونك شاعر حداثة قلنا مراراً إن المسافة بين المعنى والموجود في القاموس وبين المعنى الموجود عند الشاعر مسافة عليه أن يقطع الاف الكيلومترات حتى يصل إلى الإنسان وإلها، فإذا كنتم الآن في هذا المجال في الأشياء التي لاتختزن أي شيء فوق العادة فبإمكانكم أن تعبّروا بنفس هذه الطريقة أو بما يماثلها بهذا الشكل.

لهذا أنا لا أعتقد أنك عندما تنسجم مع أسلوب الحداثة كما في تجربتك وتجربة إخوانك لا

نعيش مأزقاً أو مشكلة تحتاج أن يّحلها لك أحدَ ما بل أنت تستطيع أن تحلّها بهذه الطريقة.

x في تصوّري سماحة السيّد إلى أيّ مدى تستطيع التكنولوجيا أن تدعم أفكار الآخرين في صراعها مع الفكر الإسلامي أو مع أفكارنا، وهل أن تطوّر التكنولوجيا السريع يساعد الأفكار الأخرى على مزاحمة أفكارنا عن طريق الادعاء بأن العمل الحركي هو أفضل من العمل النظري؟

في تصوّري أن التكنولوجيا ليس لها دخل في الصراع الفكري والثقافي، نحن مع كل التكنولوجيين، نحن معاً في سبيل أن نطوّر التكنولوجيا لأنها تطوير لوسائل الحياة ولذلك فهذه المسألة ليست لها علاقة بأن تغلّب فكراً على فكر. التكنولوجيا ربما تساعد في اكتشاف بعض الأوضاع وبعض الآفاق وتسهّل لنا طريق الحياة وتبقى مسألة الصراع الفكري تنطلق في الخطوط النظرية والتطبيقية والحركية، لأن لهذا مجال ولذاك مجال آخر.

قصة الجمال هي قصة الحياة:

▪ سؤالي هو إشكالية تعترض الشاعر أو الأديب أو الفنان المسلم الذي يتعامل مع الجمال خاصة عندما تقف الغريزة في خطوط حمراء، ما هو الجمال؟ المثاليون يرونه مثالاً نحاكيه، الماديون يرونه انعكاساً للواقع، كيف نراه نحن المسلمون؟ يقول «إقبال»: إن الجمال مهمة الفنان كما أن الفقيه مهمته أن يبحث عن الحكم والفيلسوف يبحث عن الحكمة. أين هي حدود حريتنا في التعامل مع الجمال، وهل تُسمّي لوحة عارية جميلة حتى وإن تناسقت ألوانها وخطوطها، هل الجمال يشكل الذوق أم هل الذوق يشكل الجمال؟

في تصوري أن كل الذين تحدثوا عن الجمال أبعدونا عنه لأن عيوننا تفلسف الجمال أكثر مِمَّا تفلسفه ألف نظرية. أُنظُم ألف قصيدة في جمال الورد وفي عطر الورد وشمّ الورد وتطلّع إليها فإنك تفهمها أكثر من ألف قصيدة، قصة الجمال هي قصة الحياة، هناك كثير من القضايا إذا حدّدتها أبعدتها عن إحساسك، هذه قصة التعامل مع الجمال. إنّ مسألة الجمال هي مسألة

واقعية إنسانية، حتى الجمال العاري لن يستطيع أحدٌ أن يرفض جماليته ولكن حركة الجمال في حركة الصورة أو اللوحة، أو الإنسان قد تصطدم بقيم أخرى ومواصفات أخرى، تجعل الجمال يتجه اتجاهاً آخر.

إن القصة أن الجمال لا يختلف وإن كان إحساسنا بالعناصر الجمالية يتنوّع ولكن المسألة كيف نتعامل مع الجمال، هل نتعامل معه غرائزياً أو نتعامل معه إحساسياً فكريّاًأو إنسانياً... إنها قصة كل الأشياء التي تنطلق في حياتنا لتكون أشياء ذات عناصر تتصل بالحياة وبالإنسان ولكن الذي حارت البرية فيه هي مسألة كيف نتعامل مع الأشياء الجميلة ومع القيم الجميلة ومع الواقع الجميل، قد يكون التعامل مِمّا يحوّل الجمال إلى قبح، لأن هناك قبحاً وجمالاً تختلف أبعاده حسب اختلاف إحساسك به وحركتك به نحوه.

المحور السادس عشر:

قبسات وجدانية عند سماحة السيِّد: الشاعر الإنسان

عندما يكتبُ الإنسان تجربة حُبّ تنطلق من وحي الخيال، فإنَّهُ قد ينفتح على حالة ضبابيّة تعطي للشّعر لوناً من الغموض والرومانسيّة.

"وانطوى العام:والتفتُّ إلى الأمسِ... وطافت بخاطري الأشباحُ
وتساءَلتُ: والشَّبابُ بعينيّ.. غموض: وحيرةٌ والتياحُ
أين عمري.. ولوّح الليلُ للذكرى: فحنَّت - لوحيها - الأقداحُ".

محمد حسين فضل اللّه
على شاطىء الوجدان - ٦٨
(اين عمري) النجف ١٩٥٤...

تجارب الوجدان على شاطىء الوجدان:

■ في (على شاطئ الوجدان) من قول الإسلام والفكر شعراً هناك إشارات وجدانية وتناول لموضوعات الحب والفراق والغزل، وقد اختفت هذه الإلتفاتات في عمر متقدم فهل يوجد تردد في الكلام حول هذه التجارب؟

أن يعيش الإنسان هذه المشاعر في مرحلة الشباب هو أمر طبيعي، ولكنّي لم أعشها بالمعنى التجريبي الفعلي، إن الظروف التي عشتها والتزاماتي الدينية في مجتمعي المحافظ سواء في النجف أُو في لبنان كانت تمنعني عيش التجربة في الواقع، وهذا لا يعني ضرورة استبعاد القدرة على تخيل هذه التجارب ومشاعرها، فعندما يكتب الإنسان تجربة حب وما شابه تنطلق من وحي الخيال، فقد ينفتح على حالة ضبابية تعطي للشعر لوناً من الغموض والرومانسية التي تؤثر في النفس وفي المشاعر.. وفي (على شاطئ الوجدان) قصائدي في الغزل والحب والفراق والتي لم أكتبها متأخراً عن الشباب، إنما الديوان طبع متأخراً بدليل التاريخ المدوّن في أسفل كل قصيدة.

مقعد الذكريات وعلاقتُهُ بحياة السيّد الشاعر:

■ منذُ سَنَواتٍ وسنواتٍ وأنَا أراك على هذا المقعد، وفي هذا المكان ماذا تتمثلون سماحة السيّد؟

المقعد لا يحبسني في زنزانته، لأني قد أكون جسداً في هذا المقعد، لكني وأنا أستقبل الكثير من الناس، أشعر بأن هذا المقعد يطير وينفتح على كل الأجواء، فأنا أعيش السياسة مع

الناس من هذا المقعد، وأعيش مع الأطفال عندما أستقبلهم وهم يسألونني أسئلة طفولية، فأرجع إلى طفولتي، وأجلس مع الفتاة التي تعيش مشكلة نفسية أو صدمة عاطفية، أو مشكلة نفسية تأمل مَنْ يُعالجها. وهكذا أعيش مع الناس الآخرين قضاياهم الشرعية والاجتماعية لذلك، ليست القضية أن تجلس في مقعد معين دائماً، ولكن المسألة هي أن لا يجمدك المقعد بل أن تحرره حتى منك.

■ لستم تعيشون إذاً _ في برج عاجي فأنتم بذلك بين النّاس جميعاً؟

أشعر أنني لا أزال أعيش إنسانيتي في هذا الموقع، أجلس مع الطفل وأحدثه بلغة طفولته، وأجلس مع الشّباب، وأحدثه عن تطلعات الشباب، لأنني ألاحق تطلعات الشباب، حتى إنني أقرأ ما لا يقرأ من أجل أن أكتشف الخلفيات التي تؤثر في ثقافة ووجدان الشباب وفي حركتهم.

إن على الإنسان الذي يحمل رسالة أن يتعلم منها، لذا أشعر بنفسي تلميذاً لكل من ألتقيه، فلكل إنسان تجربته وحتى تجربة الأطفال، لعل فيها بعض الأشياء التي تضيء فكرة هنا أو هناك، خصوصاً لأولئك الذين بإمكانهم أن يعيشوا حتى العفوية، حيثُ تقفِزُ فكرة ما من داخل أعماقهم ومن داخل فطرتهم لتمثل الحقيقة.

■ أعلى هذا النهج _ برأيك _ يمكن أن ينضج فكر الإنسان ووعيه؟

من الطبيعي أن ينطلق الإنسان الذي يعيش قلق المعرفة ويبحث عنها في كل مكان إلى آفاق الحياة، فالحياة تتطور بأطراد وتنفتح على الجديد، ولست أفهم أن يكون الإنسان معّلماً من دون أن يعلم ما عنده ويتعلم ما عند سواه.

■ العنف في شخصية محمد حسين فضل الله؟ أين يتركزّ ويتمحور؟

لم أكن عنيفاً من خلال مزاج، أنا أؤمن بالغضب العقلاني، أن يكون غضبك جزءاً من خطة لا أن يكون هو الخطة، أَغْضَبُ عندما يتحرك الاستكبار ليضطهد المستضعفين، أغضب عند ما أجد المأساة أمامي والتي يصنعها الذين يظلمون الناس، لذلك أنا أؤمن أن غضبي هو غضب معقلن وليس غضباً غريزياً.

العنف والخوف:

■ **كم مرة خفت من الموت؟ وهل الموت واعٍ لنا لنسترجع الحياة؟**

لم أشعر بحالة الخوف الحسي، الموت كان لدي انتظاراً، وأذكر أنه كان لدي قصيدة في الخمسينات (نشيد الموت) ومنها:

سَأَمُوتُ
يَغْمُرُ روحيَ الظمأى إلى وحي ٱلخُلُودِ
إ شْعاعُ دُنْيا حُرَّةِ الآفاقِ تَهْزَأُ بِالقُيُودِ
لا البغيُ يكمنُ في زواياها ولا غِلُّ الحقودِ.
تتعانق الأرواح فيها كالأزاهِرِ والورودِ![1]

حتى وأنا في آخر حالة صحية في المستشفى، وأثناء النوبة القلبية، لم أحس بالموت، بل كان في عقلي، لكنه لم ينزل، كنت أشعر بالحياة دائماً تضج في كياني... ولا أزالُ أَشعرُ بالحياةِ.

■ **هل الحياة هي عشيقُتك ٱلتي تتوددُ إليهاوتسعى لملاقاتها دائماً؟**

هي إنسانيتي ووجودي، لن تستطيعَ أن تعشق معناك، لأن معناك هو أنت، والعشق هو

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ط١،ص:١٠١ (نشيد الموت).

حالة تغير وانفصال، انفصال يلتقي ويتصل، ولك أنت إنسانيتك، أنت وجودك.

الكتب والإيديولوجيا :

■ كيف تختار الكتب التي تقرأها ؟وما أنواع القراءات التي تواظِبُ عليها ؟

الواقع أني أقرأ بشكل متنوع، فحتى الآن أقرأ الشعر والقصيدة، وأقرأ الفلسفة وأقرأ الفقه، وأقرأ العلوم الحديثة والسياسة، وأقرأ نفسي وأقرأ الناس.. .فللكتاب في حياتي حّيزٌكبير، وعلى الإنسان أّن يواكب حركة الفكر وحيويّتها.

■ هناك سؤال حول العودة الواسعة إلى الدين، هل هو الخوف من الاضمحلال؟ قال فوكوياما : لقد ماتت الإيديولوجيا؟ هل نأتي ذات يوم ونقول لقد مات الدين؟

أنا لا أدري كيف يفكر هؤلاء الناس، إن مسألة الإيديولوجيا بكل مفرداتها؛ الدين، الثقافة، التخلف، هي مسألة إنسانية، أنت لا تستطيع أن تضبط الإنسانية في العالم إن لم يفكر عقائدياً، ولماذا تموت الإيديولوجيا؟ أما فوكوياما فيتحدث عن موت أيديولوجيا الأنظمة.

عندما تفكر بعد أن تتأكد من أنه لا بد من أن تفكر ولو في بعض حالات الاستغراق في تأملاتك الذاتية، أن تفكر في الكون، وفي الناس، وفي الحياة وفي الموت، فالإيديولوجيا عندها كلمة تعني العقائد...

إن الديمقراطية بحقيقتها، وحتى العولمة التي شغلونا بها، وإن كانت جذورها سياسية اقتصادية، كلها أيديولوجيا.

ليست مسألة الإيديولوجيا أن تحصرها في الإسلام أو النصرانية أو الماركسية أو في شيء آخر.

إنها مجرد خطوط فكرية قد تتحدث عن عالم الغيب وقد تتحدث عن عالم الشهود، وقد تنفتح على خلفيات فكرية مسبقة، وقد تتحرك في أفكار واقعية حسية.

أنا لا أفهم كيف تموت الأيديولوجيا، إن معنى موتها أن يموت الفكر: (أنا أفكر فأنا أيديولوجي) لأن الفكر لا يمكن لأحد أن يحاصره وأن يضبطه، وأن يصدر له القوانين؛ هذا حرام، وهذا حلال، ولا تستطيع أنت أن تدخل القوانين الجزائية والجنائية للفكر.

أنت تفكر! حتى الدين لا يحرمك من فكرك، وإنما يحاسبك على عملك، ولذلك فقصة انطلاقة الدين هي كانطلاقة أي فكر آخر، وإننا نتساءل لماذا انطلقت القومية في الأربعينات؟ لقد كان هناك ظروف، ولماذا انطلقت القومية الإيطالية والأوروبية؟

إنَّ الدين عندما انطلق، انطلق من خلال ظروف موضوعية، فما يسمى الصحوة الإسلامية مِمَّا له ظروف تتعلّق بالسياسة والاقتصاد وطبيعة المستوى السياسي والثقافي عند بعض الناس، وفشل بعض الخطوط السياسية والفكرية، تماماً كتعاظم القومية والماركسية، وسوف يأتي المستقبل بأشياء أخرى، فالحياة لا تتحمل الفراغ، وإذا لم تملأ أنت الفراغ فسيملأه غيرك، وعندما تريد ملء الفراغ فإنك تملأه مما يحيط بما تريد ملأه به.

■ هل الشاب الذي يدرس دراسة حوزوية يكون مختلفاً ثقافياً مع الشاب الذي يدرس دراسة أكاديمية؟

لا أتصور أن الدراسة الحوزوية يمكن أن تجعل الإنسان مختلفاً، بل إنها دراسة غنية في موضوعات اللغة العربية والفقه والأصول، ولكن المسألة قد تختلف من خلال البيئة التي يعيشها الطالب، لأن الحوزة عادة قد تمثل بعض الناس ممن لا يملكون الرحابة المنفتحة على العصر، وربما تُمثِّلُ بعض الناس ممن لا يملكون رحابة الأفق بالإحساس بالفوقية باعتبار أن الطالب الحوزوي يتهيأ ليكون عالماً دينياً، فقد يشعر بطريقة خفية بأنه فوق الآخرين وبأن عليهم أن يقدسوه وأن

يقبلوا يده وأن يضعوه في الموقع الأعلى.

ربما إذا لم يحصل الإنسان على تربية أخلاقية دينية روحانية، ينشأ ويتصور نفسه بطريقة أشبه بالفوقية. إن القضية الأخلاقية والانفتاح والحرية هي مسائل لا تنطلق من خلال الجو التربوي الذي يحيط بالإنسان ويخلق تأثيرات عليه.

■ ما هي المشاكل التي يتعرض لها الشباب وما هي أسباب وعوامل هذه المشاكل؟

من الطبيعي جداً أن الشبّاب في سن المراهقة، ذكوراً أو إناثاً، يتعرضون للمشكلة الجنسية، من خلال طبيعة الإحساس الغريزي الذي يضج بالجسد. وعندما يتقدمون للحياة يتعرضون للمشاكل الاقتصادية الخانقة لأنهم يعيشون في بيت فقير، ولأنهم لا يجدون فرصة للعمل أو قد يضطرون للهجرة وترك أوطانهم للبحث عن عمل. وهكذا بالنسبة إلى المشاكل التي تعترض الشاب في دراسته من ناحية علاقة الجانب الدراسي بالجانب الاقتصادي أو مثلاً المستوى الدراسي أيضاً في جامعة معينة أمام جامعة أخرى! وكما يواجه الشباب الأوضاع السياسية الصعبة التي يعيشها العالم الثالث ولا سيما العالم العربي والإسلامي.

إن كل هذه المشاكل تواجه الشاب والشابة في مقتبل حياتهما، عندما تضغط عليهما كل هذه الأوضاع لتربك حياتهما، ولتحاصرهما بطريقة أو بأخرى. ومن الطبيعي أن على الإنسان الذي يملك عقلاً وإرادة وتطلعاً إلى الحياة أن يأخذ بأسباب الصبر باعتبار أن هذه المشاكل طبيعية يجب مواجهتها كما يواجه حالة المرض أو الخوف. إنه لا بد للإنسان أن يوحي لنفسه بالقوة وأن يعيش التجربة وأن يفكر في الحياة لينتصر ويتمرد على مشكلة هنا ومشكلة هناك، وإذا كان لا يستطيع أن يحل المشكلة فإن عليه أن يتعايش معها ريثما يجد الأمل في المستقبل. إن الحياة تنتظر الشباب الذين يقتحمون مشاكلها وضغوطها من أجل أن يفتحوا في كل مرحلة أفقاً جديداً للأجيال القادمة.

▪ الشباب هذا اليوم يتبنون الأفكار الغربية التي لا تمت لمجتمعنا بصلة، فهل نتعرض لغزو ثقافي؟ علماً أن البعض يرفض ذلك على أساس أن الغرب يعرض ثقافته ونحن نطلبها، وهذا ما لا يتفق مع مفهوم الغزو؟ وكيف يمكننا إعادته إلى المفاهيم الأصيلة التي تعتبر الأساس في تحصين مجتمعنا الشرقي؟

لا أعتقد أنّ للثقافة وطناً، فالثقافة لا تدخل في وزارة الاقتصاد لنتحدث عن ثقافة مستوردة وثقافة مصدرة. الثقافة حالة إنسانية تتعلق بالإنسان ومن الطبيعي أن تختلف، فتختلف الثقافات في انفتاح الإنسان عليها أو انغلاقه.

لذلك نحن نعتقد أننا لا نجلس في غرفة مقفلة النوافذ والأبواب بل نحن نتحرك ونعيش في أرض لا سقف لها، ولا حدود.

فعندما تهب الرياح الثقافية من هنا وهنالك، لا بد أن تصل إلينا، المسألة هي كيف نؤصل ثقافتنا وكيف نقويها، وكيف نفهم ثقافة الآخرين ولا نسقط أمام التهاويل التي يثيرونها أمامنا ويوحون إلينا أنهم هم القمة ونحن السفلى.

علينا أن نعرف أنه يجب أن نركز ثقافتنا في العمق وبالامتداد والتأصيل، ثم ندرس المقارنة بين ثقافتنا وثقافة الغرب لنختار من الغرب ما ينسجم مع حقوقنا الثقافية ونرفض ما لا ينسجم، كما أنهم قد يأخذون منا شيئاً ويرفضون منا شيئاً لأن التاريخ الثقافي هو عملية تفاعل بين الحضارات والثقافات.

المشكلة هي أن الشعوب التي تشعر بالدونية أمام الشعوب الأقوى هي الأكثر تقدماً والأكثر وعياً، ولكن القضية ليست كذلك فنحن نعرف أن الغرب في بداية تطوره أخذ من الثقافة العربية من خلال الأندلس، كما أن كتب المثقفين «كابن سينا» كانت تقرأ في الغرب، فاستطاع المسلمون أن يمنحوا الغرب التجربة كعنصر من عناصر المعرفة إلى جانب التأمل. هذا الذي أدى بالغرب إلى التقدم لأنه اعتمد على التجربة بالإضافة إلى التأمل كمصدر من مصادر المعرفة.

ولهذا علينا أن لا نسقط أمام قوة الآخرين بل نتوازن في فهم ما عندنا وما عند الآخرين حتى نستطيع أن نؤصل ما عندنا ونفهم ما عند الآخرين.

■ **نسمع البعض ينادون بالحرية وخاصة الشابات في هذا المجتمع. فما هو رأيكم في هذا الموضوع؟**

نحن نعتبر بأن الإنسان حر وبأن الحرية أصيلة في حياة الإنسان والله خلق الإنسان حر العقل، فلم يضع أمام عقله أي حاجز، فللعقل أن يطوف في كل آفاق الفكر، وليس هناك مقدسات في التفكير ولا في الحوار.

من حق الإنسان أن يفكِّر في أي شيء وأن يحاور في أي شيء، لأن الحقيقة هي بنت الحوار. ولكن لا بد للحرية أن تكون مسؤولة، ومعنى المسؤولية يعني أن لا ينطلق الإنسان بطريقة مزاجية بل بطريقة أن التفكير سوف يقود إلى الانتماء، والانتماء يقود إلى الحركة في الحياة. ولذلك لا بد للحرية أن تكون مسؤولة، ومعنى المسؤولية يعني أن لا ينطلق الإنسان بطريقة مزاجية بل بطريقة أن التفكير سوف يقود إلى الإيمان، والإيمان يقود إلى الانتماء الذي يقود إلى الحركة في الحياة.

ولذلك لا بد للإنسان من أن يضمن بحركته الفكرية الأليات والأدوات والعناصر التي تؤصل فكره ولا تجعله مختلطاً بحالة ذاتية مزاجية أي بطريقة المؤثرات البيئية وما أشبه ذلك التي تجعله يقلد هذا وذاك.

وهكذا عندما يتحرك الإنسان في الحوار لا بد أن ينطلق من خلال الرؤية العقلية لما يتحاور به الطرفان، والثقافة العلمية لهذا وذاك. وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: «ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم».

الحرّيّة المسؤولة:

أما في الحياة العامة فمن الطبيعي أن حرية الشاب وحرية الفتاة تنطلق من خلال الخط الفكري الذي يؤمنان به، ومن الطبيعي أن يكون لكل خط فكري ديني أو غير ديني خطوط تفصيلية في مسألة السلوك والعلاقات، ولهذا لا بد أن تكون الحرية مسؤولة.

إنّ المشكلة التي نعيشها في واقعنا الإسلامي هي أننا أخذنا من الإسلام شيئاً وأخذنا من الغرب شيئاً آخر، فأصبحت حياتنا تعيش الازدواجية، تماماً كالإنسان الذي يخلط في الهندسة بين الديكور الشرقي والغربي، فلا يكون شرقياً ولا غربياً.

أصالة الانتماء:

أننا نؤمن بأصالة الانتماء والقاعدة التي تتحرك فيها الحرية، فلا يجوز أن نخلط بين حرية سلوكية تنطلق من قاعدة فلسفية معينة وحرة وقاعدة للحرية تقول أن الإنسان حُرٌّ في أن يضر نفسه أو أن يدمر حياته، لأن الإنسان عبد الله وملك الله، فلا يجوز أن يتصرف بجسده إلا فيما يرضاه الله، والله لا يرضى إلا لما يصلح حياة الإنسان على المستوى المادي والروحي.

■ **لماذا كان الزواج اكمالاً لنصف الدين؟ وهل يكون الأصلح للشاب أن يتزوج باكراً على الرغم مما يعانيه في ظل الأوضاع الاقتصادية الصعبة؟!**

نعتقد أن القضية الجنسية هي من القضايا التي تعيش في كيان الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة، لأنها تعيش في داخل تكوينه ومشاعره التي تضغط عليه، ولذلك اعتبر الإسلام أن من تزوج فقد أحرز نصف دينه وفي رواية أخرى ثلثي دينه، لأنه عندما يعيش الاكتفاء الجنسي فإنه يشعر بالاطمئنان، والراحة والهدوء، ليتفرغ إلى أمور أخرى في حياته.

فنحن نشجع الزواج المبكر. أما الحديث عن أن الزواج لا بد أن يكون بعد نضوج الشاب

والفتاة وبعد استقلالهما المادي والحياتي، فنحن لا نوافق على ذلك، لأن من الممكن جداً أن الشاب والفتاة اللذين يتزوجان زواجاً مبكراً، أن يعيشا داخل العائلة، وأن ينموا في رعاية الأهل، حتى أنني كنت أطرح كما طرح أحد المفكرين البريطانيين (بريتراند راسل) عندما تحدث عن مشاكل الشباب الجنسية في الجامعة، إذ ليس من الضروري أن يكون هناك بيت وشقة وأن يكون كامل الأثاث، حيث لا يستطيع الشاب أن يصل إليه إلا في الثلاثين أو الأربعين، ويمكن لغرفة شرعيّة أن تكفي وقصة الأولاد يمكن أن تحدد بتنظيم النسل بشكل شرعي.

التعاون على الحياة :

وكذلك هنالك الزواج المؤقت الذي لا بد أن يخضع لضوابط وليس بالشكل الفوضوي الذي يمارسه البعض، لذلك من الممكن جداً أن تؤكد بشكل أساسي حل المشاكل تفصيلياً والتي تحدث من خلال ذلك.

من المشكلة أن التقاليد جعلت للزواج تهاويل معينة وتقاليد وعادات وأوضاعاً أثقلت الزواج. إن من الممكن للزواج أن يتحرك بشكل طبيعي : أن يتعاون الشاب والفتاة على حياتهما منذ البداية، وأن يصبرا على شظف العيش كما صبرا عند عائلتهما الفقيرة، حتى أن التشريع الإسلامي لا يمانع أن تطلب الفتاة من أهلها أو من المجتمع أن تتزوج وهذا ليس مألوفاً عندنا، فتأخير سن الزواج للفتيات يحول أكثرهن إلى عوانس بسبب ثقل العادات والتقاليد، إذ أن شؤم المرأة غلاء مهرها.

■ سياسة الحوار والانفتاح هي ما عرفت وتعرف به على المستويين الداخلي والخارجي حتى أنك ما زلت تنادي بهذه الدعوة على الرغم من الانتقادات اللاذعة التي وجهت إليك، فما هو

جوهر هذه الدعوة العظيمة لدرجة أنها لم يستوعبها البعض؟

إنني أتصور أن أي فكر إنما ينمو ويتبلور ويبدع ويتأصل في كيان الإنسان على مستوى الحاضر والمستقبل عندما يبسط في الهواء الطلق، حيث يتنفس ولا يتعفن، فعندما يتحرك في الفكر الإنساني ينمو، ويتطور.

لذلك فإنني أعتقد أن الفكر بما فيه الفكر الديني الذي هو صنعة الإنسان في فهمه لكلام الله أو كلام الرسول أو كلام الأئمة (ع)، إننا نعتبر أن كلام الله هو كلام معصوم وأما توثيقنا لما روي عن الرسول والأئمة، فهو فهم بشري وتوثيق بشري من جانبنا قد نخطئ فيه وقد نصيب، وقد يخطئ الأولون ويصيب المتأخرون أو بالعكس.

لذلك طرحنا فكرة أن كل شيء قابل للحوار، ولا مقدسات في الحوار، وعلينا أن نتحاور في كل شيء وأن نهيئ وسائل الحوار وآلياته ومفرداته من خلال الفكر المرتكز على العلم والبرهان والحجّة. ونعتقد أن الذين يخافون من الحوار هم الذين لا يملكون اقتناعاً بما عندهم لأنهم يخافون من أن يكتشف لهم الآخرون من خلال الحوار خطأهم في الفكر، وبعض الناس يحبون أن يجمدوا على ما ألفوه لأن الإنسان عندما يبتعد عما ألفه يشعر بالغربة على حد قول المتنبي:

خُلِقْتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكياً

هكذا نحن نعتقد أننا لا نستطيع أن نؤصِّل أي فكرٍ سواء كان دينياً أو غيره إلا إذا فتحنا أعماقه ليتنفس الهواء ويعيش تحت أشعة الشمس، حتى لا يتعفن ولا يموت. ومن الطبيعي أن الذين يحملون أصالة الفكر لا بد لهم أن يُرْجَمُوا بالحجارة من الذين يعيشون التخلف، ويعيشون على الهامش الثقافي الإنساني.

■ **سماحة السيد في نهاية حديثنا بماذا تحب أن تتوجه للشباب ككلمة أخيرة؟**

نقول: إنكم تمثلون زاد المستقبل وتمثلون الطليعة التي تصنع مستقبل الأمة، وعليكم أن تنطلقوا من خلال الفكر الذي يؤصل للإنسان إيمانه وانتماءَهُ وحركته. لأن عليكم أمام كل هذه الجبال من التحديات والمشاكل والضغوط القاسية التي تتحرك في الجانب الاقتصادي والأمني والسياسي والثقافي أيضاً، أن تنفتحوا على الإيمان بالله الذي يجعل الإنسان يعيش الأمل حيث لا أمل، «ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً».

كونوا واقعيين ولا تكونوا خياليين، لا تسقطوا أمام المشكلة ولكن اقتحموها في الداخل حتى تعرفوا عناصرها ثم تفكروا في الحل بعد ذلك. لا تعتبروا أن فشلكم في التجربة هو فشل الفكرة، فإذا فشلت ألف تجربة فيمكن أن تُجرِّب تجربة واحدة بعد الألف حيث قد نلتقي بأصالة الفكر فيها.

واجهوا الحياة على أساس أنكم مسؤولون لتتحملوا مسؤوليتكم في الحياة ولتواجهوا حساب المسؤولية أمام الله «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها». إن شبابكم أمانة الله عندكم اتجاه أنفسكم واتجاه المجتمع كله، كونوا في مستوى المسؤولية والله يوفقكم. وفي هذا المقام أتوجَّهُ إليكم مِمَّا أذكر في قصيدةٍ لي نشرت في ديوان على شاطئ الوجدان:

هذا الشباب: الطالع النشوان.. من خمر الحياة
الظامئ الصادي إلى فيض الهوى بين الشفاه
يجري ولا يدري المصير.. وأين منه أن يراه
ويهيب بالدنيا نداه لتسمع الدنيا نداه
هيا إلى سبل الهناء فما الحياة سوى الرفاه
والكون.. إن الكون روض.. فلنمتع في رؤاه
... ويعود صفر الكف يذوي كالهشيم على ثراه

ماذا ترى صنع الشباب مع الحياة وما جناه

*　*　*

هذا الشباب يسير دون هدى، فيخدعه السراب
ودروبه.. مغبرة الأرجاء يغمرها الضباب
وحياته.. حلم يموت.. يغور في عمق التراب
ورؤى من الدنيا.. تغشيها غيوم من عذاب
وهواجس تطغى عليه، تموج في القلب المذاب
ما بين حب خافت النجوى وشك وارتياب
خنقته ثائرة الحوادث بين أحلام عذاب
وظلام دنيا راعها، أن ينجلي فجر الشباب[1]

ماهية الحياة:

■ طقوس الموت في الإسلام تدعو للدهشة والاحترام، وكأن لحظة وداع الميت هي لحظة احتفال بولادة الإنسان من جديد، وهنا أتذكر قول النبي: «الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا». عندما يموت الإنسان إلى أين يذهب؟

عندما نريد أن نتمثل الموت في الفكر الديني، فإن الفكر الديني هو الذي ينشأ عنه الإحساس بكل الواقع الذي يعيشه الإنسان، إننا عندما نتصور الموت في الفكر الديني، فإننَّا نتصور أن الفكر الديني يرفض الموت في معناه العدمي. ليست هناك حالة عدم، الإنسان خالد، لا يموت، ولكنه ينتقل من حالة إلى حالة كما عبر عن ذلك أبو العلاء المعري الذي كان يعبر عن الفكرة الدينية بقوله:

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ط١، دار الريِّس، ص: ٩٢. قصيدة (من صور الشَّباب)

«خُلِقَ الناس للحياة فضلّت أمة يحسبونهم للنفادِ

إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد».

إن المعنى الديني يعطي الموت معنى الحياة، ليتصور أنها نقلة من حياة إلى الحياة؛ كان الجسد يتحرك فتجمد ولكن الروح تبقى. كيف تعيش؟ كيف تنطلق؟ هناك حالة من الغموض الضبابي السحري الذي يعيشه التصور الديني لأجواء الموت ولكنك تدخل في تفاصيل هذا التصور، فإنك تلتقي بالقيامة، وتلتقي بالحياة التي تضج بكل حركة المسؤولية في نتائجها وتلتقي بكل الأجواء المليئة بالآم العذاب التي تعيشها في النار، هناك حياة تضج بحيث لا تترك لك أي مجال تشاهده، أما الحياة هناك فأنت تتمثلها الآن في أحاسيسك من خلال ما تعيشه من أفكار، لأنك لا تملك أية معطيات تستطيع أن تربطك بالحياة الآخرة بشكل حسيٍّ.

ماهيّة وقيمة الحياة:

■ هنا أود أن أسألك، هل الذين انتحروا عبر التاريخ كانوا يشعرون أكثر من غيرهم بعظمة الحياة الأخرى فاستعجلوا الموت؟

إنك عندما تريد أن تتحدث عن الذين انتحروا، فلا بدّ لك إلا أن تدخل إلى عمق المضمون الانتحاري في شخصيتهم، لماذا انتحروا؟ هناك فريق من المنتحرين عاشوا التعب من الحياة الحسية، وعاشوا الاختناق من الحياة بفعل الضغوط التي أطبقت على أحاسيسهم ومشاعرهم فانطلقوا إلى الانتحار من خلال ما كانوا يعيشونه من حالة ضبابية، تماماً كما هو الليل عندما يطبق بأمواجه في الأفق، أو ما هي الأمواج في الليل المظلم عندما تحس في بعض الحالات التي يضغط فيها عليك الواقع بأنك تريد أن تندمج فيها وأن تعيش في أعماقها بعيداً عن أية حالة عقلانية، وإنما هو الشعور يقودك لتشعر بأن الظلام يمثل حالة حميمة تستطيع أن تحضنك وتستطيع أن تخلق لك الهدوء وأن تجعلك تعيش في أجواء ليس فيها حواجز ولا حدود ولا

موانع، كما هي أمواج الظلام في الأفق. أو كما هي الأمواج في البحر.

هناك الكثير من المنتحرين يتصورون جواً ضبابياً يشبه الأمواج ليغيبوا به. أما ماذا يكون فإنهم لا يملكون أية حالة شعورية أو عقلانية في ذلك؟ لأن مسألة أن يتخلصوا من الواقع الذي يعيشونه إلى واقع كيفما كان، قد يتصورونه سحرياً، وقد يتصورونه عدماً لا مجال فيه لأي إحساس يعذبهم ويلح عليهم ويخنقهم.

وقد نجد أن هناك بعض المنتحرين الذين يعيشون الانتحار حالة حية، أو حالة عقلانية. حالة تعب من كل أثقال الذات، وكل حالة المعاناة التي يطوونها بالجسد فيما يُخيل إليهم، إن روحهم تعيش سجن الجسد. ولذلك فهم يهربون إلى الموت كحالة انطلاق من سجن الجسد إلى حالة الانطلاق اللانهائي في حركة الروح في أجواء الآخرة، أو في الأجواء الساحرة، أو في أجوائها الخاصة. كما نتطلع إلى ذلك في ما يمارسه البوذيون والذين يختزنون هذه الفكرة في أعماقهم.

هناك حالة قد نعبر عنها بالانتحار عندما ندرس المسألة الجسدية، لكننا نعبر بها التعبير الأساس الذي تتمثله الحالة في طبيعتها المرتبطة بالهدف وهي أدلة الشهادة.

إن الشهيد هو إنسان منتحر، في ما يمثله الانتحار من حالة جسدية تجعل الإنسان يقدم إلى الموت باختياره. ولكنَّ الحالة تطل على الآفاق الكبيرة في الحياة التي يؤمن بها، من خلال ما ينتظره من آفاق رائعة روحية يلتقي فيها بالله، ويلتقي فيها بالحياة التي يطل عليها بشكل مباشر كما يتصوره المؤمن الذي يعيش حركة الشهادة.

لذلك فنحن لا نستطيع أن نعتبر الانتحار ظاهرة إنسانية في تمثل الإنسان للموت بحيث يمكن أن تعطيها تفسيراً واحداً، لأن المسألة تعيش في خلفيات الجانب الفكري والشعوري للإنسان المنتحر.

■ **الإسلام ركز على فعل وقول الجماعة وربما اسم «جامع»دلّ على معنى الجماعة. والسؤال: أرى فردية مميزة في الإسلام ظهرت بشخصية «النبي محمد» و«الإمام علي» وصولاً إلى «الإمام الخميني»، أتوافق معي على ذلك؟**

لا بد لنا أن نقف وقفة تأملية أمام هذا السؤال: إنني أتصور أن معنى الجماعة في ما هي حركة الإنسان الجماعية التي يتكامل فيها الأفراد نحو هدف واحد، لا بد أن تطل على شخصية الفرد من جهتين، الجهة الأولى هي شخصية القائد الذي يعيش في داخل فكره روحية الجماعة من خلال مسؤوليته عن الأهداف التي تؤدي بالجماعة إلى النتائج الكبيرة، ومن خلال إحساسه بمعنى الجماعة في كل عناصر شخصيته. وبذلك لا يكون القائد فرداً في ما هي الفردية التي يعيشها في نوازعه الذاتية، بل يكون الفرد حالة مجتمعية، لكن في ما هو الفكر وفي ما هو الإحساس وفي ما هي الحركة وفي ما هي المعاناة.

القائد ليس حالة فردية، لأنه لا يجلس مع ذاته عندما يفطر، وإنما يجلس مع الجماهير التي يقودها ويتحسس مسؤوليتها ويعيش معاناتها عندما يتحرك. إذن لا تعود الفردية مجرد حالة ذاتية، بل تعود الفردية هي حالة تنطلق لتأخذ من عناصر الذات ما تستطيع من خلاله أن تغني عناصر المجتمع، وبذلك فإننا عندما ندرس الأنبياء والأئمة والعلماء الرساليين والمجاهدين فإننا قد نتطلع إليهم كأفراد عندما نعيش في حجمهم البشري الإنساني، ولكننا عندما ننفذ إلى داخلهم فإننا نرى أن الأمة تتحرك في كل أوضاعهم، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم عندما عبر عن إبراهيم: «إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله». إنه يعبر عن الشخص بأنه أمة باعتبار أنه يعيش تطلعاتهم.

وحتى المجتمع، إنما هو المجتمع الذي يتحرك في الحالة الجماعية أو المجتمعية من خلال الفرد. حيث يعيشُ الفرد حالة الإحساس بالتكامل مع الآخر فيؤلف معه حالة اجتماعية، وهكذا...

لذلك إننا لا نعتقد أن هناك أي انفصال بين ما هو الفرد المسؤول، كما أن الفرد يعيش في

حركة المجتمع في دائرة الاختيار والمعاناة.

كلمة أخيرة ودعوة من القلب:

إن الفكرة التي أحب أن أطرحها في كل الآفاق التي تعيش فيها إنسانيتنا، سواءً كانت آفاق الفن، أو آفاق الإيمان، أو أفاق الحركة السياسية والاجتماعية، وإن ما أحب أن أثيره، هو أن علينا أن ننفتح على كل ما نريد أن نفكر فيه وأن نعيشه في الهواء الطلق.

أن نتنفس إنسانيتنا في آفاق حريتها، في ما هي حرية الفكر والشعور والإحساس، لأننا عندما نعيش آفاق الحرية ونبتعد عن الصيغ التي تقدم إلينا جاهزة من دون أن نختار أنفسنا فيها فإننا لن نستطيع أن نبدع شيئاً للحياة ولا للإيمان ولا للإنسان.

إنني أحب أن أثير أمام كل الناس الذين نعيش معهم في كل قضايا المصير، أياً كان تصورنا للمصير.

ودعوتي إلى أن نعيش قلق الفكر وقلق المسؤولية، وقلق الانطلاق إلى المجهول لنكتشف فيه كل أعماقه، وقلق الإبداع، إبداع إنسانيتنا في كل ما يمكن لها أن تعني الحياة وفي كل ما يمكن أن تغتني به من الحياة وعند ذلك فإننا نستطيع أن نكتشف الله في إنسانيتنا وأن نكتشف الله في الحياة، وأن نشعر أن إنسانيتنا وحياتنا لا تبتعدان عن الله عندما نفهم القضية بالطريقة المنفتحة المتحركة في خط الإبداع.

المحور السابع عشر:

الأدب الإسلامي
في مفهوم سماحة السيّد الشاعر

معنى الأدب الإسلامي

ليس معنى أن يكون الأدب إسلامياً هو أن تتحدّث فيه عن الإسلام بطريقة تقريرية، وبطريقة انفعالية، ولكن ليكون الأدب إسلامياً، عليك أن تتعامل مع اللفتة واللمسة، ومع الإيحاء ومع كل الكلمات التي تحمل المعنى بطريقة تصل فيها مشاعر الكلمة إلى أعماقك قبل أن تصل إلى أذانك.

أن يكون عندنا أدب إسلامي، وللأدب قواعده، وللأدب ضوابطه، وللأدب إيحاءته، ولهذا فإننا نحتاج إلى أن تكون للشاعر ثقافته الأدبية، وأن يكون للأديب حسّه الأدبي وأدواته الأدبية.

لهذا لم يعد الشعر في الواقع الذي نعيشه مجرد أوزان تحتضن معنى، أو تحتضن كلمات، ولكن الشعر تطوّر، ونحن نحتاج إلى أن نتطوّر في أساليب التعبير، لئلا نعيش في هذه المرحلة من حياتنا بالأدوات التعبيرية التي كنّا نعيشها قبل ألف سنة، الكلمات تبقى، ولكن كثيراً منها يموت، هناك كثير من الكلمات في القاموس تموت، لأنها لا تتماشى أو لا تنسجم مع كثير من أجواء الإنسان في الحياة ومن تطوّرات التعبير في حياة الإنسان.

موت وحياة الكلمة:

لهذا.. الكلمة لا بد أن نواجهها، هل هي كلمة حية يحتضنها حسّ الإنسان؟ أو أنها كلمة ميّتة.. ماتت لأن الإنسان لم يعد يستعملها. وهكذا الأساليب، ليس من الضروري

دائماً أن نأخذ كل أسلوب، لقد ولدت عندنا في الشعر أساليب، وصاحَ أناسٌ علينا أن ننطلق إليها، لأنها أساليب العصر، وعلينا أن نترك أوزان الخليل. وقال أناسٌ، إن أوزان الخليل تراثنا، إن الأذن الموسيقية قد تعاملت، وقد عاشت وقد تربت على تلك الموسيقى الشعرية، فلن يتقبلها الناس إذا لم نستمر في هذه الأوزان. ولكن هذا تطرّف وذاك تطرّف.

إننا لا بد من أن نعترف لأنفسنا أن الشعر الذي نمارسه لم يتجمّد في أوزان الجاهلية، بل جاء العصر الإسلامي، واستطاع أن يعطينا كثيراً من أساليب الشعر، استطاعت الأندلس أن تعطينا الموشّحات، واستطاعت بعض المراحل أن تعطينا (البند) واستطاعت كثيراً من المراحل أن تعطينا أساليب أخرى في الشعر أيضاً. لماذا نتعبّد، وهل في الأسلوب التعبيري تعبّد؟! لماذا نتعبّد لأوزان كانت مجرد حالة موسيقية يعيشها شاعر انطلق بها وجاء شاعر آخر فاحتذاه؟

موسيقى الحياة :

إننا نستطيع أن نبتدع أسلوب التعبير وفي الكون كثير من الموسيقى التي تغرّد بها البلابل، أو يتحرك فيها حفيف الأشجار أو خرير الينابيع، ونستطيع أن نأخذ منها للشعر موسيقى كثيرة ومتنوعة. لنا أن نأخذ بالأسلوب الحرّ في الشعر بشرط أن يبقى شعراً، ولا يتحوّل إلى نثر. ولنا أن نبقي الأسلوب القديم بمقدار ما يستطيع أن يحلّق من الناحية الفنية في أجواء الإبداع.

الشعر الإنساني:

لا بد لنا ونحن نواجه تطوراً في الأدب، وتطوراً في الشعر، ونوجه ارتفاعاً في مستويات الإبداع عند الآخرين، إن علينا أن نتحرك في الساحة لنصل إلى مستوى الإبداع، لنطلب شعرنا ليكون شعراً عالمياً، ليكون الشعر الذي يحسّ به الآخرون بأنه شعر الإنسان الذي يتحرك من

خلال مفاهيم الإنسان في الإسلام، حتى نستطيع أن نحرك الشعر في مجال الدعوة، لا بشكل مباشر، لكن بشكل غير مباشر، لأن الآخرين ربما يمتنعون عن أن يسمعوك إذا تكلمت بطريقة مباشرة، وأعلنت عن فكرك، ولكن قد تحتاج إلى أن تخاطب الناس بـ (ابن عم الكلام) حتى يتحرّك الناس من خلال ابن العم، لينطلقوا على الذات إلى أساس ذلك.

رسالية الأدب :

لهذا أن تكون أديباً، أو أن تكون شاعراً، ليس ذلك امتيازاً، إنها مسؤولية، مسؤولية أن تتقن، وأن تبدع، وأن تتحرّك في الآفاق الكبيرة، لتعتبر أن أدبك جزء من حركة رسالتك، وأن شعرك جزء من حركية هذه الرسالة. هذا ما نريد أن نصل إليه، أن نركّز على الأسس الفنية للأدب الإسلامي، وأن نركّز الأسس الفنية للشعر الإسلامي، ليكون عندنا شعر يفرض نفسه على ساحة الإبداع، حتى وهو يتحوّل إلى داعية للإسلام، لا أن يكون شعراً تقريرياً يتحدث بلغة الشعر تماماً كما يتحدث باللغة العادية.

الفصل الثاني

المحور الأوّل:

قراءات جملة من الأُدباء والمفكّرين والشُّعراء والباحثين في تجربة سماحة السيّد الشِّعريّة ومن وحي قصائده بعد صدور دواوينه الثلاثة:

قصائد للإسلام والحياة

على شاطىء الوجدان

يا ظلال الاسلام

القراءة الأولى:

تأملات في شعرية العلامة محمد حسين فضل الله
«الشعر العربي في تجاربهِ الأخيرة لم يعد عربياً»

د. جورج جحا

١٩٩٠/٦/٢٣

شعر النخبة

«في تصوري أن هذا الشعر ليس شعراً عربياً في ما يعبر عن الإنسان العربي كما إنه لا يستطيع أن يخدم هذا الإنسان لأنه أصبح شعر النخبة التي تعيش في أبراج عاجية عالية ومسورة... لذلك أصبحت النخبة تتحدث مع بعضها كما لو كانت لها لغة خاصة».

السيد فضل الله ليس ضد النخبة «بشرط ألا تعيش العقلية النخبوية. النخبة يمكن أن تمثل مستوى فكر، لكن عليها أن تعيش الذهنية الإنسانية التي تستطيع أن تتحرك مع الإنسان لتفهمه وتأخذ منه وتعطي».

ويجيب عما يمكن أن يكون الرد على رأي كهذا فيقول «على هذا الأساس يمكن أن يقول الشعراء المحدثون إننا من جيل تعودت أذنه على موسيقى معينة للشعر، أو من جيل تعودت ذهنيته على أسلوب معين من الفن ولكل جيل لغته...

«أنا أتصور إنني أستطيع أن أتحدث عن مجموعة من الجيل الجديد جيل أولادنا الذي يعيش تطور الموسيقى واللفتة الفنية. حتى هؤلاء لا نشعر بأن هذا الشعر يهزهم».

أضاف «لا أريد أن أتكلم بالمطلق. هناك تجارب جيدة ناجحة... لكن يبدو أن هناك ذهنية أصبحت تقول إنك بمقدار ما تكون معقداً أكثر... تكون مبدعاً أكثر».

وقال السيد فضل الله «مثلاً عندما أقرأ بدر شاكر السياب وحتى صلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري وآخرين من هذا التيار أحس بعمق التجربة الفنية وبامتدادها. لكن عندما أقرأ عبد الوهاب البياتي الذي تكتب عنه الكتب والمقالات الكثيرة لا أستطيع أن أهتز أو انفعل أو أشعر بأية حالة تغيير في نفسي».

في طريقك إلى منزل العلامة فضل الله الذي لا يكاد يوم يمر في عالم السياسة في لبنان والمنطقة دون تصريح له أو مقابلة معه صحفياً أو إذاعياً أو تلفزيونياً تتساءل في نفسك كيف ستكون المقابلة في موضوع آخر قد تكون الاحداث المتتابعة أبعدته عنه.

تصل إلى المنزل. حراس وترتيبات أمنية مشددة ومريدون وزوار. تدخل إلى قاعة الانتظار ومنها إلى مكان الاجتماع وتجلس وقد هيأت آلة التسجيل والأوراق.

حديث الشعراء: لم يعد عربياً!

يدخل العلامة فضل الله وبعد الترحيب والسلام تبدأ المقابلة ويأتيك الرد على التساؤل الذي دار في نفسك وأنت في الطريق.

تسأل فيجيبك في فيض ويسر وبشر ويبعد عنك أي شعور بالحرج يلحظ أنه انتابك. يتكلم بارتياح وعيناه تتألقان بحبور.

شعورك وشعور زميلك واحد وهو أنه قليلاً ما يكون على هذا الارتياح في المقابلات السياسية.

في طريق عودتك تتساءل أين هو عالم السيد محمد حسين فضل الله الفعلي الشعر أو السياسة أو الاثنان معاً.

ولد السيد محمد حسين فضل الله حوالي سنة 1936 في النجف الأشرف في العراق حيث كان والده أستاذا في الحوزة العلمية وكانت «دراستي وشبابي أغلبه هناك» وهو من عائلة مسلمة شيعية من عيناتا بقضاء بنت جبيل في الجنوب اللبناني.

للسيد فضل الله مؤلفات عديدة بينها ديوانان شعريان مطبوعان هما «قصائد للإسلام والحياة» ورباعيات «يا ظلال الإسلام» وله مجموعة تصدر قريباً عن دار رياض نجيب الريس في لندن. (على شاطئ الوجدان)X.

تسأله عما إذا كانت دراسته الدينية تقليداً أو اختياراً فيجيب أنه يمكن وصفها بالتقليد العائلي، لأن عائلته دينية وقد بدأ الدرس في الحوزة العلمية وعمره ١٢ سنة «ولا أعرف كم هي دقيقة كلمة اختيار.. أنا عشت في النجف وربما لم أشعر بنفسي إلا أنني أنسجم مع هذا الجو وأنسجم مع نفسي».

تحدث عن الجو المنفتح في النجف حيث «بدأت أنظم الشعر بشكل عفوي وعمري عشر سنوات... جو النجف هو جو شاعري. النجف تعتبر من البلدان التي يتزاوج فيها الأدب مع الفقه وقد خرجت شعراء كباراً مثل محمد سعيد الحبوبي ومحمَّد مهدي الجواهري».

الانفتاح الذي أشار إليه، وفي الوقت نفسه، ضيق الجو قد يؤديان إلى ما أسماه مرحلة «المراهقة التشاؤمية».

«المراهقة التشاؤمية» التي يحدث عنها السيد فضل الله قد تكون تعبيراً آخر عن السمات الرومانتيكية[١] التي برزت في عدد من قصائده في فترة مبكرة شأنه في ذلك شأن كثير من الشعراء. ورد بعض هذا في «قصائد للإسلام والحياة» المطبوع سنة ١٩٨٤ والذي يتضمن أعمالاً يعود بعضها إلى منتصف الخمسينات. وقد وصف محتوياته في المقدمة بقوله أنه ربما كان فيها بعض ما لم يعد يمثل اتجاهاته الفكرية ومشاعره الحالية.

مظاهر الرومنسية

من هذه السمات الرومانتيكية المعروفة الشعور بالحزن والغربة والوحدة والبعد عن المجتمع. لكنها في غالبها تحافظ على توجهها إلى الله ومخاطبته:

«أنا يا ربٌّ تائه وغريبٌ   لا يرى في الحياة ورداً هنيًا

X على شاطئ الوجدان، صدر بطبعته الأولى عن دار رياض نجيب الريس ـ لندن ـ تاريخ : ١٩٩٠.

(١) الرومنطيقية حركة أدبيّة شاعت في أوروبا تقول بالعودة إلى الطبيعة.

أنا مالي وللمحيط فكم يجني   على فكرتي ويقسو عليًا
وأراني أعيش في سجنه الداجي   وحيداً بينَ الأنام شقيّـاً

ومن ذلك **قوله**:

«أنا هنا يا رب خلقتني... وحدي في الأرضِ فلم أتقِ»
«يا صفاءَ السماء يا زرقة الصحو أمام المجاهل البيضـاءِ»
ضمني في بحيرة النور إِني سابحٌ في بحيرة من دمـــاءِ
إِنني ها هنا يعربد فيَّ اليأسُ والحزن في الخطى العميـــاءِ
يا صفاءَ الحياةِ يا حلم الروحِ.. التي غطيت بألف غطـاءِ
وأثار العجاج بالرمل عينيها.. فتاهت في مهَمهِ الصحــراءِ
أنا حسبي الصفاء يا رب إِني .. أهرق النفس في كؤوس الصفاءِ»

وقال السيد فضل الله إنه بعد تلك الفترة «صارت الاهتمامات أقرب إلى التفاؤل أو أقرب إلى الجدية».

وحتى بعد حوالي ٢٠ سنة كما في قصيدة «في رحاب الفضاء» التي نظمها خلال رحلة في الطائرة سنة ١٩٧٨ تبقى هذه السمات بارزة وإِن «تلبست» أفكاراً صوفية عن النفس:

الالتزام:

تقول إن شعر السيد فضل الله «ملتزم» إلى حد بعيد وإن ذلك يجعل نتاجه الفني «مظلوماً» أحياناً حيث تتدخل الغاية الإصلاحية لتقطع مدى المعاناة النفسية وتضعها في «الخط الإصلاحي» المطلوب.

يرد بقوله «من الممكن ألا يكون هذا الشيء متكلفاً.. عندما تعيش أجواء «الرسالة» فإنك لا تستطيع أن تبتعد عن نفسك. أنني لا أحس بوجود انفصال من ناحية فنية بين ما أنا وبين

الرسالة ».

وقال « أنا لا أؤمن بمسألة أن تفرض على الشاعر التزاماً. الشعر مثل الماء والهواء لا تستطيع أن تعلبه لكن في كثير من الحالات فإنّ الهواء بطبيعته يحمل بعض الخصائص والماء يحمل بعض الخصائص ».

وتحدث عن خصوصية « مختلفة في الالتزام قد لا تكون سياسية أو إصلاحية ».

وقال « قد يعيش شاعر الإحساس ببعض القضايا الإنسانية التي لا تقترب من السياسة.. لكنك تجد أن هذا الشاعر لا يمكن أن يعيش المطلق ».

أضاف « الخصوصية سوف تحدد للشاعر حركته أيا كانت الخصوصية.. بعض الحالات الخصوصية تنسجم مع ذهنية القارئ. عند ذلك يرى أن الشاعر يعيش الانسجام... وعندما لا تنسجم فهو يحاول أن يعطي الشاعر فكرة تجريدية يحبها.. وهو يدخل حبه في الحكم».

تسأل عن الوضوح في نتاجه الشعري الذي يأتي في شكل مباشر أحياناً بينما « خطابه السياسي » هو غالباً أقرب إلى الشعر فالكلمة فيه لها ظلال وألوان وقبل وبعد فكأنها تقترب من بعض أقوال الرمزيين في الشعر.

يجيب العلامة فضل الله بقوله « في كل نتاجي الأدبي والثقافي... عندماكانت الكلمة تتحرك كانت تفرض نفسها عليَّ أكثر مما أفرض نفسي عليها...

وأشعر بأنه في كثير من الحالات فإنّ الكلمة تعطي مضموناً لم أقصده ولكنني كنت أتبناه لأنني أشعر بأنه يمثل في العمق الإحساس الذي قد يكون في بعض الحالات حالة لا شعورية.

« من الأمور التي أحب أن أكشفها أنني في أغلب الخطب والتصريحات والأحاديث لا أحضر ما أصرح به... هناك أفكار.. تأتي عائمة... نصوص معينة... أما كيف تتطور الفكرة كيف تمشي كيف تواجه... كيف تنفجر...فهذا دفق انسيابي... ».

وقال « ربما في بعض الحالات قد اهتز أنا لما أتكلم كما لو كان كلام شخص آخر غيري...

لكن في جميع الأحوال.. الكلمة التي تفرض نفسها علي لا تبتعد عني».

تحدث عن تأثره بالجواهري والأخطل الصغير (بشارة الخوري) والياس أبو شبكة وأحمد شوقي وغيرهم. وقال إنه نظم قصيدة ووقعها باسم الفرذدق الصغير؟

تشير إلى أنه كتب الشعر العمودي والشعر الحر المتعدد القوافي والأوزان.

موسيقى الشّعر:

يقول «أنا لا أتعقد من الوزن ولا أعتبر أن الموسيقى يمكن أن تصدر بمرسوم. موسيقى الحياة مثل خرير الأنهار أو موسيقى الشلاّل.. المهم أن يقول الشاعر بموسيقى أما تفاعيله وكيف تكون فهذه تخضع لطبيعة تطور الإحساس الموسيقي.

وعن نتاج الحرب اللبنانية يقول «لم أقرأ حتى الآن أي شيء يمكن أن يعبر عن العمق الإنساني في المحنة... الحواجز النفسية التي خلقتها الأجواء السياسية تجعل الإنسان لا يفكر في إنسانيته ولكن في طائفتيه وحزبيته ومواقعه الإقليمية والمناطقية. فالحرب خربت وحزّبت حتى إنسانيتنا.

صورة رجال الدّين:

عن الصورة الشائعة عن رجال الدين يقول «ممكن أن التجربة التاريخية مع ما يسمى برجال الدين تركت أثاراً مثقلة (هي) أن لرجال الدين لغة لا يعيشون فيها إحساسهم بالمعنى وإنما يتحدثون تقليدياً كما يلبسون تقليدياً وكما يمارسون الطقوس تقليدياً.

تحولت الفكرة إلى أن رجل الدين ينبغي أن يكون مجرد قمة روحية يتطلع إليها الناس لتعطيهم الخدر وتعطيهم الراحة والطمأنينة.. لكن ليس من حقه أن يكون عنده فكر.. ليس من حقه أن يعبر عن إحساسه.. من حقه أن يعطي الناس أجواء خيالية حالمة ضبابية غيبية

ولكن ليس له الحق أن يتحرك في الواقع.

وقال «هناك نوع من أنواع الاعتداء الوحشي على إنسانية الإنسان في رجل الدين وهذه ربما صارت ذهنية معينة أصبحت تتنكر لرجل الدين الذي يعيش إنسانيته».

بعض نتاج:

ختاماً يتلو السيد فضل الله بعض نتاجه الشعري الأخير ففي قصيدة عمودية غنائية تؤكد مرة أخرى تشديده على الموسيقى في الشعر يقول:

«أنا يا ليلايَ ما زلتُ أغنيّ — للضُّحى حبّي وللإشراق فنّي
وحياتي فكرةٌ لم يكتملْ — في حنايا روحِها وحيُ المغنّي
شاقها النورُ فطارت نحوهُ — بجناحٍ من هواهَا مطمئنٍّ
أنَا يَا ليلايَ مهما يعتصرْ — من دمائي الليلُ في عسف التجني
فدمي قيثارةٌ تعزفُ لي — أغنياتِ النورِ في وحي التغني
وأنا عبَر المدى ما ضرّني — أَنني وحدي أحيَى وأغنّي
أزرع البسمة في دنيا غدي — وأثيرُ النورَ في أَطياف جفني
وأناجيكِ وحولي جنة — من رؤى فنٍّ ومن أطيابِ حسنِ
فأنا أخلقُ وَحْدِي جنتي — فأرى اللذة في أعماق حزني
فتعالي نقطع العمر معاً — بين لهوٍ وعذاب وتمني
وتعالي نبذل الحبَّ فما — العمرُ إن لم يهدمِ الحبُّ ويبني
غاية العمرِ حياةٌ يلتقي — في حناياها الضُّحى منكِ ومنّي»[1]

(صحيفة الديار البيروتية: ٢٣/٦/١٩٩٠) جورج جحا

أجرت التحقيق «وكالة رويترز للتّحقيق».

القراءة الثانية

خفقات قلب الفتى اليافع وهو يتطلّع إلى حريّة الإنسان

(جريدة القدس العربي)
٤/ ١٢/ ١٩٩٠
لندن

خفقات قلب الفتى اليافع وهو يتطلع إلى حرية الإنسان

محمد حسين فضل الله شاعراً، ليس من غرابة في هذا الأمر. لطالما تضمن الخطاب السياسي للداعية السياسي مجازا أو مفردة أو تعبيراً شعرياً. والجديد في الأمر كتاب صدر مؤخراً في لندن وضم 53 قصيدة للسيد فضل الله مسبوقة بمقدمة وتمهيد يعرف فيهما تجربته الشعرية. وقد سمى السيد كتابه «على شاطئ الوجدان»، وكلّ قصائده كتبت في مكانين (لبنان) و(النجف) في العراق وقد قسمها الشاعر إلى قسمين: «اللبنانيات» و «النجفيات» وهي قصائد فكر وبوح ووجدان صوفي وروحي يجسد حبيباً، فيجعل الحسي مجرداً والمجرد حسياً.

تثير المقدمة والتمهيد للكتاب الشعري الأول للسيد محمد حسين فضل الله «على شاطئ الوجدان» بعضاً من القضايا الأساسية المتعلقة بالشعر العربي الحديث، بصفتها ميزات له أو مشكلات يعاني منها.

فمنذ السطر الأول في ما اسماه «التمهيد» تاليا على «مقدمة» يقرر السيد فضل الله «إن الشعر العربي في التجارب الشعرية الأخيرة ابتعد عن أن يكون شعراً عربياً».

في المقدمة يعترف محمد حسين فضل الله أن قصائده هذه إنما هي ثمرة «الفترة القلقة الحائرة» من حياته وإذ هو يلمح إلى تجاوز فكره ومشاعره للفكر والمشاعر التي تضمرها وتبوح بها هذه القصائد ذات التواريخ القديمة وكذلك إلى تجاوزه أو اختلافه مع بعض التطلعات التي صدرت عنها هذه القصائد، إلا إنه يجد لاخراجها إلى النور، مسوغات قوية في تعبيره: «منحتني يقصد تطلعات الشباب] الكثير من الغنى في الإحساس والانفتاح على الحياة».

■ هذا في ما يتصل بمضمون التجربة الشعرية للقصائد. ولكن ماذا عن «الجانب الفني في هذه التجربة»؟

يترك السيد فضل الله للقارئ تحديد القيمة الجمالية لشعره، ولا يعفي نفسه تماماً من فكرة الوقوف على هذه القيمة، ولا يجد ضيراً في التصريح في خفر بأن «هناك أكثر من لفتة فنية جمالية في أكثر من نموذج من نماذجها، بحيث لا يكون الجهد في قراءتها واخراجها للقراء جهداً ضائعاً من الناحية الجمالية، مهما اختلفت المقاييس وتعددت الأذواق».

خلاصة، فإن مقدمة الكتاب طمحت وتوصلت إلى الإشارة إلى أن الذات المبدعة هي ذات تتحقق عندما تتصل فيها حلقات الأعمار، وما هذه القصائد إلا قطعة من حياة الشاعر» بكل آلامها وأحلامها» والشاعر إذ يقدمها، إنما يقدم «بعض ذاتي الذي شارك في تأثيراته الفكرية والشعورية في بناء بعض ذاتي الآخر الذي هو أنا الآن».

إن الجميل في هذا المسعى الشخصي لاعلان الذات من قبل مرجع ديني روحي وسياسي كالسيد فضل الله، أنه يستعيد الشعري الهش[1]، الصافي، الظليل، وبما يبدو لكثيرين هامشياً، إلى معترك الضوء، بكل ما يغذي هذا المعترك من صراع يقوم على القسوة وتأويل يغذيه القسر، وفصاحة تقوم على الزلفى.

ويخيل إليّ أن السيد فضل الله وقصائده إذ يتواجدان في مسرح أقنعة الكتابة ولاعبيها وجوقها، سيبدوان غريبين بصفتهما «الماضي» الذي هو «الطفل» الذي «لا يموت في الشاب» و«لا يفنى في الشيخ» ولا غرو، أن يمر الشعر بكل ما يحيط به من اعترافات، جعلته يعود غريباً وخجولاً وخائفاً تعوزه ثقة كاذبة هي ديدن الكتابة عليه وسلاحها. «بدأ الشعر غريباً، وغريباً سيعود الشعر».

هذه الكلمة لشاعر «صديق هو عبد القادر الحصني». كلما جددت الكتابة على الشعر يأسي منها، وجدتني أرددها.

وخلاصة القول مع مقدمة الديوان إن السيد فضل إذ ييمم «شاطئ الوجدان» إنما ليصرح:

---

(١) الهش: الفرح والسعيد.

« الشعر دفقة من شعاع تنفث الوعي » . وهو بذلك يهوي على مساحة النور في مركزها الصاخب بالأحداث، بالظليل في النفس وإشراقاتها الصافية ليستعان بها على كآبة كبيرة:

أنت لي ــ يا ليلُ ــ محرابُ شبابِ
وهوى همس صلاتي ورِغَابي
فإذا جُنَّ بأعماقي ــ اكتئابي
وغفت انشودتي خلف الضبابِ
غنِّ لي يا ليلُ ــ أحلام صبايا
إن في صمتِكَ لو أدركتُ نايَا
أنا أحياك هدوءا ساخِراً
بضجيج تعبت منه الحنايا(١)

هذا عن « المقدمة » أما « التمهيد » فقد كرسه السيد محمد حسين فضل الله لعرض مفهومه للشعر، وكذلك موقفه من الكتابة الشعرية الحديثة، وابداء ملاحظات مكثفة من حياة شعرية عربية.

وهو إذ يأخذ على الكتابة الشعرية العربية الحديثة إنها كتابة لا تجسد إنساناً عربياً جديداً، يصفها بأنها كتابة ابتعدت عن أن تكون شعراً عربياً، على الرغم من أنه لا ينزع عنها « عمق الإحساس وعمق الرؤيا وروعة اللفتة الفنية والإيحائية » .

يعلن فضل الله اختلافه الحاد مع هذه الكتابة، ويرى بالتالي إنها تعاني من أزمة هوية.

نختلف مع السيد فضل الله في أنه يطلق خطاباً تعميمياً، وبالتالي حكماً مبرماً على حياة شعرية عربية كاملة. ونتساءل ترى هل يستفاد من هذا الحكم، أن السيد فضل الله يبديه

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ص: ٦٥ (أكانت لي يا ليل).

انطلاقاً من اختلافه مع الأشكال الفنية للكتابة الحديثة؟ أبداً . . . فالشاعر يجيب على مثل هذا التساؤل:

«عندما أقرأ بدر شاكر السياب وحتى صلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري وآخرين من هذا التيار أحس بعمق التجربة الفنية وبامتدادها».

إن مفردة «امتداد» ها . . تشير هنا بتقبل الشاعر للمنجزات المبكرة للثورة الشعرية العربية الحديثة، واعترافه بأهميتها، على الرغم من خلافه الفني الجمالي مع هذه المنجزات، على اعتبار أنه اختار وبقي على الشكل العمودي للكتابة الشعرية، قصائد «على شاطئ الوجدان» تجسيد لهذا الاختيار.

إذن لم يبق من هدف للسيد فضل الله يتضاد معه، غير المنجز الشعري العربي الحديث بتطرفه الجمالي المعبر عنه من خلال نصوص قصيدة النثر.

في فقرة لاحقة على حكمه على الشعر العربي الحديث. ووصفه له بالعجمة. يستدرك السيد فضل الله: لا أريد أن أتكلم بالمطلق. هناك تجارب جيدة وناجحة، لكن يبدو أن هناك ذهنية أصبحت تقول: «إنك بمقدار ما تكون معقداً أكثر، تكون مبدعاً أكثر».

وهذه الملاحظة تعزز ظننا بأن السيد فضل الله يشير إلى «قصيدة النثر» ورغم أنه يعلن» أنا لا أتعقد من الوزن ولا أعتبر أن الموسيقى يمكن أن تصدر بمرسوم فليس علينا أن نتجمد عند الموسيقى التي عاشها السابقون».

هذا كلام مهّم. إلا أن شكوى السيد فضل الله من علل الكتابة الشعرية الحديثة وتصورها عديدة، وهي محيرة بعض الشيء: «لم أقرأ حتى الآن أي شيء يمكن أن يعبر عن العمق الإنساني في المحنة».

وهذا التصريح على قطعيَّته، يبدو لي صادقاً. وهو في نبرته الجازمة ومضمونه الذي يشير إلى الحاجة عن تعبير قوي عن الحدث الاجتماعي ـ الإنساني، يجعلنا نتساءل: ترى هل يثير

السيد فضل الله فكرة «الشاعر الملتزم» وبالتالي ضرورة أن يكون الشاعر ملتزماً، متعهداً لقضايا جماعة أو شعب؟

على أن السيد فضل الله يقطع علينا الاستمرار في طرح هذا السؤال بقوله:

«وأنا لا أؤمن بمسألة أن تفرض على الشاعر التزاماً».

لكن هذا النفي للفكرة ليس كاملاً، وإنما يخفي الدعوة إلى الالتزام، إنما كيف؟ بإسقاط فكرة «الفرض» لصالح فكرة «الاختيار». فالسيد فضل الله، لم يقل هنا إنه لا يؤمن بفكرة أن يكون الشاعر ملتزماً، وإنما هو لا يؤمن بفكرة أن يفرض الالتزام على الشاعر فرضاً، وبالتالي أن يطلع هذا الالتزام ويتحقق على نحو تلقائي كثمرة لاختيار حر.

وما يعزز هذا الاستنتاج هذه الإضافة بعد سطور تالية: «وحتى عندما يتمثل الشاعر «الجمال» ومأساة الإنسان وأحلامه، أو مظاهر الإبداع في الحياة، وكل الخلجات والنبضات التي يحتضنها الإنسان، فإننا نتساءل ما قيمة الشعر إذا لم يبن المجتمع في كل حاجات المجتمع».

ويعمق السيد فضل الله هذا المعنى، ويحدد وجهته بشكل أدق في تعبيره اللاحق:

«والشعر إذا لم يبن المجتمع في كل حاجات المجتمع الفنية والإبداعية والفكرية والسياسية، فإنه يكون بلا مضمون، لأن الشعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبح شيئاً لا معنى له».

وفي إضافة أخرى على هذا التطلب لدى السيد فضل الله تفسير لتساؤل حول معنى أن يكون الشعر معبراً عن الحياة، نقرأ:

«ونحن لا نؤمن بالشعر التقريري الخطابي. وعلى قاعدة هذا النفي نتساءل ونسأل السيد محمد حسين فضل الله: ترى هل تبتعد المنجزات الشعرية العربية الحديثة، وعلى رأسها قضية النثر في أفضل نماذجها، عن ساحة هذا المعنى الذي تصف، هل أن هذه المنجزات بلا خصائص محلية تمنحها هوية مكانية اجتماعية تاريخية معينة؟ وإذا كنا لا نكترث كثيراً بفكرة الاختلاف مع الشكل الفني الجديد ــ حتى لا نقول بضرورة إقرار الاختلاف ــ والذي قد يبدو للبعض

متطرفاً، ترى هل أن هذه المنجزات هي بلا فحوى يعبر عنه قولها الشعري، وأعني بالفحوى، كل ما يشتمل عليه من تجميد مكاني، إنساني، تاريخي للحظة الشعرية.

إن ما يمكن أن نلاحظه بصدد هذه الآراء والملاحظات دقيقة، إنها من حيث أنهّا تركز على البعد الاجتماعي لدور الشاعر وتأثير الشعر، لا تكترث أبداً في أن تتلمس مدى التطور الذي بلغته الذائقة الشعرية في المجتمع العربي.

ولعل السيد على إطلاع لا شك فيه على الأثر الذي يمكن أن تتركه قصيدة رديئة بالمعنيين الجمالي والفكري في مستمع أو قارئ عربي من السواد الأعظم. ولا يخفي عليه ما للعراضة ـ سرعة ذوبانها ـ من قبول لدى الجمهور. القاعدة الإنسانية العريضة ولا يخفي السيّد بالطبع دور الشاعر العربي ومدى تقصيره في الإقبال على أن يحمل جوهر الفكرة وأن يتمتع شعره بحيوية المرتبطين بالمصير الإنساني، ولا يبرِّر تحوله عن قضايا الآخر لصالح قضايا الذات ولكني كواحد من المتورطين ـ بحكم هوى الطفولة ـ بالتعبير الشعري أعترف أن ميلاً لدي، وربما لدى أقراني إلى الذاتي تسببت به حاجتان الأولى: نشدان الصدق في التعبير، والثانية :رغبة في التماسك مصدرها كفر بهزائم عامة أصابت حياتنا العربية وشارك في فتح الطريق إلى هاوياتها شعرٌ صادَرَ الجمهور وخطاباته وادّعى التمثيل الحصري له، وراج بصفته صوت البطولة وصوت المجتمع ونال النخبة السياسية الحاكمة وكان وما يزال له الشأن وله المنبر. وله المكانة المستمرة.

على أن هذا الميل نحو الذات اعتدل بفعل الثقة المتزايدة لدى أصحابه في أهمية ما لديهم وانتقل اليوم لدى قلة من الشعراء، ولا أقول كثرة لأن الكثرة على مر التاريخ كان شعرياً خلواً من الشعر ـ أقول قلة، من المؤكد إلى نشر جماليات شعرية في قول شعر تحققت له مخيلة عربية تستجلي وتستطلع وتعيد تركيب مرئيات الحياة وتجاربها وخبراتها، واختصاراً (الألم والحلم) في شعر لا سبيل إلى الطعن في اكتراثه بالإنساني كأساس حيوي طبيعي، عضوي،

وليس كبعد دخيل على التجربة الشعرية.

هذه الملاحظات هي برسم كاتب المقدمة القيمة والمثيرة للجدل التي سبقت قصائد «على شاطئ الوجدان». وهي قصائد كتب أغلبها في الخمسينات يوم كان السيد فضل الله فتى يافعاً، وشاباً متطلعاً إلى حريّة الإنسان في اختبار وجوده في الدنيا لاستخلاص معنى من هذا الوجود.

نكتفي هنا بالمقدمة وبالتمهيد وببعض قصائد الديوان، لنقدم الوجه الظليل من السيد محمد حسين فضل الله الداعية السياسي المتطلع إلى حكم يجعل منه حقيقة. ففي شخصية اليوم بعض مما في شعره الذي كتبه بالأمس[1].

(١) صدر الكتاب هذا الأسبوع عن شركة «رياض الريس للكتب والنشر» في لندن. القدس العربي لندن ـ ١٩٩٠

القراءة الثالثة

سيِّدُ الكلمة، العلاَّمة الفقيه الشاعر محمد حسين فضل اللّه...
صحيفة النَّهار البيروتية ١٩٩١

د. ميشال جحا

محمد حسين فضل الله الشاعر يطلّ والشعر والحقيقة يتكاملان

كنت أقرأهُ بشغف واستمع إليه يتحدث كمن له سلطان! فهو سيد الكلمة، العلامة، أوَلَيس صاحب الكلمة سيد وسلطان! وكنت أطرب لكلامه ووقفته ونبرته وتوقفه واسترساله يجول ويصول ولا يفقد الغيظ الجامع بين الكلام فلا ينقطع.

صاحب حجة، وصاحب رأي واضح وسديد!

ثم أفاجأ به شاعراً!

في هذه المقالة لست ناقداً ولا أكتب بحثاً. بل أنا قارئ ومتذوق. وإن يكن للنقد قواعده ومقاييسه فإن «الذوق» له المكانة الأبرز في يقين.

أغلب مؤلفاته تتناول موضوع الإسلام: «فمن وحي القرآن»[(١)]، إلى «من أجل الإسلام»[(٢)] وهي كلمات وخطب ألقيت في غير مناسبة في الجمع وفي المهرجانات الإسلامية العامة، وفي المقابلات الصحافية والإذاعية حول الأوضاع السياسية في لبنان والعالم العربي والإسلامي. في الحقبة الأخيرة. وهو يسعى إلى أن يطرح المشاكل المحلية والإقليمية ويحللها بغية التوعية والتوجيه.

وفيه نقرأ حول موضوع «الحوار الإسلامي المسيحي»[(٣)]:

ربما تنطلق كلمة الحوار في كثير من الأسواق الاستهلاكية في حياتنا الفكرية التي تتحرك على سطح الفكر وفي حياتنا القاسية التي تتحرك على الهامش وقد يطرح الحوار لا من اجل الوصول الى الحقيقة في العمق ولكن من أجل اعتباره. نوعاً من أنواع الجدة في أجواء الحوار

---

(١) تفسير قرآني منهجي موضوعي صدر بطبعته الأخيرة في ٢٤ مجلّداً عن دار الملاك.

(٢) مجموع مقالات وخطب وكلمات ولقاءات سماحة السيّد، صدر بطبعة جديدة.

(٣) صدر عن دار الملاك، بطبعته الأولى، تاريخ: ١٩٩٤.

ويحرك شيئاً من اللعبة في أجواء السياسة...

نحن لا نريد كلمة الحوار المستهلكة ككلمة في الأوضاع التي استهلكناها في الواقع السياسي ولكننا نريده كلمة تتحرك من أجل أن تعطينا الجو العقلاني الذي يقف على أساس أن يكون حيادياً حتى مع الفكر الذي يلتزمه المحاور لأن قضية أن تلتزم فكرك، ذلك حق من قناعاتك ولكن أن تطرح فكرك في ساحة الحوار، لا بدّ لك أن تكون محايداً بين فكرك وبين فكر الآخر وأن تعمل على أن تعزل ذاتك عن فكرك حتى لا يكون هناك فكر يصارع فكرا.

وهكذا نجد في اقترابنا من هذا الجو ونحن نريد أن نتأمل في الحوار الإسلامي ـ المسيحي من موقع فهمنا للحوار بشكل عام، لا بد لنا أن نفكر بأنه ليست هناك محرمات ومقدسات في مواضيع الحوار، كل شيء قابل للحوار يمكنك أن تحاور في الله، في صفاته، في وجوده، في توحيده، يمكنك أن تحاور في النبي، في نبوته، في طبيعته، في كل حياته، يمكنك أن تحاور في القرآن، هل هو كتاب منزل، أو أنه ليس كتاباً منزلاً، ما طبيعته، ما هي حقيقته، وهكذا تستطيع أن تطرح كل شيء! ففي الإسلام العقل هو الأساس.

وجود الله وبه تكتشف وحدانيته..» إلى «قضايانا على ضوء الإسلام»[١]. ثم «الحركة الإسلامية ـ هموم وقضايا»[٢]. وهي كلها قضايا إسلامية وشرحها على ضوء الواقع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي اليوم.

وينظر إلى الإسلام نظرة منفتحة واقعية حديثة ومتطورة تواكب متطلبات العصر.

أما ديوانه «قصائد للإسلام والحياة» وهو مزيج من الشعر العمودي والحر، فيقول في مقدمته: «إنها قصائد يجمع بينها إنها تتصل بالجانب الإسلامي والسياسي والروحي من الحياة، إنها

---

(١) قضايانا على ضوء الإسلام صدر عن دار الملاك بطبعته السابعة، ت: ١٩٩٦,١٤١٦هـ.

(٢) الحركة الإسلاميّة هموم وقضايا، الصادر عن دار الملاك، ت: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.ط٤.

تمثل فترة عمر، وتجربة حياة، ومعاناة فكر». وهي ابتهالات ونجاوى يخاطب بها الله ورسوله وأهل بيته ويدافع عن الإسلام وقيمه ومبادئه. فيها نفحة صوفية، فالخمرة عنده هي الخمرة الصوفية وليست ابنة العنب التي يحرمها الإسلام.

يقول في إحدى قصائده (ص29) عنوانها «رباه»:

رَّباه هذي الكأس في راحتي مترعةٍ بالشعر والأدمعِ

أنت بعثتَ السحرَ في خمرِها أنشودةً سكرى على مسمعي

فرنّحت دنيايَ في رعشةٍ من رعشاتِ الحلمِ الممتعِ

وقصائده إلى ذلك حوار مع الذات واعتراف بضعف الإنسان وصراعه لأهواله ورغباته وشهواته، وهي تعبير عن واقع الأحداث السياسية. في العراق ـ معظمها نظم في النجف ـ والبلدان العربية والعالم الإسلامي، وفيها بعض الوفاء ودموع يذرفها على فراق الأقرباء والأصحاب ورجال الدين الذين خرجوا من هذه الدنيا الفانية..

وإلى ذلك فهو واقعي يرى أن على الشعر أن يساعد على بناء مجتمع حرّ وأن يكون في خدمة الإنسان.

يقول (ص96- 97):من ديوان قصائد للاسلام والحياة :

«ونحن مسلمون

نعيش في كفاحنا في موكب السنين

من أجل خير الناس أجمعين

من اجل كل كادح أمين

من أجل أن ينتصر الإنسان

- في روحه ـ على قوى الشيطان

ويحمل الشعلة من جديد

بقوة تحطم الحديـــــد

وتسحق الجليـــــد

وتبعث الإبداع والضيـــاع

والحب، والإيمان، والرجـــاء

في كل أفق يحذر الفنـــاء»...

والواقعية تظهر عنده كذلك حيث يقول (ص165): (الديوان نفسه)

هكذا أنت، فماذا في الهوى — من أحاديث؟ وماذا عن لقانا

أترى العمر، غراماً، ورؤى — وحديثا عاطفياً، ودخانـاً

إن خلف الستر يا شاعرَنا — من صدى الأجيال تاريخاً يرانا

هذه الأوطان من يكفها — إن تخاذلنا، وغشتنا منانـا

فإلى الواقع يا شاعـره — وجّه الحُبّ، ونضِّرهُ مكانـاً

فصدى الواقع يدوي باللظى — إن سَقيناه مدادًا من دمانَا

على شاطئ الوجدان:

بوصلة الشعر في لبنان اليوم تشير صوب الجنوب. في أرض الجنوب الطيبة، وخاصة في جبل عامل، أرض البطولة والمقاومة، ينبت الشعر كما تنبت شتلة التبغ. تلك الأرض التي أعطت عشرات الشعراء.

ولعل شعراءنا اليوم هم من أبناء الجنوب أمثال:

محمد علي شمس الدين، حسين العبد الله، شوقي بزيع، عصام العبد الله، جودت فخر الدين، عباس بيضون، الياس لحود، ياسر بدر الدين، جوزف حرب، يحيى حسن جابر، يوسف بزي، آمال نوار، إسماعيل فقيه، وسواهم.

في ديوانه الأخير «على شاطئ الوجدان» يقف السيد العلامة محمد حسين فضل الله عند الشاطئ ولا يقتحم العباب ولا يخوض اللجة، والوجدان الذي منه اشتق الشعر الوجداني قريب الصلة بالوجد الصوفي. وهو يقول في مقدمة كتابه (ص7) عن قصائده هذه: «إنها كانت في بدايات الشباب التي تقترب من سن المراهقة، مما جعل التجربة الشعرية في المضمون تتحرك في حيرة الشعور بين أجواء الحب الذي كان ينطلق في آفاق التجريد لا في حركة التجربة الحية بحيث كان انطلاقة في الخيال، ووحياً في الأحلام، وليس إحساساً في الواقع. وبين أجواء التشاؤم الذي يضيق فيه الأفق عن التطلعات ولكنها ــ في كل نماذجها ــ لم تبتعد عن الواقع النفسي الذي كنت أعيشه في نبضات القلب وارتعاشات الإحساس واهتزازات الوجدان».

«إنها قطعة من حياتي بكل آلامها وأحلامها ولذلك فإني عندما أقدمها إليكم فإنني أقدم بعض ذاتي الذي شارك في تأثيراته الفكرية والشعورية في بناء بعض ذاتي الآخر الذي هو أنا الآن، لأن الإنسان في الحاضر يمثل بعض طفولته وشبابه في الماضي، لأن الطفل لا يموت في الشاب. كما أن الشاب لا يفنى في الشيخ بل تبقى لكل مرحلة من مراحل العمر حركتها في العمق وفي الإمتداد».

نظمت هذه القصائد الثلاث والخمسون في مطلع الخمسينات (1950- 1957) (أي منذ إحدى وأربعين سنة) ما عدا واحدة نظمت سنة 1989. وأخرى دون تاريخ نظمت ما بين لبنان والعراق في بيروت وبنت جبيل، مسقط الشاعر، والنجف الشريف حيث درس وعاش فترة من الزمن.

يبدأها بقصيدة إلى والده في ذكراه الخامسة وهو غالباً كان يناجي والده ويراسله من غربته ويستلهمه ويعترف بفضله. ولكنه لا يأتي على ذكر والدته.

ومتى عرفنا أن الشاعر من مواليد سنة 1936 يكون بدأ بنظم الشعر مبكراً جداً أي في

السن الرابعة عشرة.

وهو في «التمهيد» يفيدنا رأيه في الشعر العمودي والشعر الحر، يقول عن الوزن والموسيقى ص(10):

«أنا لا أتعقد من الوزن ولا أعتبر أن الموسيقى يمكن أن تصدر بمرسوم موسيقى الحياة مثل خرير الأنهار أو موسيقى الشلال... تفرض نفسها. لا نستطيع أن نتجمد عند الموسيقى التي (قالها) السابقون. المهم أن يقول الشاعر بالموسيقى، أما تفاعيله وكيف تكون فهذه تخضع لطبيعة تطور الإحساس الموسيقي».

أما من حيث الالتزام أو الإلزام في الشعر ـ أي موقفه من الشعر الملتزم ـ فهو رفض بأن يفرض على الشاعر أي التزام فالشِّعر مثل الماء والهواء لا تستطيع أن تُعلِّبه».

وهو تاليا يرى على الشاعر أن يلبي حاجات مجتمعه: «فالشعر إذا لم يبن المجتمع في كل حاجات المجتمع الفنية والابداعية والفكرية والسياسية، فإنه يكون بلا مضمون لأن الشعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبح شيئاً. لا معنى له».

«إن الشعر لا بد أن يحمل قضايا العصر،ونحن لا نؤمن بالشعر التقريري الخطابي».

وهو يجيب الذين يدعون إلى الثورة على الشَّكل والمضمون وإلى تفجير اللغة فيقول (ص12):

«الثورة ليست مجرد حركة من الخارج تريد أن تهدم واقعاً معيناً، بل هي حركة من الداخل تريد أن تثور على ذهنية معينة. و نفسية معينة. ولهذا فنحن نؤمن بالصِّراع وبأن علينا أن نتمثل الصراع وإن نحرك مفرداته؛ وأن نثير القضايا السلبية الَّتي نثور عليها ونثير القضايا الإيجابية من أجل أن تعطينا زاداً للثورة».

في شعره دعوة إلى الحب. الحب الذي يهدم ليبني الحب الرحب وسع الكون. حب يكون في المطلق ويذوب كما يفنى الصوفي في وجه الخالق.

الشاعر رغم الشباب يشكو من الوحدة، والحرمان يرثي عمره الضائع وشبابه الذي يدور في حلقة مفرغة والشاعر، شأن الشعراء، الرومانسيين: يطيب له الحزن والأسى كما تطيب له الشكوى: (ص76– 77) قصيدة شاعر في زورق:

شاعر رنح الخيال جناحيه بأطياف عالم فياح،

جن في روحه الشباب، وطافت بلياليه خفقة الأشباح

أكذا يقطع الحياة بدنياه ولما يحن طلوع الصباح

فتحت عينه على شاطئ الموت تهاويل أنَّةٍ ونواحِ

... كل ما في حياته دمعة تهمي، ودنيا تموج بالأتراحِ. [1]

والشاعر يحترق بنار الحب كما الفراشة بنار المصباح، الشعر كالنار وكالنور في الوقود: تحترق وتنير، يقول (ص٨٥) قصيدة: أنا والحبّ:

أنا والحب، كالفراشة والمصباح، في لوعة الشقاء الدفينة

تتلوى على لظاه فتذوي في شظاياه روحها المسكينة

تلمس الموت عنده ثم تشتد فتحبوه قبلة مجنونة

هكذا تبتدي ويغلبها اليأس، فتهوي بروعة وسكينه. [2]

أحياناً تجد في شعره الثنائية التي شاعت عند شعراء المهجر، وخاصة عند جبران وأبي ماضي، فهو يتأرجح بين الشك واليقين، بين اليأس والأمل ـ الذي لا يلبث أن يتحول إلى سراب ـ بين الفرح والألم. بين الضحك والبكاء، يعيش على الذكريات، يطلب العدالة ويؤمل لها أن تعم بني البشر ولكنه في الواقع لا يجد لها أي أثر.

يقول في قصيدة «...ورجعت» (ص 116– 117):

---

(1) و(2) محمد حسين فضل الله، عن شاطئ الوجدان، ط1، دار الريس، لندن، (شاعرٌ في زورق) ص: 67 و(أنا والحبّ) ص: 85.

هدهدت أحلامي على كلمي ... ونثرت أفراحي على ألمي
وأثرت من خلل السكون دجى ... قيثارتي محمومة النغـم
ورشفت كأسي والحياة مُنَىً ... في خافقي وعواطف بدمي
وضحكت للدنيا وفي شفتي ... روح الصبا ونضارة الحلـم
حلم الشباب وهل أشد لظى ... متموجاً من موجة الضـرم
تتراقص النعمى به مرحـا ... فيعب من سلساله قلمـي
ورجعت أدراجي وقد طويت ... تلك الرؤى في صفحة العدم
أرنو إلى قلبي فألمحـــه ... قفر الخيال يموج بالسـأم
وإلى حياة كنت أعهـدها ... جياشة بالحب والنغـم
أرى بها الأشباح غائمــة ... في ناظري فأغوص في الظلم
وتثوب ذكرى كنت ألمحها ... بين السنين كخفقة النسـم
فتعيد لي الماضي وريِّقـه ... عذبا يطيب كقلب مبتسـم(١)

(النجف 7/11/1951)

والشاعر عاشق لليل يناجيه ويسأله أين ينام؟ وإلي أين يذهب متى طلع الصباح؟ يطرح الأسئلة بقلق هو قلق الإنسان الذي يريد أن يعرف، الشعر يتكامل عنده مع الإيمان وفهم أعماق الوجود، شعره ابتهالات وفيه نفحة صوفية يسعى إلى خلاص ذاته، وهو مناجاة وبوح وألق، يطمح إلى كشف أسرار الكون ولكنه يقف عند عتبة الباب دون أن يلج. فالشاعر حافظ الأسرار!

بيد أن الشاعر لا يلبث أن يصحو من رومانسيته والتغني بلواعج فؤاده على قضية شعبه

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ص: 88 (صورة من الماضي).

وواقعه الأليم فيخاطب نفسه (ص78) قصيدة: شاعرٌ في زورق:

إنما أنت ملك لشعبك فابعث من حناياه ثورة الإصلاح
وتوثب إلى الحياة فلم تحي لتشدو في لوعة ونواح
عد إلى الشعب: إن شعبك أولى بأغانيك من ثغور الملاح
فالحياة الحياة: أن تقطع العمر مجدا في عزة وطماح

فالشعر عنده يكتب بالدم ـ كوضوء الحلاج ـ:

اقتاتُ من وحي الخيال فإن ظمئَ البيانُ مزجتُهُ بدمِي

وكما يقول إلياس أبو شبكة:

أجرحِ القلبَ واسقِ شَعركَ مِنهُ فدمُ القلبِ خمرةُ الأقلامِ

وهو يصور القلق الذي يعيشه الشباب، ليس الشباب في لبنان وحسب بل في العالم العربي، بعد نكبة فلسطين والمآسي التي ألمت، ولا تزال، بالعالم العربي كافة.

يقول (ص92) في ديوانه على شاطئ الوجدان قصيدة: من صُور الشباب:

هذا الشباب يسير دون هدى، فيخدعه السرابْ
ودورته مغبرة الأرجاء يغمرها الضبابْ
ورؤى من الدنيا تُغشِّيها غيوم من عذابْ
وهواجس تطغى عليه، تموج في القلب المذابْ
ما بين حب خافت النجوى وشك وارتيابْ
خنقته ثائرة الحوادث بين أحلام عذابْ
وظلام دنيا راعها، أن ينجلي فجر الشبابْ.(١)

ويتغنّى بوطنه لبنان ويحن إليه وهو بعيد عنه في النجف يقول: (ص109) قصيدة: ستبقى:

ولبنان: هل هو إلا رؤى

ترفرف في أفق ممرع

ولحن من الخلد يوحي لنا

معانيه في الوتر الطيع

وحب يترك عناق الهوى

على ضفة الجدول المترع

وأطياف روح تسيل المنى

عليها، وتهوى مع الأدمع

وفي مكان آخر:

«ولبنان قلب تموج الحياة به وتفيض على الأعصر

وروح تشع بأزهاره وتمرح في الجبل الأخضر»

وفي قصيدته «قلب الشاعر» (ص١١٢–١١٣) يصور لنا رسالة الشاعر وواقعه والأغلال التي تكبله:

حر الضمير تثور في أعماقه حرية طافت على تبيانه

لكنها الأغلال تأبى أن ترى حراً تحلل من قيود زمانه

فمضت تقيده بقيد مرهق لتعيق منه الفكر عن جريانه

ونميت روحاً منه أرهفها الهوى فمضى يذّوبها على نيرانه

فمضى يحلق في سماء خياله ويبث روح الفكر في أوطانه

مترفعاً بخياله عن عالم داج، يسيل الشر من أدرانه

فيصوغ من دمع اليتامى شعره وينظم الأوزان من هنانه

ويشارك المحزون في آهاته فيذيبها نغماً على ألحانه

هذا هو الشعر الذي ـ كما يرى غوته- « يحمل الحقيقة على منكبيه لكي يأخذها إلى وجود أسمى وأجمل بحيث تغدو « حقيقة » أكثر مما كانت في مرحلتها النثرية، إن الشعر والحقيقة يتكاملان ! »

وهذا هو الشاعرُ الذي يشاركُ شَعبه آلامَه وأحزانَه ويوجِّهه ويرشدُه وينفخُ فيه من روحِه ويحملُ عنه العبءَ وينيرُ له الطريقَ.

د . ميشال جحا

هوامش ومصادر البحث :

(١) بيروت، دار الزهراء في إجراء ١٩٨٢ – ١٩٨٨ .

(٢) دار التعارف للمطبوعات ١٩٨٩ .

(٣) ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ .

(٤) النجف، مطبعة النعمان [لا .ت .] .

(٥) طبعة أولى، بيروت، دار الملاك، ١٩٩٠ .

(٦) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد) بيروت ١٩٨٤ .

(٧) رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٠، في ١٢٥ صفحة .

القراءة الرابعة

الحداثة إمكان الشِّعر
بيروت المساء ٢١-١٢-١٩٩١

بلال خبيز

الحداثة إمكان الشعر

يمهد السيد محمد حسين فضل الله لمجموعته الشعرية، محاولاً القول، إنَّ هناك ما يستحق القراءة في طيّاتها، ولا يضيرها كثيراً كونها تعتمد العامود الشعري العربي، ويخلص من ذلك، أي من افتراض تضمّنها ما يستحق القراءة أن الشعر العربي حالياً وكما يصدّر العلاّمة تمهيده «ابتعد عن أن يكون شعراً عربياً» لأن «الشعر العربي (أو الشعر عموماً) حسب رأي السيد فضل الله، لا بد أن يحمل قضايا العصر: وانه (أي الشعر) «إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبح شيئاً لا معنى له».

فأي «قصيدة، يمكن أن تغيّر كثيراً من مجرى التفكير وتهزم الكثير من المشاعر». «ولا قيمة للشعر إذا لم يبنِ المجتمع في كل حاجات المجتمع الفنية والإبداعية».

يقول السيِّد، إنه تأثر بالجواهري وشوقي، وأحس بعمق تجربة السيّاب وعبد الصبور، لكن الشعر الذي نقرأه الآن لا يهزه. شباب من هذا الجيل، لا ينفعلون بعبد الوهاب البياتي الذي لا يهزه شعره. وهو يطلق النار على القصيدة النثريّة وليس أمامه سوى ألبير أديب ذلك الذي يصدر حكماً بأن القصيدة الحديثة (زمنياً) لم تستطع أن تهزّ مشاعره، ولم يجد فيها شيئاً يستحق الاهتمام. ولا شك أن هذا التصريح، تنقصه مادة السجال الحقيقية، التي تشعل فتيله، فتمهيد السيّد فضل الله، لا يطال في من يطالهم أحداً على الإطلاق، لذا فإن مادته، تظل تبريراً لعلمه لا أكثر ولا أقل، إذ أن الرد عليه، يستوجب أن يكون الراد معنياً بهذا الأمر،

في عالم تبدو فيه الثقافة بلا سلالات، ويبدو فيه شاعر يطمح لأن يكون الأول في الشعر والأول في التاريخ، ولهذا السبب، وبسبب من هذه الحال، فإن أحداً لا تطاله نار السيّد، لأن أحداً غير معني بها على الإطلاق، هكذا يبدو التمهيد بمثابة هروب إلى الأمام، يتوخى السيد منه، تسويغ تجربته الشعرية، وإعطاءها حقّها في الوجود، وإذ تبدو هذه المقدمة العامّة الشاملة، تفتح ملفات ما فتئت تتكرر كل مرّة، فإن هذه الملفات، لم تعد تجد من يُعنى بدفعها إلى واجهة المسائل المطروحة، لأنها راشدة ما تكررت. أصبحت لا تحرّك في الأذهان ساكناً، فالتعقيد والتبسيط، ومن خلفهما الوضوح والإبهام، والفهم والاستغلاق، موضوع ما برح يتكرّر منذ أربعين عاماً إن لم نقل منذ قرون، وكل مرة يحدث أن يأتي أحد ما، ويشكو من قلة فهمه، لسبب من الأسباب، وكل مرة يُجاب هذا (الأحد) أن ذلك شأنه وحده، ولا يسعه تعميمه على الجميع، وفي كل مرة يتذرع شخص ما، بأن الشعر الحديث معقّد وغير مفهوم، وإن ذلك، لم يدرج في اخبار السلف الصالح وأشعارهم، لكن ورغم هذا الإلحاح، تبقى مسألة الفرادة والتفرد والتجدّد، مغرية إلى الحد الذي يصم السمع ويعمي البصر عن كل هذه الاعتراضات، ويبدو لي الآن أن هذا الاعتراض، وذلك الإلحاح، لا يندرجان في سياق التجربة الشعرية فعلاً، فثمة بين الأعمال الحديثة ما هو بسيط وغير معقد، وثمة بين أشعار السلف ما هو معقد، وشديد الصعوبة، لا يشاء المعترض أن يستشهد به ويشهد له، ولا يشاء الملح على الريادة أن يعترف بفضل الأسبق المعقد والمعاصر البسيط، أو بزمالته على الأقل.

موسيقى الشِّعر:

كذلك فإن أمر الموسيقى في الشعر وموسيقى الشعر، أمر مضى على فتحِه وبدء السجال فيه وحوله. زمن طويل، استنزف الكثير من الكتابات، ولم يصل المتحمسون للموسيقى إلى حد إقناع المتخلين عنها بالعدول عن تخليهم، ولم يحصل العكس أيضاً، كذا فإن تبني القضايا

المتعلقة بالإنسان والإحساس بها أمر يعاني نفس المشكلة، بين الطرفين. ولا يسعنا أن نهمل «التشريق والتغريب» . «الأصالة والمعاصرة»، إلى آخر ما هنالك من قضايا تستوجب التذكير بها. وفي ظني أن الشعر الحديث، حُمّل ما لا يستطيع حمله فعلاً، وارتضى المنظرون له هذا الحمل، وأسرفوا في الدفاع عن حمله ، فيبدو أن كل القضايا التي طرحت على امتداد العقود القليلة الماضية، كانت تهدف إلى إقحام الحداثة عبر تحميلها ما لا يمكن حمله، فاضطر الشعر أن يحمل وزر الهزائم العربية مفرداً، حين «تركنا العدو نغني وتركناه ينتصر» على حد تعبير محمود درويش، واضطر أن يحمل همّ التقدم العربي، وبناء الإنسان العربي المعاصر، وتلك هموم لا يسع الشعر أو غيره أن يحملها،لأنها هموم مجتمع بأسره، على كل حال، لم يتوازن الحداثيون لحظة واحدة عن التقدم بجرأة وتهور نحو حمل هذه القضايا وادعاء امكان الوصول بها إلى نتائج مرضية، فكان أن أدّت «خبز وحشيش وقمر»، إلى الهزيمة العربية، وأصبح نزار قباني يعلن أثر كل هزيمة اعدام التاريخ والبدء من جديد، والكلام هنا لا يمرّ على نزار قبّاني إلا عرضاً وفقط بسبب ذكره في تمهيد السيّد محمد حسين فضل الله بصفته مؤثراً على مشاعر الشباب والمراهقين زاد الثورة ومستقبل الأمة» وهؤلاء الشباب الذين يقول السيد عنهم «أنا أتصور أنني أستطيع أن أتحدث عن مجموعة من الجيل الجديد، جيل أولادنا الذي يعيش تطور الموسيقى واللفتة الفنية . حتى هؤلاء لا نشعر بأن هذا الشعر يهزهم» فإذا كان لأمر كذلك فإن دعوة السيد تبدو لي والحال هذه لا تعدو كونها دعوة إلى الشعراء بالتزام جانب الوضوح حتى يمكن نقدهم والصراع معهم أو الموافقة على نتاجهم، كما حدث مع الجواهري. ونزار قباني بالنسبة للسيد . وإن مشكلة شعراء اليوم تتلخص في كونهم أعصى من أن يمسك بهم وأعقد من أن نتبنى نتاجهم أو نرفضه، لذلك فهم يدورون في هواء خالص بلا ملامح. لا يحاول هذا البيان أن يدافع عن أحدٍ فثمة أمور لا يسعنا التزام النقاش بها دفاعاً أو هجوماً، لكن يخيّل إليّ أن السيد فضل الله يقدّم مجموعته الشعرية وهو يعاني من أمرين اثنين:

الأول: هو في رأي الشعراء والمشتغلين بالثقافة

والثاني: هو التزام موقع الوضوح والبساطة التي تخوله البقاء قريباً من الفهم العام ، وكلا الأمرين لايتناقضان إطلاقاً،لكنهما يعبّران عن اشكالية مفادها دعوة المثقفين إلى اتباع رأيه، وسؤالهم آراءَهم بعمله من ناحية ثانية ، هكذا يبدو أنَّ، السيِّد محمد حسين فضل الله يرى،وذلك أمر محزن ومريعٌ حقاً- أن الشعر العامودي ، بحاجة إلى شهادة الحداثة لكي يدخل في سياق الثقافة، إن هذا الأمر محزن اولاً، لأن شعراً يمتدّ في الزمن أكثر من ألف وخمسمائة عام بحاجة إلى شهادة لشعر لم يثبت أهليته بعد .

ومريعٌ ثانياً ،لأن شعر الحداثة يطغى بهذه السرعة الفائقة ،كأن التاريخ مجرّد حطام وهباء .ولأن ذلك يعني أن ادعاء المستقبل ، والإمساك به طاغ إلى حدٍّ أن كل عمل مهما صغر حجمه وقلت اهميته، بوسعه الإدّعاء أنه يملك مفاتيح المستقبل، ويغلق أبواب التاريخ دونه وإني أظن أن قصيدة النثر مثلاًأو الشعر الحداثة، انطلق في لحظة تاريخية أصلاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة . هي لحظة تاريخية ،لأن التاريخ وراءها ،تستند إليه ، وهي لحظة تاريخية لأنها تؤشر إلى إمكان تجديد ،لكنها لاتثبته ولا تفشيه، لقد شعرت بالحزن حقاً، حين قرأت هذا التمهيد ،ولم يكن يدور في خلدي أبداً أن « أبا نواس » بحاجة لاعترافنا به شاعراً،أو أن أبا تمام مشكوك بشاعريته ، في الوقت الذي تبدو فيه الحداثة ثقافة منع أكثرمنها ثقافة تحرّر من الوزن .

فالحداثة في معظم طروحاتها ،ادّعت أنها وجدت الشعر وقبضت على ناصيته ،في حين كان الأجدر بها أن تكون رداً على أزمة تعبير، وتحريراً للشعرمن وزن يثقله، فما تعنيه هذه الكلمة حقاً.إن الخروج على الوزن ليس قدراً مقدراً والحداثة ليست تقدماً على الإطلاق،إنها بمعنى أدق تحايلاً على الحاضر والمستقبل ؟.

وإذا لم تكن هذه وظيفتها فإن ذلك أمر مخيف .لقد درج الحدانيون على ممنوعات كثيفة الشعر ، وبدأ الرواد والمتأخرون يمتنعون عن ولوج أبواب كانت مفتوحة وميسّرة لسابقيهم تحت

وهم الريادة والتقدم ،كانت الحداثة تغلق الأبواب واحداً تلو الآخر أمام مكان الشعر .

عندما قرأت ديوان السيّد محمد حسين فضل الله ،أحسست بضرورة كسر الوزن والقافية ، فأبيات القصائد تنهي معناها غالباً قبل أن تتم وزنها ، مما يدفع السيّد إلى إلحاق البيت بالنعوت والصفات اتماماً لوزنه .

هكذا بدا لي أن هذا الكلام الفائض يجب حذفه ، حتى لايبقى من شعرنا المعاصر سوى قواعده .لذلك تبدو التضحية واجبة ويبدو الجوهر هو الأبقى .

وعندما قرأت شعر السيّد فضل اللّه أدركتُ أيضاً أنّهُ ظاهرة هامة في الصّحوة الإسلامية عن مدى هذا الشرق المعذّب رغم ما حباهُ اللّه من خيرات، وأديان سماويّة.

بلال خبيز

على شاطىء الوجدان ، مجموعة شعرية للسيد
محمد حسين فضل الله ،صدرت عن شركة
رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩٠ .
بيروت المساء ٢١-١٢-١٩٩١ .

القراءة الخامسة

كتاب: «على شاطئ الوجدان» للسيّد محمد حسين فضل اللّه تحالف بين الشّعر واللّيل والهوى»

طوني مسعد

تحالف بين الشعر والليل والهوى

على « شاطئ الوجدان » شعر في كتاب للعلامة السيد محمد حسين فضل الله في طبعته الأولى. والمجموعة: تجسد مرحلة في حياة مؤلفها. كما أنها تعكس الواقع النفسي الذي كان يعيشه في نبضات القلب وارتعاشات الإحساس واهتزازات الوجدان. وهي تطلعات تختلف عن طبيعة الشباب الأولى من خلال موقعه الديني والسياسي والاجتماعي.

إذن هي مرحلة تقترب من سن المراهقة مما جعل التجربة الشعرية في المضمون تتحرك في حيرة الشعور بين أجواء الحب الذي كان ينطلق في آفاق التجريد لا في حركة التجربة الحية. بحيث كان انطلاقة في الخيال ووحياً في الأحلام. وليس إحساساً في الواقع وبين أجواء التشاؤم الذي يضيق فيه الأفق عن التطلعات ولكنها في كل نماذجها لم تبتعد عن الواقع النفسي الذي كنت أعيشه في نبضات القلب وارتعاشات الإحساس واهتزازات الوجدان(ص 7. مقدّمة على شاطئ الوجدان).

هذه المجموعة تشكل جزء هاماً من حياة العلامة لا بل تاريخاً لإنسان عاش طفولته وما يزال «لأن الطفل لا يموت في الشَّاب كما أن الشَّاب لا يفنى في الشيخ بل تبقى لكل مرحلة من مراحل العمر حركتها في العمق والامتداد(ص8.)

أما بالنسبة للشعر ففي نظر العلامة فضل اللّه «إذا لم يبن المجتمع في كل حاجات المجتمع الفنية والإبداعية والفكرية والسياسية فإنه يكون بلا مضمون لأن الشعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبح شيئاً لا معنى له».

وفي عودة إلى الكتاب الشعري فإنَّ اللبنانيات تتصدر الديوان ويرفع الشاعر قصيدة إلى والده في ذكراه الخامسة ضمن «قصيدة عيناك في الكرى» يرفع راية عرفان بالجميل ومحبة نابعة من واحة الوجدان المضمخ بأريج ومسك. فذكرى والده تثبيت لفكرة الطهارة وعفو السماح وحياة الروح المندى مع الله.. فيا طيب المفردات تنهمر غيوثاً. تحشد في مضامينها وطي رحابها فيض الرحمة وغفوة الاطمئنان وذلك الصوت الذائب في ساحة الرضوان:

أأُناديك يا أبي ويفر الحلم مِنّي في يقظة الوجدانِ
تلتقيني ببسمة الطهر في الروح الإلهي في المدى الروجاني
هي إغفاءة مع الحلم الوردي عشت انفتاحها بافتتان.(١)

وتلتمع قصائد الحب بعد بركة ومجد فالحب هنا أرجوحة في ملاعب الصبا... والحب حكايات تنسج النور وتغزل الصفاء الروحي إنهما مجموعة تجمّل النسائم أصداء السنا وتطلعات إلى الشمس وفرحة الأضواء وسكرة الحلم وجراح الروح والآفاق البيض.

في غمرة هذه الأجواء المصبوغة بشفافية ونقاء يلبس الشعر لدى العلامة السيد حلة الارتشاف من المناهل الأصيلة والمعاجم المطيبة برحيق وأناشيد:

---

(1) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان (عيناك في الكرى) ، ص:15.

عيناي ظامئتان .. للنور المرنحِ في الأصيلِ
للدمعِ ينثرُ في ظلالِ الدربِ أطيافَ الهديلِ
للخضرةِ السكرى على ترنيمة الفجرِ البليلِ
للحبِ يزرعُ لهفة الأشواقِ في القلبِ البتولِ
في لهفة الأرواحِ نحو جداولِ الحلمِ الجميلِ(١)

وفي مكان آخر وإذ (وجدها مستغرقة في الكتابة وفي عينيها ظلال حيرة وأشباح شقاء) يُتْرِكها الحرف :

أتركي الحرفَ ميتاً بين كفّيك... وغيبي في موكب الأضواءِ
وافتحي روحك الطليقة للأحلام.. تنهل في حقول الضياءِ
إن أهدابك الرقيقة لم تخلق.. لتغفوَ على الرؤى العمياءِ
إنها للظلالِ.. تخفق في رفق.. فتنساب. رعشة من ضبابِ
إنها للحياة... تفتح عينيك.. على روعة الضحى الوضّاءِ(2)

الشعر إحساس بالقضايا الإنسانية :

وهذه الباقة المنظومة على قاعدة، المبنية على أسس وقوالب، ليست هي إلا الانطلاقة الحقة، إن لم تبن على هواها، فلأن الشعر إحساس بالقضايا الإنسانية ولأنها الخصوصية التي حددها العلامة الشاعر تنسجم أحياناً مع ذهنية القارئ. وفي بعض الحالات الأخرى لا تنسجم. (ص10 مقدِّمة على شاطيء الوجدان). ولأننا في غياب الشفافية والسبك الهادئ في جوانب عديدة من شعرنا الحاضر يعود بنا « شاطئ الوجدان » في تواريخ غابرة إلى ضفاف ورموز افتقدناها في القصيدة المعاصرة ولطالما يشد بنا الحنين إلى المنابع الطيبة .

(1) و(2) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان (عيناي ظامئتان) ، ص:36 (واتركي الحرف) ص: 40.

النجفيات تحالف بين الليل والشاعر والحبيب :

أما في النجفيات، فتحالف قائم ما بين الشاعر والليل والحبيب . . والفلك نجوى وصور تكر من الماضي، من صور الشباب عتاب أو استغفار وكثير كثير من هوى على عتبة القصيدة يقف الشاعر وفي يده بطاقة عيد « إلى أبي » ورسالة . . .

يسأل الليل حيناً، أين تنام ص(52) .

« يا ليل أين تنام خبِّرني إذا طَلَعَ الصَّباح «

ثم :

أنت لي يا ليل ــ محراب شبابي

وهوى همس صلاتي ورغابي

فإذا جن بأعماقي ــ اكتئابي

وغفت أنشودتي خلف الضباب (ص65)

تتهافت الظلال على شاطئه وهي العبور إلى ذكريات وأناشيد :

. . . وهناك حيث وقفت خاشعة

مذهولة . . في هيكل الذكرى

والليل أغفى فوق رابيــة

حشدت لديها الماء والعطـرا

وهواجس الأحلام ما برحت

تنتاب منك الروح والفكرا

(ص9)

أما قمة المعاناة لديه ففي نشيد الموت ومنه :

سأموت

يغمرُ روحيَ الظمأى إلى وحي الخلودِ
اشعاعُ دنيا . . حرةِ الآفاقِ تهزأُ بالقيودِ
لا البغيُ يكمنُ في زوايَاها ولا غلُّ الحقودِ
تتعانقُ الأرواحُ فيها كالأزاهرِ والورودِ

ولأن تصميم الديوان يبعث من هرمية في البناء والتصميم من وهج حارق بلظى الذكرى إلى انغماس في حنين. ووجد لها، إلى تلك الرؤية للحياة وخط الشاعر المرسوم فوق أفق الغروب، تمسح عن الحب عباءة العادي المسطح. لتغوص غرقاً في بحار مفتشة عن المرجان والنفيس في اللفظة والصورة ويبقى الله في الحب اللب والنبض الألف والياء فالحب روح الله في الإنسان.

أنا أهواك للهوى ترعش الروح بأفيائه ويهتز لحني
(ص114).

والكتاب (على شاطىء الوجدان) الذي جمع العلامة السيد باقته في خلال الخمسينات يؤرخ لمرحلة مهمة في حياته، لفترة « تختلف عن طبيعة الشاب الأولى من خلال موقعه الديني والسياسي والاجتماعي ».

ولا يحوجنا القول إنها مرحلة بارزة في كنف الصفاء في الشعر. والصدق في التعبير ونشوة القول المستسلم لبوح القلب ونبضه على « شاطئ ترسم سفن القصائد في بحره خطوط الرحيل الدائم عبر السنوات ».

القراءة السادسة

محمد حسين فضل الله قصائد الانفتاح على الحياة

النهار: ٨-٣-١٩٩١

وضَّاح يوسف الحلو

ذكريات الشباب

صدر للعلامة الفقيه السيد محمد حسين فضل الله كتاب شعري تحت عنوان «على شاطئ الوجدان» (1) في قصائده أحاسيس متنوعة من الحلولية، والتخاطر الماورائي، ونجوى الإله، وذوبان الروح في نهايتها الكونية المجهولة المصير بكل نبضات القلب المتواترة واهتزازات الوجدان المتوترة. يقول العلامة محمد حسين فضل الله:

«وإذا كنت الآن أعيش بعض التطلعات التي تختلف عن تطلعات الشباب الأولى فإني لا أتنكر لكل مشاعر الحنين لتلك الفترة القلقة من حياتي التي منحتني الكثير من الغنى في الإحساس، والانفتاح على الحياة». ولهذا يقول في قصيدة «منذ حدثتني» (تعود إلى 1956):

«منذ حدثتني، وقلت: دع الذكرى
ترش الطيوب فوق يديّا
فسنمضي أنا وأنت ونحسو
من أباريقه الرحيق الشهيّا
وإذا الموت ضمنا فسيبقى
الصحو في حبنا المورد حيا
حبنا: مولد الربيع، ونجوانا

رفيف الضحى، وصحو الحميا».

الدكتوران عبد المجيد زراقط ويوسف الصميلي يعرفان فنية الأدب: «للأدب ثوبه ومادته، ومادة الأدب اللغة التي هي عنصر مشترك بين الأدب والفكر، والذي يميز الأدب من العلم والفكر أن العلم يقدم حقيقة تقريرية. من هنا يمكن استعارة هذا المدلول بين اللغات المختلفة لأننا في صدد معرفة يقينية يكتفي منها بالرمز، أما بالنسبة للفكر فنحن في إطار البحث عن حقيقة ذهنية أو إنسانية أو مجرد استقراء نتائج على طريقة المنطق أو أية قضية قياسية».

والعلامة محمد حسين فضل الله يقول في تمهيده للمجموعة الشعرية «على شاطئ الوجدان» : »إننا من جيل تعودت أذنه على موسيقى معينة للشعر، أو من جيل تعودت ذهنيته على أسلوب معين من الفن ولكل جيل لغته.

وأنا أتصور أنني أستطيع أن أتحدث عن مجموعة من الجيل الجديد، جيل أولادنا الذي يعيش تطور الموسيقى، واللفتة الفنية. حتى هؤلاء لا نشعر بأن هذا الشعر يهزهم. لا أريد أن أتكلم بالمطلق هناك تجارب جيدة ناجحة لكن يبدو أن هناك ذهنية أصبحت تقول: «بمقدار ما تكون معقداً تكون أكثر إبداعا».

هذا العلامة الفقيه المنضوي تحت سيف الإمام علي بن أبي طالب(ع) يجمع بين فقهيته الدينية، ورسوليته النبوية، اغتساله التصوّفي في ظل الإسلام الحنيف، وجنوحه نحو معاقرة الفن، والجمالية كنوع من الاستسلام للسكينة الأرضية فيقول:

«أحبه هـذا الهـدوء الـذي ... يلفُّنـــي في خَـدَرِ شاعـرِ
يحملني على جناحِ الـرؤى ... إلى لذاذاتِ الهوى السـاحرِ
يتيه بي في الغيب في زورق ... الضباب، في بحر الدّجى الساحرِ
أحبــه، غيبـــوبةً حلـوةً ... في عالمِ مجنح طائـرِ»...[1]

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ط١، قصيدة (أُحبُّهُ هذا الهدوء) ص: ١٩.

الصحوة الفنيّة:

القارئ لشعر العلامة محمد حسين فضل الله يلاحظ صحوة فنية مبكرة قال هو عنها «لقد تأثرت بمحمد مهدي الجواهري ، والأخطل الصغير ،وإلياس أبو شبكة ،وأحمد شوقي ، وبذلك الجو الذي كان سائداً في مصر ،والعراق ،ولبنان ،وأغلب الشعر الذي كان مطروحاًفي الساحة كان يعبر عن قدر كبير من الوضوح . حتى الرمزية لم تكن رمزية الشعر الذي نقرأه في هذه الأيام».

والشاعر العلامة محمد حسين فضل الله مذاب في رقة مهموسة ،موشى بحنان مفاجئ، خاصة في الحب، والأرق، والإنخساف في الأحاسيس حين يرتطم على حادثة مؤلمة وفي مقطوعة «اتركي الحرف» التي قدم لها الشاعر هكذا «وجدها مستغرقة في القراءة .وفي عينيها ظلال حيرة ،وأشباح شقاء ،قال:

«اتركي الحرف ميِّتًا بين كفيكِ
وغيبي في موكب الأضواءِ،
إن أهدابكِ الرقيقة لم تخلقِ
لتغفوَ على الرؤى العمياءِ
حدِّقي بي، إني لألمح في عينيكِ
أشباح حيرة وشقاءِ
حدقي بي لتلمحي لفتة الطهرِ
وسرَّ الهوى ووحي السماءِ». [1]

---

(1) محمد حسين فضل الله، على شاطئ الوجدان، ط١، دار الريِّس، ص: 40. قصيدة (أُتركي الحرفَ).

ظاهرة الإيمان في الصحوة الاسلاميّة:

في شعره يبدو العلامة محمد حسين فضل الله ميّالاً إلى الانطواء، متنسكاً على قناعة المؤمن بمصائره، جزيلاً في تعامله بالتعبير الأدبي، وهذا ما يجعل العلامة فضل الله ظاهرة هامة في الصحوة الإسلامية على مدى هذا الشرق المعذب رغم ما حباه الله من خيرات، وأديان سماوية.

وعن الشِّعر يقول:

«نحن نفهم أن الشعر لا بد أن يكون تجربة غنية بالمضمون الفكري، حتى فيما يتصل بفكر الإحساس، إذا صح التعبير، ولكن لا يجوز أن تبتعد الكلمة عن الإحساس العفوي، تماماً كما هي أحاسيس الإنسان الداخلية التي قد يحتاج إلى جهد لكي يفهمها، ولكنه لن يعاني الكثير في سبل فهم إحساسه مثل الشعر الذي نلاحظه في تجربة الشعر المنثور أو الذي نسميه بالشعر المنثور في تجارب البير أديب أو غيره».

وأغلب الظن أن العلامة محمد حسين فضل الله سيطر على تجربة جمالية من نوع خاص، وهذه التجربة جلية حتى حين يتصدى لقضايا الفقه الإسلامي، وقضية مسايرة القرآن لمشاكل العصر.

يقول الشاعر في قصيدة «مناجاة حب»:

«قالت، وقد أروع فيها الهوى

روائعا تسحر رائيهـــا

صفها: فقلت: الشعر يا منيتي

يعجز عن وصف معانيهـــا

أروي حديث الحب عذب الرؤى

رواية تطرب شاديهـــا».

خلال المائة الماضية، مع استهلال النهضة الإسلامية الحديثة، يأتي العلامة محمد حسين فضل الله مدماكاً أساسياً في هذه الصحوة الإسلامية الجمالية التي نتمنى لها أقصى النجاحات في صراعها ضد الاستكبار العالمي ومن «على شاطئ الوجدان» نتمنى إبحاراً موفقاً لزورقه الشِّعري!

النهار ـ 1991/3/8

وضّاح يوسف الحلو

القراءة السابعة

في رحاب شعريّة العلامة الفقيه محمد حسين فضل اللّه
مستقبل الشاعر ومستقبل القصيدة

يوسف أبو لوز

عن الشعر والحياة في رحاب العلاّمة محمد حسين فضل الله

أخيراً، الشعر»..

أجل، أخيراً الشعر وهو يسند الروح ويداوي جروحها ويعين الحب على أن يكون مجرّة من الورد الأحمر المنقطع من شعاب القلب..

الشعر، وهو يحفظ دمك من الفساد.. الشعر وهو أيقونة أو تعويذة أو تميمة..

أخيراً هو، بغربته واغترابه ووحشته وذبوله ويفاعته، هو كلّه، حتى وهو في خريفه، أو، وهو يتوكأ على عصا شيخوخته هذا إذا كان يعرف: الشيخوخة.

الشعر، كأنني أسمع هذه الكلمة للمرة الأولى. كأنني أشهد زفافاً في الأفق الرمادي الوسيع.

كأن البحر يولد من الحجر، بل، هو كذلك، يولد الماء من الحجر، ويولد الضوء أيضاً.

تولد الكلمة الجديدة التي لم تجر بعد على مجرى لسان. تولد الجملة خضراء مثل أضمامة النعنع البريّ، ويولد الصباح من رحم الظلام المديد.

الشعرُ.. عودة وانبعاث وقيامة..

والشعرُ.. وطن

أقول هذا الكلام الاحتفالي بعد أن غمرني غامض وأنا في صميم الغيمة الخضراء التي وجدتني فيها مع حوار العلامة السيد محمد حسين فضل الله، فها هو قطب دين كبير يخرج من ضلعه قطب شعر كبير أيضاً، أما الحوار فهو في: الطفولة، الحب، الموت، الوجود، الضعف،

الرسم، الموسيقى، المرأة، الغربة، الغناء، وهو قبل ذلك حوار في الدين وحوار في الشعر.

وما أقرب، المتدين، من الشاعر، وما أقصر المسافة بينهما وهما يمجدان الإنسان والحياة. إن بينهما شعرة معاوية، وأحياناً، هما اثنان في واحد عندما يشِفَّان ويسموان ويرتفعان في سماوات النور والسكينة والحلم.

رجل الدين بالقرب من الله دائماً، ذلك أنه يقيم في طهرانية الخصوصية التي تكفل له مثل هذه القُرْبى الأبدية، فهو في فلك منجذب إليه دائماً، وإذا ابتعد عن مجال هذا الجذب، تراه وقد ضاع في سديم أعمى، تراهُ وقد فَقَدَ توازنه وذاب في غبار السّدى..

هكذا، يكتب الشاعر، أي يتدين..

وهكذا يقبض على تصوّفه، ويحرص أيّما حرص على ذلك الوهج النادر الأغلى فيه.. في جوهره وفي أعماقه، ثم، يذهب إلى ذاته، أي، يدخل في ذاته، حتى وهو تحت عين الشمس.

وينقطع رجل الدين إلى الله، في صومعة فكره، أو، في هالته، أي أنه يكتب الشعر حتى لو كان لا يكتبه، فالشعر هنا «حالة» وليس «ممارسه».

والشعرُ حالة وليس ممارسة، بمعنى كتابة، نجده عند كثيرين آخرين غير رجال الدين.. نجده في ضحكة الطفل، وفي إقبال المرأة العاشقة، وفي الحجر الذي يؤسس وطناً، وفي الشجرة التي تتثاءب في الضحى..

الشّعرُ في الحياة «حالة» وليس كتابة، هو شعر كثير لـم يُكتب بعد أو، إن الحياة هي التي تكتبه. الحياة هي التي تبدعه وتخلقه بوزن غير وزن الشاعر، وببحور غير بحوره.

يقول العلاّمة السيد محمد حسين فضل الله: «عشت الدين في الهواء الطلق وفي الصحو المبدع» ويقول: «الحب لا يُعَرَّف.. أنه يُعاش». وعن الطفل، يقول: «وأنا في هذا الموقع أجلس مع الطفل وأحدثه بلغة طفولته». وعن علاقة الحب بالموت يقول: «يختزن الحب شيئاً من الموت من حيث أنه يعطي كل الحياة، بحيث لا يحس الإنسان وهو يحب باختيارية في

مشاعره وأحاسيسه تجاه حياته، إنه يذوب في إحساسه تماماً كما تذوب الفراشة في النور فتفقد ذاتها عنده».

هذه الأقوال، وغيرها في حوار العلاّمة السيد محمد حسين فضل الله تطمئن الشاعر على مصيره الذي حدد له سلفاً أشخاص أرضيون تماماً كانوا قد وعدوا هذا الشاعر بالجحيم ورموه بالمروق والتآمر على اللغة والتجديف والخيانة والكفر والإلحاد.. وما إلى ذلك من تهم جاهزة خلقت نفوراً تاريخياً وعداوة مريرة بين الشاعر ورجل الدين، هذا الرجل الذي يختبئ دوماً في «الهالة» (التي يرفضها العلاّمة فضل الله) فيجترح له سلطة أقوى من السلطة السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

إن الجملة اللينة السمحة التي يطلقها العلامة فضل الله وهو يتحدث في الفضاء الرحب للدين والشعر، إنما هي جملة الائتلاف والحوار والقربى والمحبة التي كان يبحث عنها الشاعر العربي وعرف الموت كما لم يعرفه شاعر آخر في العالم، وبقدر ما أن الأمة العربية هي «أمة شاعرة» والشعر «ديوانها»، بقدر ما مات شعراء عرب في درب تاريخ هذه الأمة، وبقدر ما تم تعذيبهم وإقصاؤهم والفتك بأشعارهم وبرؤوسهم معاً.

إن أكثر أمة في التاريخ فتكت بشعرائها هي الأمة العربية، وكل ذلك كان يجري ـ للأسف ـ من متعصبين منغلقين على الحياة والإبداع، ويعتبرون حرية الشاعر هدماً وفوضى، في حين كان من الممكن أن تهيئ هذه الحرية لكل ما هو جميل ورائع في مستقبل الإنسان.

ومرة ثانية، أخيراً الشعر.

دائماً (هذا الكائن الضعيف ـ القوي) يجد من ينتصر له، ويمسح التراب عن جبينه: ويأخذ بيديه، منقذاً إيّاه من المستنقع.. دائماً، ثمة من يقدم كأس ماء للشاعر.. دائماً، هناك منديل أخضر يلوح في الشرفة.

لا يزعم الشاعر بأنه قادر على اجتراح المعجزة، وأن بإمكانه فرض العدل والحق على الأرض

بمجرد قصيدة. وأنه عرّاب وقائد ومرجع.. الشاعر لا يدّعي أكثر من الممكن فيه، فهو من الممكن كائن حُلمي، نبوئي، حدسي... يتبع إشارة قلبه دائماً، وقد يخيب حدسه وينكسر حلمه وتخفق نبوءته، لكنه يحاول، يظل يحاول. وتلك هي ميزته. الأحرى تلك هي قوّته.

سر القوّة العميق:

قوة الشاعر ليست في اللغة، ولا في العالم المركّب من الصور التي يجمعها من هنا وهناك كما يجمع الحطّاب جذوع الأشجار من البرية، بل قوّة الشاعر تكمن في سره العميق. تكمن في شغفه الدائم على المحاولة.

يخفق الشاعر في النبوءة ويحاول..

يخفق في الحب.. ويحاول.

يخفق في الوطن... ويحاول.

يخفق في قياس عذاباته وأشواقه أحياناً، فلا يدري أين هو من نفسه وأين هو من العالم، يغيب، قد يبتلعه ظلامه وقد تطويه مأساته التي لا تتكرر إلاّ فيه، ومع ذلك يحاول، يستبدل بموته اليومي لحظة من الحياة. لحظة واحدة فقط. القليل يكفيه، ونقطة من الندى تملؤه.

بكل هذا، وبغيره، كان الشاعر وما زال وسيظل غريباً، نائياً في كل النأي، مجرحاً، ومنهوكاً، ومهدّماً مثل شجرة سنديان قديمة،ولكنه، قابل في كل الأحوال لأن يدور يتجّه إلى طفولة سعيدة وفرح كثيف.

وإذا لم يتحصّل فرحاً في لحظة حائرة، فهو دائماً يمتلك المستقبل.

مستقبل الشاعر ومستقبل القصيدة؟؟

إنه، دائماً، الفضاء الذي يوفّره الإنسان للشاعر وللقصيدة. والإنسان هذه المرة في أرض الحرية والانتفاضة هو الطفل الفلسطيني الذي يعبر الطفل في الشاعر حجراً من الفيروز.. قل حجراً من الضوء لكي يحقق الشاعر طفولته السعيدة وفرحه الكثيف بعيداً من اليتم الذي عاناه على امتداد تاريخه الدّامي.

طفل الحجر الفلسطيني هو الذي يهدي القصيدة للشاعر، وهو الذي يدفعه من الخلف لكي لا يتلكأ في مسيره نحو المستقبل، ولكني لا يتعب من المحاولة.

قلنا: يخفق الشاعر.. ويحاول

هذه المرّة، يساعد الحجر الفلسطيني الشاعر على المحاولة.. يساعده على «التدين» و»العيش في الهواء الطلق والصحو المبدع».

على هذا النحو يتماثل طفل الانتفاضة مع طفل الشاعر، وعلى هذا النحو نقول: «أخيراً الشعر»، وحتى الشعرُ المؤجل.. ذاك الشعرُ الذي لم يُكتب له الاحتفال وله التحية.

بل الاحتفال والتحية للطفلين: الطفل الذي يتطهّر يومياً بضوء الحجر، والطفل الذي يكتب الشعر أيقونة وتعويذة وتميمة.

ومن قطب الحجر. من ضلعه، يخرج غصن أخضر هو غصن القصيدة الذي يقترب شاعرها من الله بعد أن تثبت قدميه تماماً في تراب بلاده، وجعل مركز رؤيته قبة الصخرة. الصخرة التي

تتحرر بالحجر، وتبقى بالحجر.

صخرة.. أمٌّ رؤوم للحجارة.

أمٌّ رؤوم للشاعر الذي يجري لسانه بالكلمة الجديدة في زمنه الجديد وهو يولد ولا يقوم من رماده، لا كما تقوم العنقاء فحسب، بل، كما يقوم النهر والغابة والوادي.

هكذا قيامة الشعر، من قيامة الإنسان.

المجد له.. المجد للإنسان بكل ضعفه وقوته. وحده في الحجر، وحده في الدم والدموع، وحده في الحياة ووحده في الموت، المجد له، وحده في الصلاة، وحده في الوداع..

المجد له.. وحده في الجنازة، وحده في الوردة، وحده..

الشاعر، أيضاً وحده، في صراطه نحو جماله العلوي العظيم، حفراً كملاك مصنوع من غيم ونور. يستقبل تحية من أخيه المؤمن فيرد التحية، ويرفع قبعته للحياة. والحياة أيضاً.. كالحب، إنها لا تُعرّفُ.. بل تعاش..

يوسف أبو لوز

القراءة الثامنة

اللبنانيات والنجفيّات خيالٌ جامحٌ وشعورٌ طافِحٌ بالمطارحات والاعترافات...

فاضل سعيد عقل

الشعر في على شاطئ الوجدان

اللبنانيات والنجفيات، هذان هما العنوانان الرئيسيان لأقسام المجموعة الشعرية «على شاطئ الوجدان» (1) لسماحة السيد محمد حسين فضل الله، القسم الأول من الصفحة 15 إلى الصفحة 47، والثاني من الصفحة 49 إلى الصفحة 122.

المقدمة وهي كسائر أجزاء الديوان، مكتوبة بلغة واقعية، على شفافيتها ولباقتها وأناقتها وتواريها أحياناً في المجهول وعمق شروحاتها وتفسيراتها، كأنها اعترافات المرحلة التي تصل دائماً بين الصغر والكبر، «لأن الإنسان في الحاضر يمثل بعض طفولته وشبابه في الماضي، لأن الطفل لا يموت في الشاب كما أن الشاب لا يفنى في الشيخ».

وهكذا يظل التواصل قائماً على مستويات وفي نواح معينة في مكونات الشخصية الواحدة.

والمقدمة سرد لحكاية القصائد «وكانت في بدايات الشباب التي تقترب من سن المراهقة... بحيث كان الحب انطلاقة في الخيال ووحياً في الأحلام وليس إحساساً في الواقع ولكنها لم تبتعد عن الواقع النفسي المعيوش يومذاك..»،

وجميل من المؤلف وأمانة للنفس وللقارئ أن يوضح:

«إذا كنت الآن أعيش بعض التطلعات التي تختلف عن تطلعات الشباب الأولى، فإني لا أتنكر لكل مشاعر الحنين لتلك الفترة القلقة الحائرة في حياتي، لأنها قطعة من حياتي بكل آلامها وأحلامها».

هذا المدخل إلى الديوان رائع جداً وبإخلاصه ومصارحته، وهذه الروعة هي عادة ميزة الكبار

من المفكرين لأنها تقوم على البساطة والعفوية.

بعد المقدمة، التمهيد: وهو رأي دراسي في الشعر العربي الحاضر «الذي ابتعد، في التجارب الشعرية الأخيرة، عن أن يكون شعراً عربياً. وكثير من الشعراء العرب تشعر أنهم لا يجسّدون إنساننا بل كأنهم يقرأون تجارب الآخرين عبر لغة خاصة لنخبة تعيش في أبراج عاجية، رغم وجود تجارب جيدة ناجحة. ولكن يبدو أن هنالك ذهنية أصبحت تقول: إنك بمقدار ما تكون معقداً أكثر تكون مبدعاً أكثر».

فالتعقيد والغموض وكلاهما من عناصر إفساد التمثيل النفساني هما ركيزتان لشعر معين في أيامنا.

ولكن ذلك لا يحمل الشاعر على قطع شعرة معاوية بل على العكس فإنه يدفعه إلى نوع من التقارب والمصالحة والتفاهم، ذلك أن «أي قصيدة يمكن أن تغيّر كثيراً من مجرى التفكير وتهزم الكثير من المشاعر. وإذا كان الشاعر يمثل جواً معيناً (نزار قباني) فنحن نمثل جواً آخر وهذا ما يساعد على استيعاب طبيعة الفجوات الموجودة بين هذا الجو وذاك.

من هنا، فإن للمؤلف انطلاقات تحديدية حكيمة بدون منزلقات. وهذه التحديدات تعطى بصرامة ولكن بمحبة وبنوع من التوجيه الرفيق.

والواقع النفسي الذي يعيشه الشاعر في مختلف أطواره وأصدائه وأبعاده وأعماقه ورداته وانفعالاته، منحه الكثير من الإحساس والانفتاح على الحياة والطلوع بهذه مضمونها للتاريخ. علماً أنها فترة مثابة قطعة من حياته، ولذلك عندما يقدمها يقدم بعض ذاته الذي شاركه في تأثيراته الفكرية والشعورية في بناء ذاته الآخر الذي هو الآن.

من تحديدات الشاعر:

- الشعر لا بد أن يحمل قضايا العصر.

- الموسيقى الشعرية لا يمكن أن تصدر بمرسوم.
- الحرب خرّبت حتى إنسانيتنا.
- أنا لا أؤمن بمسألة أن تفرض على الشاعر التزاماً فالشعر لا يعلّب.
- الشاعر لا يمكن أن يعيش المطلق.
- الخصوصية تحدد للشاعر حركته.
- لا قيمة للشعر إلا من خلال المضمون إذا لم يبن المجتمع.

■ **يكفي السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، فكيف إذا كان شعره وجدانياً، ولو على الشاطئ؟**

فالشاعر ينطق كما ينطق الأنبياء. إنه يستبق، ويعبّر، ويحلل، ويبارك. وينهمر الوحي على الشاعر فيغمره بكليته في جماع مكوناته: في عقله في عاطفته، في خليفته. لأنها كلها تؤلف شخصيته وتنعمه بالإلهام الذي هو أساس العطاء.

والشاعر، إلى كونه ابن الإنسانية، ابن محيطه أيضاً وابن بيئته وابن نفسيته. والسلبية في العطاء لكسر مزراب العين، كالقول «إن على الشرق أن يكون غربياً حتى يستطيع أن يجد نفسه والتركيز على مثل «هذه الجوانب يثقل إنساننا لأنه يضيعه ويعمق في ذاته الشعور بالضياع والشعور بالهزيمة».

كذلك ورد على لسان المؤلف كلام عن الثورة ودوافعها وانصباباتها على الشعر، يجدر بكل شاعر أن يطالعه. لأنه يشرح العلاقة العضوية بين العنصرين الداخلي والخارجي والماهية والدور لكل منهما.

الوجدان كينونة تامة الأجزاء، تجلى بعضها من خلال قصائد عمر المراهقة التي هي في الحقيقة من عمر بداية النضج الواعي. وأعجبتني كثيراً رنات هذا النوع الجديد من الوجدان

الرمزي، من جمل ومفردات وصور، كالآتي :(قصيدة عيناكَ في الكرى)

(الحكايات العذارى، فرحة الألحان، لهفة النور في رفة الأجفان، ألف حب تنساب منه الينابيع صفاء، الحلم الظامئ، في صمت عينيك يطوف سر الزمان، لهفة الأذعان، اخضرار الحنان، للمحبة عمق أريحي، للخير شهقة في المعاني، لفتات النور، سر الخشوع، الألق الروحي، خضرة، ربيع الأشواق، خضرة الأماني، العمر اغفاءة، صحو الجروح، روح يذوب في اللطف والخير، صمت المدى، حسبي من العمر وحي السما وطهر الحياة) .

على مثل هذه الأوتار تعزف القيثارة الألحان على شاطئ الوجدان، بقوة إيمان، ونفحة صوفية وارتفاع روحاني، وسلامة في النظم (القصائد معظمها في الخمسينات)، وتتسلسل المناجيات والانطلاقات العفوية لحب بكر، ثم يأخذ النفس في النضج مع الأيام واكتمال المواهب .

والخيال الجامع والشعور الطافح والمطارحات والاعترافات الفتية الحلوة التي تحمل في يراعها عناصر التبرئة المسبقة، ثم يأخذ النفس في النضج مع الأيام واكتمال المواهب بدء التفكير الفلسفي والرومانطيقي .

في كلام السيد محمد حسين فضل الله الشاعر، جوهر صاف، وآراء سديدة، وفي لهجته نزعة حوارية وفي قرارة نفسه وأعماق ضميره الذي لا يخبو نوره إيمان عظيم .

فاضل سعيد عقل

القراءة التاسعة

«على شاطىء الوجدان» للسيد محمد حسين فضل الله
خلجات الشباب التي عاشها فقيه الشعراء وشاعر الفقهاء يوماً

زاهي وهبي النداء ٢٢-١-١٩٩١م.

على شاطئ الوجدان «خلجات الشباب» التي عاشها السِّيد فقيه الشُّعراء يوما»

ما يجذب لدخول عالم السيد محمد حسين فضل الله، قبل الشعر، هو هذا الموقع السياسي والروحي الذي يشغله. فالمقبل على قراءته شاعراً واقع سلفاً تحت سطوةِالمكانة التي يتمتع بها السيد «ليس في أوساط عارفيه ومحبيه. بل وأيضاً في أوساط أولئك الذين يختلفون معه في الفكر والسياسة، وهو صاحب رأي في كل حدث، رأي سياسي مثقل بنفس إنساني يشير إلى جوهر هذا الرجل المتميز دائماً بقراءته الجدلية للأحداث.

المهم أن تلك السطوة التي أشرنا إليها مع السيِّد فضل الله رجل السياسة أو رجل الدين لا تُعمِّر طويلاً مع السيِّد فضل الله الشاعر فهو سرعان ما يجذب قارئه إلى عالمه الداخلي الرحب بأَبعاده الإنسانية العميقة التي يكتظ بها ديوان «على شاطئ الوجدان» الذي يكشف جانباً آخر من عالم «السيد» المتعدد الواحد.

«على شاطئ الوجدان» علامة جرأة نادرة في رجال مثل فضل الله، وهوكذلك لسببين:

الأول: إن «السيد» رغم كل المكانة التي يشغلها كرجل دين ودنيا في آن، فإنه لا يتردد في تقديم نفسه إلى الناس على أنه شاعر.

والثاني: إنه يقدم نفسه شاعر وجدان وأحاسيس ذاتية. بكل ما تعنيه هذه الصفة من احتمالات يشرع لها فضل الله الأبواب في قصائده الموزعة على فصلين يشيران إلى المكان الذي شهد ولادة هذه القصائد، وهي في جزئها الأول: «لبنانيات» أي كتبت في لبنان بعد عودته

إلى بنت جبيل في الجنوب حيث يقيم والده السيد عبد الرؤوف فضل الله، وفي جزئِها الثاني نجفيات، أي كتبت في النجف الشريف في العراق حيث عاش وتلقى علومه الدينية.

والقصائد، كما يقول في مقدمة المجموعة، كتبت في بداية الشباب التي تقترب من سن المراهقة، أي أن «السيد» يقدم شهادة عن تلك المرحلة من حياته فيقول: «إن كنت الآن أعيش بعض التطلعات التي تختلف عن تطلعات الشباب الأولى فإني لا أتنكر لكل مشاعر الحنين لتلك الفترة القلقة الحائرة من حياتي، فقد منحتني الكثير من الغنى في الإحساس والانفتاح على الحياة» (ص7).

وبهذا المعنى فإن فضل الله في مقدمته لقصائده يكشف عن فهم رحب لطبيعة المشاعر والأهواء الإنسانية في كل مرحلة من مراحل العمر الحافل بالتطلعات المتحركة وغير الثابتة. وهو يختتم مقدمته بالقول: «إنها قطعة من حياتي بكل آلامها وأحلامها ولذلك فإني عندما أقدمها إليكم فإنني أقدم بعض ذاتي الذي هو أنا الآن.

لأن الإنسان في الحاضر يمثل بعض طفولته وشبابه في الماضي، لأن الطفل لا يموت في الشاب. كما أن الشاب لا يفنى في الشيخ، بل تبقى لكل مرحلة من مراحل العمر حركتها في العمق وفي الامتداد».

منذ القراءة الأولى لقصائد فضل الله الخليلية، يبدو كم هو متأثر بل مشبع بالموروث الشعري العربي الكلاسيكي، خاصة في بنائية وأسلوبية القصيدة لديه، حيث نراه حريصاً على عمارة القصيدة الكلاسيكية من جميع نواحيها. وأحياناً كثيرة يبدو متأثراً حتى في طريقة دخوله إلى القصيدة وابتكار مفاتيحها لجهة إكثاره من أدوات النداء، وضمائر المخاطبة في مطالع قصائده، ولكن ليعزف على وتر رومنسي حيث يقول:

يا ليل ـ أين تنام.. حدثني إذا طلع الصباح
وتثاءب الأفق المهوّم.. حول همهمة الرياح

(ص52- على شاطئ الوجدان)

وفي قصيدة أخرى: (الخفيف)

يا حبيبي لم يبق لي من حديث الأمس إلا بقية من دموعِ

وحديث من الحياة، تمنته الأحاسيس في سهوم الربيعِ

(ص56- على شاطئ الوجدان)

إن فضل الله الشاعر كلاسيكي لكنه غير تقليدي، أصولي لكنه غير سلفي، وإذا كان قريباً في بنائيته وأسلوبيته من أسلافه في العصور الجاهلي والأموي والعباسي، فإن ما تحمله قصائده من مناخات ودلالات تعبيرية، وفي ما تحكيه من هموم وشجون يبدو أقرب إلى شعراء عصر النهضة، وإلى إيليا أبو ماضي والياس أبو شبكة على وجه الدقة، خاصة حين يقترب من هواجس الشباب ومشاغله تلك الفترة من العمر. علماً أنه يقول: «لقد تأثرت بمحمد الجواهري، وبالأخطل الصغير، وإلياس أبو شبكة وأحمد شوقي، وبذلك الجو الذي كان سائداً في مصر والعراق ولبنان. وأغلب الشعر الذي كان مطروحاً في الساحة كان يعبر عن قدر كبير من الوضوح، حتى الرمزية لم تكن مثل رمزية الشعر الذي نقرأه في هذه الأيام».

واضح أن الشاعر في السطرين الأخيرين إنما يحاول تبرير هذا الغموض والالتباس، علماً إنه ليس من داع لهذا التفسير، خاصة وإن قصائده مثقلة بإيحاءاتها ولو كانت مباشرة في الموضوعات التي تتناولها، فضلاً عن تلك المسحة الرومانسية التي تطبع الديوان من العنوان حتى «مناجاة الحب» القصيدة الأخيرة فيه.

و «على شاطئ الوجدان» مثقل بالمناجاة، مناجاة الحبيبة البعيدة، الوالد الغائب والأخ الذي مضى (فيما بعد) على حين غرة، إلى همومه الوجودية وذلك القلق العميق الذي يستوطن النفس في مرحلة تبدو فيها هذه النفس حائرة، تسير على غير هدى. وهذا القلق الشبابي، إذا صح التعبير نجد مرادفه لدى السيِّد فضل الله في قصيدة «من صور الشباب» التي يقول

مطلعها:

هذا الشباب: الطالع النشوانُ.. من خمرِ الحياه
الظامئ الصَّادي إلى فيض الهوى بين الشفــاه
يجري ولا يدري المصير.. وأين منه أن يراهْ
ويهيب بالدُّنيا نداه لتسمع الدنيا نــــداه
هيا إلى سُبل الهناء فما الحياة سوى الرفــاه
والكون.. إن الكون روض.. فلنمتــع في رؤاه
ويعود صفر الكف يذوي كالهشيم على ثراه
ماذا ترى صنع الشباب مع الحياة وما جناه
(ص92 ديوان على شاطئ الوجدان)

هذا القلق الذي يعيشه الشاعر في فترة شبابه، والذي يئن تحت وطأته كأنه لا يقوى عليه، يتحول في مطارح أخرى إلى قلق أعم وأشمل، وحين يطال فكرة الموت نفسها، يغدو قلقاً تخفف من وطأته يقينية الخلود وسكينة الإيمان بالحياة الآخرة، نراه يقول في قصيدة «نشيد الموت»:

سأموتُ
يغمرُ روحي الظمأى إلى وحي الخـلودِ
اشعاعُ دنيا.. حُرة الآفاق.. تهزأ بالقيـودِ
لا البغي يكمن في زواياها، ولا غلُّ الحقود
تتعانق الأرواحُ فيها.. كالأزاهِرِ والـورودِ
(ص101- ديوان على شاطئ الوجدان).

هنا يستعيد الشاعر توازنه بهذا النفس الروحاني المطمئن إلى بعد الموت. لكن هذه الطمأنينة

بقدر ما تبعث من سكينة في نفس الشاعر ، بقدر ما تكتب قلق القصيدة الداخلي وتخفف من توترها وتسارع خفقاتها ،وكل ما في هذه الحياة الدنيا من يقينيات للمرأةفي قصائد الشاعر فضل الله حيز لا بأس به،وإن كان حضورها ليس مادياً محضاً إلا أنها حاضرة ،بكل ما تتركه من خلجات وارتعاشات .

و »السيد » في قصائده التي تغني حبه مدركٌ أن الانسان السوي ، إنما هو هذا التلاقي الروحي بين جناحيه ،لكنه ميال أكثر إلى التلاقي الروحي حيث تحضر المرأة ليست كحبيبة وحسب ، وإنماكعامل توازن لهذا العالم ، وهي متعددة الأدوار في حياة الرجل ،أم ،حبيبة ، زوجة. . .الخ . في قصيدة « اسمعيني « التي كتبها بعد أن سمع « أَنها تحب « يقول :

اسمعيني ولاتحسبي –أن نجواي تلاشت ... بعد الذي كان منّا

أنا أهواك رعشة في دمائي تتغنى . .ولوعة تتجنى

فاغضبي . .أو تلوني . .كيفما شئت . .فحسبي أني أحبُ وأَفنى

« السيد « الذي يملك أن يجاهر بشعره، وبحبه ، وبخلجات الشباب التي عاشها يوماً ، يطل علينا هذه المرة من مطرح مختلف .يطل شاعراً رقيقاً مرهفاً، وصاحب جرس لغوي موسيقي جميل ،يكتب شعراًفيه الكثير من كوات الحرية .

زاهي وهبي

القراءة العاشرة

رباعيات «يا ظلال الإسلام» مشروع ملحمة اسلامية شعرية تستظلُّ بتاريخ الإسلام المجيد وتستوحيه وتحاكيه.

الشِّراع - 1985

رباعيات السيد محمد حسين فضل الله
ملحمة تستظل بالإسلام وتستوحيه

للمرة الثانية خلال أقل من عام، يطل العلامة السيد محمد حسين فضل الله على الساحة الأدبية شاعراً من طراز الكبار.

إطلالته الثانية، جاءت عبر مجموعته الشعرية «يا ظلال الإسلام» التي صدرت طبعتها الثانية حديثاً عن دار التعارف للمطبوعات وجاءت في حلة قشيبة وفي 240 صفحة من القطع الوسط متضمنة 37 قصيدة في رباعيات شعرية تناولت أغراضاً متنوعة، لكنها تتمحور حول الإسلام كقضية حضارة وكموقف من الحياة والكون.

والطابع الغالب على القصائد والرباعيات التي تضمنتها، هو ذلك النفس الملحمي الذي يستمد أصوله من الإسلام ديناً ونظام حياة، تاريخاً وواقعاً، مثالاً وتطبيقاً، فكراً وممارسة.

وإلى ذلك ترتقي الملحمة بالرباعيات إلى عوالم غنية بالصور الرائعة تتداعى وتتوالد وتتناسل، فتخلق الإطار البنيوي للملحمة الكلاسيكية من حيث هي حكاية شعب متجسدة في البطل ـ والبطل هنا هو الفكر الإسلامي ـ مثلما تخلق الإطار الموضوعي للملحمة المعاصرة، من حيث كونها تعبيراً عن التناقضات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعصف في عالمنا المعاصر، وتعطي المشروعية لجملة من القيم: التحدي، الأمل، رفض التواكل، وذلك ظاهر الخنوع والاستسلام لقدرة مصطنعة وزائفة وملفقة.

وإذ تتوحد في المجموعة قراءة التاريخ وقراءة الواقع الراهن وقراءة المستقبل، فإنما يأتي ذلك

التوحد بهدف تسليط الضوء على عناصر البطولة الملحمية (الإيمان) وعلى شخصية البطل الملحمة (المسلم المجاهد) . وكذلك على الوقائع الملحمية (الجهاد ضد النزوات وضد الاستعمار والتخلف والرجعية والجهل) .

المخزون الإبداعي في الرباعيات، عبرت عن كثافته وغناه، تلك الصور الشعرية المتساوقة مع واقعية في التعبير، بعيداً عن التصنع والتكلف، وبعيداً عن المباشرة الخطابية أيضاً :

«نحن جوع الحياة للحق، ينساب بأرواحنا انسياب السماء

ويروي الإيمان، بالاريحيات العذارى في ملتقى الأنبياء»

يقول د. عبد الهادي الفضلي في مقدمته للطبعة الثانية :

«وعروضياً يختار الشاعر البحر الخفيف وزناً لرباعياته وهو اختيار موفق، فقد دخلت تجارب سابقة على موفقية اختيار هذا الوزن، كما في ملحمة عيد الغدير للشاعر اللبناني بولس سلامة» .

فإذا جاز الاعتماد على هذا الرأي، صار ضرورياً أن نلحظ وحدة الوزن على امتداد العمل الملحمي، وهذا ما قصر عن مثله معظم شعراء الملاحم، حيث لم يجدوا مهرباً من تنويع البحور تحت ستار الدعوة إلى تناغم الأغراض الشعرية المتنوعة مع هذا البحر أو ذاك. وفي يقيني أن اعتماد بحر واحد أصعب منالاً ولا يحتمله إلا شاعر متمرس. فضلاً عن أن البحر المعتمد (الخفيف) هو من أكثر البحور اقتداراً على احتواء عنصري السرد والوصف معاً. وهما عنصران رئيسيّان في الجهد المحلمي .

الشراع 8 ت1 1985

القراءاة الحادية عشرة

رباعيات الإسلام والإلتزام بالتاريخ الإسلامي تحت ظلال شعرية سماحة السيّد محمد حسين فضل اللّه.

الأنباء - 1985

رباعيات «يا ظلال الإسلام» للسيد محمد حسين فضل الله: استيحاء للتاريخ والواقع والحياة

ديوان شعر، رباعيات شعرية، تحت اسم «يا ظلال الإسلام» للسيد محمد حسين فضل الله، جاء في طباعة جديدة وتجليد جيد وجميل. التقديم للمؤلف نفسه، وقال فيه:

هذه الرباعيات هي مشروع ملحمة إسلامية تتحرك في أجواء الإسلام الروحية والفكرية والعملية.. وتسير في دروب التاريخ الإسلامي في عملية إستيحاء، وتنطلق على صعيد الواقع لتصوره وتنقده وتستلهمه في حركة الإسلام نحو الغد الأفضل.

ولم يقدر لها أن تتم. لأن الشعر لا يمثل صناعة وبناء يملك فيه الشاعر الفكرة والأسلوب، بل هو فعل وحي ينطلق من المعاناة الداخلية للفكرة وللواقع وللأجواء..

مما يجعل من قضية الشعر في حياة كل شاعر قضية لا تخضع لاختياره، بل تخضع للأجواء التي تحكم فكره وحياته.. وهكذا كانت هذه الرباعيات تتحرك في عملية استيحاء للتاريخ وللواقع، من خلال الظروف الموضوعية الإسلامية التي كانت توحي وتسجل.

والآن، وقد كثرت الرغبة لدى فريق من الشباب المسلم الطليعي في أكثر من بلد إسلامي، في أن تجمع ديواناً.. انطلاقاً من اعتبارها لوناً حياً من ألوان الشعر الإسلامي الملتزم الذي يحتاجه إنساننا المسلم المعاصر في خطواته الواعية الهادفة على أن يتحرك الإسلام في الفكر والأدب والحياة. أقف لأقولها للقراء الكرام، راجياً من الله التوفيق لإكمالها في المستقبل القريب،

لنقدمها في طبعة جديدة، ملحمة إسلامية كاملة.. تتكامل فصولها ومواضيعها في إطار إسلامي جديد.

وقدم الدكتور عبد الهادي الفضلي للكتاب، وهو في طبعته الثانية، فعرف بالشاعر، فقال إنه لبناني مجتمعاً نجفي ثقافة. أما الرباعيات فلم تتعامل مع الدين بصفته كياناً منفصلاً عن الدولة، ولم تفهمه تاريخاً يسرد للانتعاش بالجاد السلف، ولا طقوساً عبادية رهبانية تحظر على من يتعامل معها الخوض في السياسة. بل فهمته أسلوب الحياة، وطريقها الذي ليس لها سواه عقيدة ونظاماً ونهجاً.

ومما جاء في الرباعيات:

«يا ظلال الإسلام لن يقف الركب
وإن بعثرتْ خطانا الرياحُ
لن نملَّ المدى وإن تعِب الحادي
وجنت بجناحينا الجراحُ
الدجى خلفنا وحولَ خطانا
للسنا ملعب الضحى والمراحُ
وبآفاقنا من الآي وحي
الحقِّ يفدى بنهجه ويُراحُ»

هذه أبيات من الرباعيات التي يبين فيها التحدي...

ثم يتناول واقع الساحة السياسية فيقول:

يا ظلال الإسلام ما زال في
الساحة وحي لخائنٍ أو جبانِ
يحشد الأفق بالتهاويل والأهوال

واليأس والأسى والدخـانِ
ويثير الشكوك حول سرايانـا
بروح مشلولةِ الإيمـانِ
همه أن يموت وحي الضحـى
السمح ليبقى وحي الدجى بأمان

إلى أن يقول:

سر مأساتنا مع اللعبةِ
الكبرى بأنّا نقّدسُ الأصناماَ
صنعوها لنا رؤوساً وأذنابا
يهلون في الصحاري غماما
ويعيشون يحرسون لنا الجهل
خطيبا وحاكما وإماماً
وعلينا أن ننحني للذراري
في ابتهال يقبل الأَقداما

ويقول في رباعية موضوعها «يا فتاة الإسلام»:

نحن نحيا للمتعبين الذين استنزفت
جهدهم حروف الزمان
هؤلاء الذين يحيون بألالام
إن عاشَ غيرهم للأماني
إننا للمعذبين.. لمن عاشوا
الليالي في غمرة الأحزان

كلُّ تاريخنا.. رسالةُ حبٍّ

وجهادٍ لكلِّ قلبٍ عانِ

أما موضوعات الرباعيات فمنها:

يا ظلال الإسلام لن يقف الركب،

أيها الملحدون،

يا بقايا الضباب،

سأغني للنور،

لن يموت الضياء،

إننا مسلمون،

من وحي النكبة،

يا رسول الله،

يا امتداد الصحراء،

لعبة الأمم،

في رحاب الروح،

يا فتاة الإسلام.

ويطلق في «يا رسول الله» مواقف واضحة محددة وثابتة، فيقول:

يا رسول الخلق العظيم.. هنا نحن

التفاتٌ إلى الذرى وانفتاحُ

أنت كلُّ الذرى التي تحملُ الشمسَ

فيزهو في جانحيها الصباحُ

وهنا نحنُ في السفوحِ بقايا

من فلولٍ تلهو بها الأشباحُ

من ظلالِ العصورِ حيثُ استراحَ

الجهلُ للحكمِ وهو ظلمٌ صُراحُ

تبقى ملاحظة وهي أن كل بيت من هذه الأبيات الشعرية يجب أن يقرأ متواصلاً، فقط لضرورات الطبع نشر هكذا.

ملاحظة ثانية هي أن هذا الديوان للرباعيات هو واحد من 18 مؤلفاً للكاتب الشاعر، فهو علامّة بارز[1].

الأنباء 14/ت1/1985

(١) هذه الإشارة تناسب الفترة التاريخية التي كُتِبَ المقال فيها، بينما لسماحتِهِ اليوم ما يزيد عن مئة وخمسين مؤلّفاً. وقد صدرت ثلاث دراساتٍ تناولت شعره هي: (آل البيت في شعر السيِّد محمد حسين فضل اللّه) (الإتجاه الروحي في شعر السيّد فضل اللّه) للمؤلّف علي رفعت مهدي و(السيّد فضل اللّه شاعراً) للمؤلِّف العراقي إسماعيل أبو صالح- دار الملاك - بيروت.

القراءة الثانية عشرة

رباعيات «يا ظلال الإسلام»

رباعيات الإيمان والحقّ والإنسان للسيد محمد حسين فضل الله

اللواء: ١٢-ت١-١٩٨٥

رباعيات: «يا ظِلال الإسلام»

عن « دار التعارف للمطبوعات » صدرت الطبعة الثانية من رباعيات العلامة السيد محمد حسين فضل الله تحت عنوان « يا ظلال الإسلام ».

في 240 صفحة 37 قصيدة نابضة بأحاسيس مرهفة تستنبط من عمق الإيمان، وعمق الإدراك والرؤية الغائصة إلى ما هو أبعد من المرئي والمحسوس والمنظور، وسيلة تعبير هدفها الإقناع، متوسلة الافهام بعيداً عن إلهام حول مجموعة من القضايا الدقيقة التي تمس صلب الإنسان والمجتمع.

وعناوين تلك القصائد؛ يا ظلال الإسلام لن يقف الركب ــ أين تمضي ــ أيها الملحدون ــ أيها المدلجون ــ إنها قصة الضياع ــ في الدروب الضائعة ــ يا لهول الضلال ــ يا بقايا الضباب ــ نحن في هذه الصحاري ــ وأدت وحينا الرزايا ــ سأغني للنور ــ صوتنا..

دورنا ــ خطأ العمر ــ لن تموت الضياء ــ أيها القاعدون في الدرب ــ إننا مسلمون ــ مع الأخطاء الذهبية ــ التوكل (المفهوم الخاطئ) ــ التوكل (المفهوم الصحيح) ــ يا ظلال الإسلام ــ من وحي النكبة ــ من وحي الحج- في موكب الحج ــ على ضفاف الخليج ــ وحينا في الطريق ــ واقعة بدر ــ واقعة خيبر ــ يا رسول الله ــ يا امتداد الصحراء ــ لعبة الأمم ــ في رحاب الروح ــ يا فتاة الإسلام...

ويتضمن الكتاب أيضاً: مقدمة الطبعة الثانية ــ تقديم ــ الفهرس ــ ولائحة بالمؤلفات المطبوعة للمؤلف (18 مؤلفاً.. تحمل الطبعة الأولى من رباعيات « يا ظلال الإسلام الرقم

التاسع).

القضية الإنسانية، أو لعل التسمية الأصح: قضايا الإنسان تبقى المحور الأساسي الذي يشغل الكلمة وكاتبها...

ومع هذا المحور تتمثل الصور المثالية الخلاقة، منها صورة العدل المفقود في لعبة الأقوياء والضعفاء، وحول هذا يقول السيد فضل الله في رباعياته:

- حربك السلم.. أي سلم يريدون.. أيزهو السلام للأقوياءِ

ليعيش الظلم المدمر في الأرض، بوحي الخلائق السمحاء

نحو فكر يدعو إلى الصفح إما أثقل الظلم، كاهل الضعفاء

فتظل الحياة في لعبة القوة تحكي حكاية البؤساءِ»

لا عدالة دون حق، ولا ظلم يبقى مستمراً

ولا الحق يسود بعيداً عن العدالة وقريباً من الظلم،

ولا سلام يسود بين البشر مع الهوان..

وضمن هذا الإطار يقول الشاعر العلامة فضل الله:

«أي سلام نريد؟ هل يلتقي الباطل بالحق في سلام أمين

أم يناجي الحق السماء لترعاه وتحميه من عدوانٍ مبين

أم يثير الخطى القوية تطوي بالقوى الهادرات أقوى الحصون

أي سلام نريد؟ .. لن ندع الحق ذليلاً في داجيات السجون

هذا بعض من رباعيات «يا ظلال الإسلام».. وهو أقل بكثير من غيض الفيض عند رجل دين وعلامة وشاعر (وسياسي أيضاً وإن كان للسياسة بنظره مفهومها الخاص) هو السيد محمد حسين فضل الله...

«على شاطئ الوجدان» مجموعة شعرية للسيد محمد حسين فضل الله

عن دار «رياض الريس للكتب والنشر» في لندن، صدرت مؤخراً مجموعة شعرية للعلاّمة السيد محمد حسين فضل الله تحت عنوان: «على شاطئ الوجدان».

يقول السيد فضل الله في تقديمه للديوان: «هل هذه مقدمة للديوان؟ إنني لا أحب أن أتدخل في وعي القارئ للتجربة الشعرية، فللشعر حركته في الإحساس وفي الفكر من خلال طبيعة الشكل والمضمون، وللقارئ حريته في طريقه انفعاله الشعوري به».

وتعكس قصائد «على شاطئ الوجدان» مرحلة معينة في حياة صاحبها السيد فضل الله، هي كما يبدو من ثناياها مرحلة الشباب وهو يقسمها إلى قسمين: أولاً: اللبنانيات وتضم القصائد التالية:

١- عيناك في الكرى
٢- أُحبُّهُ هذا الهدوء
٣- من أغاني القلب
٤- النور في الواقع
٥- يا ربيع الحنين
٦- تقولين لي
٧- حُبِّي
٨- أنا يا ليلاي
٩- إسمعيني
١٠- أُتركي الحرفَ
١١- يا ليل أين تنام؟
١٢- هذي حياتي هدأت...

وثانياً: النجفيات وتضم القصائد الموسومة بالعناوين التالية:

١- يا شاعري عدْ لحديث الهوى

٢- يا ليل اين تنام

٣- يا حبيبيّ

٤- يا حياة اللقاء

٥- إلى أبي في بطاقةِ عيد

٦- في رسالة إلى أبي

٧- ذكرى لقاء

٨- ايغنيّ

٩ أكانت لي يا ليل

١٠- اين عمري؟

١١- شاعر الريف

١٢- الشاعر

١٣- يا ظلال الصمت

١٤- اللّظى في دمي

١٥- أنا ها هنا

١٦- يا نجّي الحياة

١٧- أنا والحب

القراءة الثالثة عشرة

سياحة وجدانية

على شاطىء الوجدان الشعري للسيد محمد حسين فضل الله

يفاجئك السيد محمد حسين فضل الله، في مقدمة ديوانه «على شاطئ الوجدان»، أنه يعي تماماً حدود تجربته الشعرية. وعنصر المفاجأة يكمن في إنه يمنع عليك أية أفكار مسبقة لقراءة وجدانياته الملطفة بالشعر فالسيد «لا يحب أن يتدخل في وعي القارئ للتجربة الشعرية... وللقارئ حريته في طريقة انفعاله الشعورية».

انطلاقاً من المقدمة المفتوحة، نقع في حيرة أسئلة من قضية التواصل مع قصيدة كلاسيكية يقرأها شاعر، يختلف في نظرته للشعر عموماً، ويحاول قول خطاب شعري آخر، فتبدو لنا قصائد «على شاطئ الوجدان» كنموذج لقصيدة الخمسينات المرتبكة، والتي انبثق منها تيارات شعرية مغايرة، ولكن الشاعر فضل الله الذواقة في الشعر، عرف كيف يمرر مجموعة بضربة ذكاء ووعي تام لقصائده بقوله «إنها كانت في بدايات الشباب التي تقترب من سن المراهقة»، لذلك تبدو القصيدة في حالة إرهاص لأحلام وأهواء وحيرة شاب يتهجى العالم، من خلال أسئلة عن معنى الوجود والحياة، عبر قصائد ملمومة في دفاتر سرية... يحاول الشاعر أن يتوازن من خلالها وبحثاً عن طمأنينة لذلك يناشد الشاعر ويصرخ ويناجي ويبتهل وينادي. وخاطب بنبرات خجولة شفافة رومانسية كريفي ضائع فيغلب على مجموعة فضل الله ذلك الصراخ الدامع من خلال ياء المخاطبة التي تغلب على معظم عناوين المجموعة.

«يا ربيع الحنين»... أنا يا ليلاي «يا شاعري عد لحديث الهوى».

«يا ليل أين تنام» «حبي» «يا حياة اللقاء» «أين عمري» «يا ظلال الذكرى» «يا ظلال الصمت» «آه يا شاعري» «يا نجيّ الحياة».

السيد محمد حسين فضل الله يعرف أسرار كل قصيدة من قصائده، حيث يلتقط لنفسه صوراً تذكارية تبدو «قصائد من حنين» ومحاولة كتابة تحت هاجس مراهق قلق يسأل عن الموت دائماً ليصل إلى الحياة.

يقع الكتاب في 125 صفحة من القطع الصغير.

ما الذي يجعل هذا الكون

ركبا من قصائـــد

ومويجات فـــرح؟

ما الذي يبقى من الشعر

«على شاطئ الوجدان»

شعر السيد محمد حسين فضل الله

رياض الريس للكتب والنشر

لندن 1990

القراءة الرابعة عشرة:

تحية لقصيدة فضل الله يحدوني شغف الوصول:

(إلى سماحة العلامة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله:

من وحي مرثيته لأمه: رحماك في روح أمي):

غسان عبد الله.

من وحي مطوّلة رحماك في روح أمّي[1]

إذا ما كان هذا الشعر لحناً
والمدى المنسوج زهـراً
والكلام العذب ثغـراً
ما الذي يطلق في حنايا القلب دفقاً من حنان
ودوالي فيء، نسجت وجـــداً
وأورقت ظلالا من التجـــلي
فوق صحراء العمـــــر؟
ما الذي يلمع في أفق الروح حبيبات نجوم
وأفلاك تجلٍّ؟
لا حد للأسئـــــلة،
تعبت تحليقاً في فضاءات كلماتـــك
يحدوني شغف الوصول إلى ساحل كفـك
الثم في النجم بريق التماعاتـــك،
أذوب في فرات مدادك قصيدة عبـــور

(١) من قصائد سماحتِهِ المنشورة خارج المجموعات الشعريّة، وقد وردت في ختام الكتاب، ضمن القصائد المدوّنة.

أطلق أصواتاً مبهمـــــة
أبحث عن مفردات بحجم حرف منهــا
يشتد صراخ فيَ ويصير ظـلالا
ثم أداري خيبة قلـــــمي
أداري عاصفة وجـــــد،
تبحث عن شجر شعــــر،
وأقرأ هل هي أملك؟ أو الطهـــر؟
هل هو الموت الذي غيّبها؟ أو الزهــر؟
أعود، وأناجي ظلاً من ظلال قصائـدك.
يا ظلال الإســــلام
أتقمص لغة جديــــدة
وتعسكر فيَ الأمـــــاني،
أهذي، أتألق أحياناً بجرعة نور منـك،
ارتشف معيناً آخر أجده فيـــك
ينزل الأفق بين يديك دعاء وارتمـــي
أبحث عن قافية شـــــاردة
عن نجمٍ متـــــعب
ولكن أين القصــــائد؟
أأبحر في متاهات القصيـــدة؟
وأين شراعي الكبـــير؟
(وروحي، في مدى الهدهدات الحميمـة

تنتظر نهوض العبير)

داخلي شيء من الشعر ممزوج برجع الصدى،

داخلي بعض من مرائي، وامتداد للمـدى

داخلي كوامن انتظار وأشلاء انبهـــار

تبعثرت على ضفاف قصيدتـــك

أشلاء من الوجـــــد .

(أنت تفتش في الفجر عن وجه أمـك)

والفجر يفتش عن إشراقه في تسليح القصيدة

(وتبحث في الليل عن حضن أمـك)

والليل له ومضك دون النـــجوم،

له الإطلال الوله على ساحل أبياتك المجيـدة،

تبعثرت على ضفاف قصيدتك أشلاء من الوجد،

وأسائل نفسي،

(هل مات الذي يحبو على صبوات الطفولة؟)

هل أصبح شيخاً يعيش انحناءة الكهـولة؟)

أرفع يدي.. كلا،

وأدخل فردوس إشـــــراقك،

أجوب ملكوت قصيدتـــك،

أبعثر الأمـــــــاني،

أفتح باب الوجد فيهـــــا،

تغزوني روح التـــــألق،

منك هذا المعـــــين

منك هذا المعـــــين،

أدخل فردوس قصيدتك، أهادن الكلمات فيها هل أصدع بالشعر الصاعد إلى عليا، أبجديتك؟ وأقابل وجداً

هل أصـــــدع بالآه؟

أو أبدأ وحي كلماتك وأشرع في أغاني الأمومة

في كل طهر نقي مـــــع الله؟

سيدي

هل ماتـــــت الأم

وفيك كل هذا الحنـــــان؟

كلا

أقول، أنت الحنــــــان

أو يستقيل شعري من الحيـــاة.

وأنا الآن انحني أمام نسيم قصائـــدك

أقبّل يديك وأعتذر،

قد يخط المرء كلاماً ويسميه قصـــيدة،

قد يبعث بالأحرف ويسميها نشيـــداً

لكن تبعثرت على ضفاف قصيدتك أشلاء من الوجد

فعذراً.

أراجيح روحي هي التي عبثت بالأحـــرف

وأمام معين وجدانك، من أين لي القصـــيدة؟.

غسان محمود عبد الله

ملاحظة: المقاطع بين هلالين، هي من قصيدة العلامة فضل الله في «النهار»
1992/7/8 _ 1992/7/2

هويّة الشاعر

إنَّ معنى أن تكونَ شاعراً أَن تتحسَّسَ الروعةَ في آياتِ اللهِ في الكونِ، وأن تتحسَّسَ الجمالَ في كلِّ مواقعِ الحياةِ، وأنْ تتحسَّسَ العاطفَة وهي تتحرَّكُ من أجلِ أنْ تجعلَ الإنسانَ إنساناً يتحسَّسُ كل معاني الجمال ويعيش كُلّ معاني الرحمة، ويتلمَّس كُلّ مواقع المأساة.

(العلامة محمد حسين فضل اللّه)

(يا ظلال الإسلام)

رباعيات السيد محمد حسين فضل الله:

صدرت الطبعة الثانية من رباعيات «يا ظلال الإسلام» للسيد محمد حسين فضل الله.

«هذه الرباعيات ـ كما يقول شاعرها ـ هي مشروع ملحمة إسلامية تتحرك في أجواء الإسلام الروحية والفكرية والعملية.. وتسير في دروب التاريخ الإسلامي في عملية استيحاء.. وتنطلق على صعيد الواقع لتصوره وتنقده وتستلهمه في حركة الإسلام نحو الغد الأفضل.

ولم يُقدّر لها أن تتم..

لأن الشعر لا يمثل صناعة وبناء يملِكُ فيه الشاعر الفكرة والأسلوب.. بل هو فعل وحي ينطلق من المعاناة الداخلية للفكرة وللواقع وللأجواء.. مما يجعل من قضية الشعر في حياة كل شاعر قضية لا تخضع لاختياره، بل تخضع للأجواء التي تحكم فكره وحياته.. وهكذا كانت هذه الرباعيات تتحرك في عملية إستيحاء للتاريخ وللواقع من خلال الظروف الموضوعية الإسلامية التي كانت توحي وتسجل..».

من «الرباعيات» نقتطف:

رحلةُ الفكرِ، لا تزال كمَا كانت مع الأمسِ، بين مدّ وجزرِ
تتوالى أمامه، كل أهوال الدياجير في انفعال وذعرِ
كلما أظلمت بدنياه أوهامٌ أطلّت عليه روعة فجر
دربُه الشكُّ والتساؤل لكن قد تضيء الطريق يقظة فكرِ.
وحيه، كان فلسفاتِ حياةٍ أسلمت خطوها لدربٍ طويل
يلتقي بالفراغِ، يومي إلى المجهول في وحي رحلة المعقول
لا يموتُ الخيَالُ فيه ففي كل مجالٍ منابع للذهولِ
يتمنى أن يدركَ الكلَّ جزءٌ في غيابات عالمٍ مجهولِ.

القراءة الخامسة عشرة

تجلّيات الأمل الوريف في (قصائد للإسلام والحياة)

(عادل القاضي)

يقول أحد الأدباء :

« ما أقرب المتدين من الشاعر وما أقصر المسافة وهما يمجّدان الإنسان والحياة : إن بينهما شعرة معاوية، وأحياناً هما اثنان في واحد، عندما يشفان ويسموان ويرتفعان في سماوات النور والسكينة والحلم . . رجل الدين بالقرب من الله دائماً، ذلك إنّه يقيم في طهرانية الخصوصية التي تكفل له مثل هذه القربى الأبدية، فهو في فلك منجذب إليه دائماً، وإذا ابتعد عن مجال هذا الجذب، تراه وقد ضاع في سديم أعمى . . تراه وقد فقد توازنه وذاب في غبار السدى. والشاعر أيضاً، بالقرب من الله دائماً، بالقرب من ذلك الجمال العظيم دائماً، ذلك أن الشاعر منذور إلى صناعة الجمال وحراسته وتعميمه، وإذا أفلت الشاعر من فلك الجمال تراه مثل رجل الدين وقد ذاب أيضاً في غبار السدى. هكذا يكتب الشاعر، أي يتديّن » . في هذه القراءة نحن أمام متدين شاعر وشاعر متدين . . أمام الاثنين في الواحد شفافيةً وسمواً وارتفاعاً في سماوات النور والسكينة والحلم، فكيف يمكن الدخول إلى حرم كلّ منهما عند الشاعر السيد محمد حسين فضل الله؟

النجف الشاعرة:

إذا أريد لنا أن نضع للنجف ـ التي ولد فيها الشاعر- حدوداً ثقافية وروحية، فإنّها تُحدّ بضريح هائل الهيبة والقداسة . . هو مرقد الإمام علي أمير المؤمنين (ع) وبمقبرة هائلة الامتداد السكيني الموحش . . هي (مقبرة وادي السلام) . . وبحوزة علمية جليلة القدر عريقة . . وبمعترك سياسي له رأي في كلّ ما يجري، بل ويدٌ في تغييره أيضاً . . وبشعرائها الذين يتراوحون بين قائل للشعر، وبين حافظ له، وبين من له ذائقة تميز الجيد من الرديء منه .

في هذه الصحراوية غير ذات الزرع، والتي يقف الموت الكثيف على يمين الداخل إليها

والحياة الضاجّة على شماله، كيف يمكن لأشجار الأمل الوريف أن تنبت؟!

يقول الشاعر فضل الله (لا أتصور الدين وكأنه تلك الزنزانة الضيقة التي يتصورها الآخرون، فالدين ينفتح على الجمال، وعلى الإنسان الآخر، وعلى الطبيعة وعلى كلّ تطلعات المرء وآماله وأحلامه وأفراحه وهواجسه). من هنا، لم يكن الالتزام قيداً أو خطاً أحمر أو حصاً لأجنحة الشاعر (فالدين لا يلغي تفكير الإنسان واستمتاعه بالجمال.. ولكنه يقول له: كن إنساناً بكلّ غرائزك وأفراحك وأحزانك.. كن إنسان القيمة.. كن إنسان الحياة، فالحياة لن ترتكز إلا على أساس القيمة.. كن إنسان القيمة لتكون إنسان الحياة في خط القيمة، ولا أعتقد أنّ مسألة أن يعيش الإنسان حياته تتنافر مع أن يعيش فيه، حتى الشعراء

الشاعر إذا من خلال هذه النظرة القيمية يعيش الحياة.. ويخدم الحياة.. ويرسم لها صورة ما ينبغي أن تكون عليه، فالشاعر ـ بما أوتي من رهافه حس ـ لا يرضى إلاّ الحياة الأجمل والأنبل والأفضل، ودعونا نتمثل لذلك من خلال (قصائد للإسلام والحياة):

يقول الشاعر فضل الله في قصيدة (شاعر الحب) وهو يضيء لنا مهمّة الشعر:

بورك الشعرُ.. يغذي خطونا	إن ترامى الجدبُ فيه وطوانا
ويصبّ النورَ في أعماقنا	إن تمطّى في حناياها دجانا
ويثير الأمل الحر إذا	خفقَ اليأسُ، فضمته قِوَانَا
إنّه النهرُ الذي نلهو على	طيفه الحلو ونحسوه دِنَانَا
إنّه الفجر الذي يحضُننا	فيرينا في حناياهُ الأمَانا
إنّه السيف الذي نُغمده	إن طغى الجورُ بأعناق عِدانا
هو قيثارتنا في روضنا	ونذير الحقِ إن ثارت وغانا[1]

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، ص: ٢٣٩ (قصيدة شاعر الحبّ).

فهي ليست مهمة استرخائية أو بكائية أو تخذيلية.. إنه المدد الذي يغذّي الخطوّ بدفق الحركة لتغذّ السير نحو الخصب.. والشمس التي تسكب النور في كهوف الدجى فتهتك أستاره المدلهمّة.. والأمل يداعب الذين يصارعون اليأس فيصرعونه.. والنهر.. والفجر.. والسيف.. والقيثارة.. أي أنه الحياة بكلّ تجلياتها وجمالاتها.

وفي قصيدة (غاية الفن) كشفٌ آخر بمعالم أخرى لهوية الشاعر:

غاية الفن أن نمدّ خيوط الـ ... ـنورٍ في أفق ليلةٍ ظلماء
ونحيل الدرب المعربد دنياً ... من طيوف عطرية الأصداءِ
تتلاقى على أزاهيرها الخضر ... أغاني الحرية السمحاء
في ظلال من المحبة ينهلُّ ... بأعماقها.. نداء السماءِ
حيث لا لفحة الأعاصير تضرى ... في دمانا.. ولا صدى البغضاءِ
غاية الفنّ والحياة أعاصير ... وبركانُ ثورةٍ هوجاءِ
أن نشدّ القوى لينطلق الصوتُ ... هديراً في أمةٍ عمياءِ
ويثوب الوعي الطليق ليجتاح ... بكفيّه، عاصفات الفناءِ
في مجالٍ يغري طموح أمانينا ... لنجري في عالمٍ لا نهائي
فطموح الحيَاة يلهبُ شوطَ ... الركب.. عدواً لملتقى الأضواءِ[1]

فبحجم الهدف يكون زخم الحركة، كما يقول الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رض) مستوحياً ذلك من قوله تعالى (يا أيها الإنسان إنّك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه).

* روافد الأمل:

ونعاود السؤال ثانية: من أين يمتح فضل الله الشاعر أمله الوريف في (قصائد للإسلام

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، بيروت، (غايةُ الفنّ) ص: ٢٤٧.

والحياة)؟

واسمحوا لي بهذه السياحة القرآنية من خلال شاهدين فقط.. فبين غيابة البئر.. والاجماع المتآمر على جمع الله الشتيتين ــ بعدما ظن الجناةُ ــ كلّ الظنّ أن لا تلاقيا.. كانت أرجوحة الأمل تهتز فوق حقل خصيب من رَوْحِ الله (يا بني إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنَّهُ لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون).

ويلتقم الحوت (يونس) حتى لا أمل في نجاة.. هناك في مشتبك الظلام دعا ذو النون ربّه (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

.. في الظلمات المطبقة بعضها فوق بعضها، حتى إذا أَخرج يده لم يكد يراها.. يتلمّس يونس طريقه إلى الحوت..

مات الأثر ولم يمت الأمل.. تلاشت مؤشرات الحياة كلّها وبقي الرجاء حياً ينبض في قلب (يعقوب) هناك وفي قلب يونس هنا.. أملان كبيران.. وطيدان.. عامران.. مضيئان لم ينطفئا برغم ظلمة البئر وظلمة بطن الحوت..

ذئبٌ مفترسٌ ــ على حدّ الزعم ــ وحوتٌ كاسر.. ماذا يتبقى من الفريسة والضحية يا ترى!!.. نهاية محتومة لا جدال ولا مرية فيها.. ومع ادلهمام هذه النهاية المأوساوية، يبقى يعقوب ــ كما هو يونسُ ــ معلّقين بحبل الثقة بالله وحسن الظنّ به.. تنظفئ من حولهما الشموع المادية وتبقى شمعة الأمل متقدة تستمد من جذوة الروح المتيقنة وهجها المستديم فتكاد تضيء ولو لم تمسسها نار..

ومثلُ يعقوب ويونس نعيش الأمل أنّ في أحشاء الليل طفلاً للنور يتململ.. ارهفوا أبصاركم.. ذاك هو.. ألا ترون إلى بسمته تسيل حناناً ورحمة على النجاد والهضاب؟!

من هذا المعين الربّاني.. يمتح الشاعر فضل الله أمله الوريف. ففي قصيدة (يا حبيبيٌّ)

المهداة إلى أخويه، يقول شاعرنا:

إنّما العمر أن تعيش على درب ... الرسالات في الطليعة حراً
أن يموت الظلام في كلّ قلب ... يطلع الحق من حناياه بدرا
أن يفيض الينبوع في كلّ أرض ... أظمأ الحلم روحها فهي حيرى
أن نغنّي الأحلام للفجر ما شاءت ... لحوناً بروعة الحق سكرى
أن تناجي أشواقنا الله بالإيمانِ ... عبر الخشوع سراً وجهراً
أن تعيش الإسلام في الفكر فكراً ... يستثير الإبداع براً وبحراً
وجهاداً يقتاد كلّ السرايا ... للفتوحات تبدع النصر بشرى(١)

فعمر كهذا ليس مسرحاً للأحداث الصغيرة، ولا حقلاً للأشجار الطفيلية، ولا مزرعة شديدة الخصوبة لا يزرع فيها غير البقول، فليس بالسنوات تقاس الأعمار وإنما بالأنهار تفتحها في جدب الحياة.. هذا عمر متفائل من جهة ويزرع التفاؤل من جهة أخرى، والتفاؤل كان دائماً بوابة الأمل الكبيرة وعينه التي لا تنام ولسانه الذي لا يكذب.. ولعلّنا لا نحمّل أداة الحصر فوق ما تحتمل إذا قلنا إنّ قوله (إنما العمر) تساوي وتوازي القول (إنما الشعر) للترابط الجدلي الوثيق بين الأدب وبين الحياة، وهل للفن الشعريّ من هدف غير أن تعيش في طليعة درب الرسالة، وأن تدحر الظلام في القلوب لتغرس فضائل النور؟!.. وإن تفجرّ في الأرواح القاحلة ينبوعاً؟! وأن تغني أحلامك في حرية؟ وتناجي الله بخشوع الأشواق؟ وأن تعيش الإسلام فكراً مبدعاً وجهاداً حتى الفتح؟!

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، دار الملاك، بيروت، (يا حبيبيَّ) ٢٥٧.

وعلى هذا فالأمل يعرّش على سقف الديوان وعلى جنباته وعلى أرضيته أيضاً فكأننا أمام جنينة عامرة بخضرة الأمل مفعمة بروائحه الزكية، ويمكن رصد تجلياته عبر العناوين التالية:

1- الثقة بنصر الله:

ففي قصيدة (الليل سوف يموت) يقول شاعرنا:

الليل سوف يموت.. في الدرب المنضر بالورود
ويعود فجر البائسين.. مرنّحاً.. عبر الخلود
ويعود صوت الحق هدّاراً.. على رغم القيود
متمرّد النغمات يهزأ.. بالفروق وبالحدودِ
يضرى فتنتفِض المشاعر.. حرة خلف السدود

(الليل سوف يموت) إعلان صادر من قلب المعركة المحتدمة لا من خلف جدران إذاعة محكمة الإغلاق، أو مكتب مكيّف لا يدري ماذا يجري في الخارج.. إنه وعدٌ حقٌ وليس حبة اسبرين لتسكين الصداع.. إنه أشبه بقرار نافذ في عملية استشهادية أقسم منفذوها أن لا يدعوا خفافيش الليل وغربانه تصبغ دنيا الناس بالحداد، ولا ينبثق وعد حر إلاّ من نفس مترعة بثقة عالية أن قوتها أقوى من كل القوى الظلامية المستشرية.

ولعلنا نستشرف أسرار وبواطن هذه الثقة الكبرى بالنصر من قصيدة (من دمي) التي يقدّم لنا فيها الشاعر فضل الله صورة أخرى لتواشج الفنّ الشعريّ مع الحياة:

من دمي.. لا من تهاويلِ حياتي ... تبدع اللهفة أسرار شكاتي
وتثير الدرب حولي أنجماً ... يبعث الحبّ بها فجر حياتي
فاضمٌ اللحن.. في تهمويمة ... عذبةٍ تمرح فيها أمنياتي
وعلى كفِي وحيٌ.. كلّما ... لامسته الريح ثارت أغنياتي

* * *

من دمي.. من لهفة النور على خفقات الناي في لهو لِدَاتي
من أماسيّ.. وقد أيقظها في أراجيح الكرى.. وحي صلاتي
من بقايا ذكريات لم تزل في فمي ـ تحمل عطر النكبات
أحصد الفكرة ملأى بالسنا ثم أجلوها بوحي اليقظات
وعلى روحي من صوفيتي نغمٌ عذبٌ.. كأحلام سباتي[١]

2- صدق العزيمة:

وخير ما يمثل هذا الرافد من روافد الأمل عند الشاعر فضل الله قصيدته (نحن في الصحراء) إذ ليس الفخر أن تكون في منتجع للمياه فتتغنّى بعذوبة الماء وطراوته والنسيم المشرّب بحببه، بل أن تكونَ في كبد الصحراء فتصهر الرمل ليتدفق طيوباً ولآلئ من فضةٍ سلسبيل، وتحيل القفر الفقير روضاً ممرعاً تموج أزاهير جماله، وأن ترزح في الزنزانة وتبقى حتى النهاية مالكاً لزمام حريتك، يقول فيها:

ثورة الحق ستضرى في دمانا شعلةٌ تُلْهب بالنُّور قِوانَا
تتلظى في مجالي أفقها ثورة الفكر على ضوء قوانا
نحن في الصحراء لكنّا هُنا نصهر الرمل طيوباً وجمانا
ونعيد القفر روضاً ممرعا يسكب النعمى على الدنيا حنانا
ونثير الوعي في أعماقنا دفقة تملأ بالوحي سمانا
لم يزل يشرق في أمجادنا مشعل الحق على ضوء خطانا
وصدى التاريخ في أرواحنا ونداء الحق يدوي في ندانا
لوحوا بالسجن ما شئتم لنا وأملأوا البيداء ناراً ودخاناً
لّوحوا بالسجن فالفجر لنا نترع الأكؤس من فيض منانا[٢]

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، (من دمي) ص: ٢٣٥.
(٢) المصدر نفسه، (نحنُ في الصحراء) ص: ٢١٣.

وعبارته (فالفجر لنا) زخّارة موّارة بأعذب الثقة بنصر الله وأرقاها . . فالسجّان لا يقدر إلاّ أن يأتي بالليل معبئاً بعتمة ظلمه وظلامه، أمّا الفجر فهو النور الذي يتسلسل في العيون والعقول والقلوب أبداً فلا يطفؤه ظلام العالم كلّه ولو كان بعضه لبعض ظهيراً .

3ـ الثقة العليا بالهدف :

ماذا نريد؟ نريده وطناً يصفّق للربيع
وعيش للحرية الحمراء . . للحق الصريع
وطناً دعامته الكرامة خلف أستار الدروع
هذه الأساطير الطوال مضت مع الزمن الوضيع
الحقد . . علّمنا حياة الذئب . . ما بين القطيع

وفي قصيدة (من هنا نبدأها) يقول :

نحن عشناها فماذا نرتجي حول محراب الذرى إلاّ اتصالا
وسنبقى في الأعاصير وإن هزنا الأعصار . . زدناه اشتعالا

إلى أن يقول :

نحن حصدناها ولولا غفوةُ ال مجد لم نترك لصهيون مجالا
غير أنّا قد ربحنا من دجى أمسنا . . أنّا وعينا الانتقالا

وهذا منشأ انتزاع للأمل رائع وجميل أن تجتني من كالح دجاك نور الوعي، وفي الانتقال من الظلمات إلى النور .

أما بيت القصيدة فهو :

من هنا نبدأها من ثورة وعت الحقّ فجالت حيث جالا
أدركت ما حولها فانطلقت تحطم الأصنام قولاً وفعالاً
وخطت في الدرب . . والدرب حمى للأساطير . . فلم نخشى النزالا

واستطالت ومضت في خطوها تصنع التاريخ شخصاً ومثالاً
فجأة وانتحر الليل على روعة الفجر.. فباركنا النضالا(١)

وانتحارات الليل على روعة الفجر مشهد يومي وذكرى للذاكرين ممن يرمي البصر وهو شهيد.

4- الشهادة سقاية لأشجار الأمل:

فالشهادة عند من يعيشون الأمل في أرحب وأعمق وأجلى آفاقه ليست نهاية مطاف.. إنّها جزء من آمال الشهداء في أن يجسّروا أجسادهم لضفة الهدف المرتجى حتى ولو كان المجتني للثمرة غيرهم، الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى أملهم الحيّ وهو يتحرك في اتجاهين: (عمودياً) من الله الذي يشرح صدور عباده العاملين فإذا شرحها فلا يعجزهم شيء ولا يضيقون بشيء ولا ينال منهم شيء. و(أفقياً) من ذوي الأمل الوطيد يرطّبون به جفاف القنوط واليأس في دنيا الناس. فالشهيد وهو يودّع خشبة المسرح يوطئ للمشهد التالي.. مشهد الحرية والخلاص من ربقة الطاغوت، ذلك أنّ أشدّ ما يخيف الطواغيت أولئك الذين لا يهابون الموت.. المفعمون بأمل لا يعرف الأفول والذبول. يقول شاعرنا في (شهيد يتكلّم):

وطني فديتك بالدما لأرى علم الجهاد يرف فوق دمي
وتثور في دنياك ثائرةٌ للسيف، للتحرير، للقلمِ
وتشبّ فيك النار لاهبة بالثأر بالعزمات بالهممِ
ويسير ركب المنقذين على واديك بين مواكب الأممِ(٢)

5- (أيام الله) تلهم الأمل وتلهب الحماس:

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، (من هنا نبدأها) ص: ٢١٩.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، (شهيد يتكلّم) ص: ٢٣٧.

وللآملين الذين يعيشون معيّة الله ووعده الصدق ونصره وروحه العطف الذي يتزودون به في أشواط المسيرة اللاحبة اللاهبة.. إنهم وهم يحملون مشعل الهداية من بلد إلى بلد، ومن محطة إلى محطة ومن معركة إلى معركة ـ كالعداء الأولمبي الذي لا يهدأ حتى يصبّ ناره على زيت الشعلة العظمى.

ومن (ذكرى الوصي) هذه القبسة:

والذكريات منار الوعي تلهمنا من هديها ما به نسمو ونفتخر

فما غد غير زرع قد تعّهده ماضٍ فأزهر فيه الخير والثمر

ومن ذكرى مولد الإمام علي (ع) هذه القبسة:

لا لن يموت على الشفاه نداء ما دام يخصب وحيه الشهداء

ما دام يقتحم المجاهد ناهض حرٌ بفكرته الحياة تضاء

يترصّد الفجر الطليق.. وفي الذرى من روحه أنّي يسير ضياء

إلى أن يقول:

ربّاه نحن هنا التفات ضارع ملء العيون وفي الشفاء نداء

ربّاه – نحن هنا وفي أعماقنا أملٌ وفي نجوى الضمير رجاء[١]

6ـ المعاناة تؤجج الأمل:

الفارق الكبير بين من يقاسي المعاناة فتكسر عوده في إحدى جولاتها فلا يعاود الكرّة، وبين من ينظر إليها على أنّها تكسبه مناعة أخرى، هو الفارق بين اليائس وبين المتفائل الذي يعيش رحابة الأمل. وفي (قصائد للإسلام والحياة) أكثر من قصيدة ومقطوعة شعرية يستوحي منها الشاعر (فضل الله) الأمل منتزعاً من ألمه.

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، (ذكرى الوصي) ص: ٧٧،ط٢.

ففي قصيدة (يا صغيري) المهداة إلى ولده علي في عامه الثاني :

يا صغيري أنا عشت الحق في ليل الصراع
فكرةٌ بيضاء لا تهدف إلا للشعاع
إنّها تعمل للإنسان للحق كالقلاع
لكيان شامخ حرٌ قوي كالقـلاع
يتحدّى الظلم والطغيان في زهو القراع
نظر الإنسانَ روحاً هائماً عبر الضياع
وكياناً لاصقاً بالأرض.. في صمت الجياع
فمضى يختط درب الخير.. في خصب المراعي
في حياة تنهل القوة.. من رب مطاع

وفي مقطع آخر يخاطبه :

قد يطول الدرب أو يقصر في قال وقيل
ربّما يشجيك هزءٌ أو حديثٌ من جهول
ربّما ترهقك الألوان في زهو الحقول
لا تدع خطوك ينهار على كلِّ سبيلِ (١)

ويخاطب صديقاً له في قصيدة (أخي) فيقول :

حضارتنا هي سر الحياة وسرُّ انتفاضتها الواعية
وقرآننا نبعة حيّة تدفّق بالدرر الغالية
وأبطالنا : هل رأيت الر بيع يمرح في خضرة الرابية
ليبدع فيها اخضرار المنى وروعة أحلامه العافية؟

---

(١) المصدر نفسه (ياصغيري) ص: ١٥٧ .

وفي طريق الدعوة الإسلامية حيث تتكاثر أشواك الصعاب، والرجم بحجارة الافتراءات، والرشق بسهام التهم والأقاويل، وتتلبّد الأجواء بسحب الهموم والألم بإعراض الناس وانصرافهم عن جادة الحق، وما يزرع الأعداء في طريق الداعية من أباطيل وسجون ومشانق.. هناك يقف الشاعر غير محبط ولا آيس ولا متردد ولا شاك فلا تفوّضَ ثقته بخطّة أكداس الشوك والحجارة وتكسُّر النصال على النصال، وما يجمعه أعداء الضياء من جبال الظلام.

ففي قصيدة (إسلامنا) يقول:

ونحن في الدرب غد
يصلبه المساء
على جدار شاحب/
من صفرة الدماء/
لكنّنا نحيا مع الدماء/
مع المنساب من جداول السماء
حياتنا..عزم
ونجوانا.. أناشيد وضاء
نهتف بالإنسان
أن يحيا مع الضياء
في فكرة
روحية الأهداف والنداء
تحطم الحدود في معاول البناء.

وفي (علام الضجيج) يردّ بثقة الآمل المطمئن الآمن على من يثيرون الضجيج وأشكاله وألوانه:

إنّكم تجهلون انطلاق الحقيقة في
وعدنا..
وأنّ الطريق الذي تقصدون
ضلالاً
سينهار ركناً فركنا
سوف ترون بأنّ الضجيج
سيخفت أن أشرق الحقّ منا
ومهما فعلتم فنحن دعاةٌ
يعيش بأعماقنا مطمئناً..

وفي قصيدة (لأنك قوة ـ لأنّك ثورة) والتي كتبها على أثر استشهاد الإمام الصدر الأول (رض) تراه يمتص زخم الصدمة العاتية بروح لم تخفت جذوة الأمل فيها بل لا يرى في رحيله غروباً أو كسوفاً للشمس أو خريفاً يخيم بصفرته الذابلة على دنيا العاملين، وإنما هي شمس طالعة على الدوام وربيعٌ دائم الخضرة والعطاء.

نعم للحسين.. نعم للدماء
سيشرق نيسان نوراً
وينبت نيسان ورداً ويهمي العبير
وأنت ونيسان معنى الربيع
وتبقى لنا
جهادك روح وفكر رفيع
ليصنعَ في كلّ جيلٍ شهادة
ويبعث في كلّ فجر معاده..

إلى أن يقول:

وفي الفجر يشرق روح جديد

وفي الشمس سوف يذوب الجليد

ويهوى الظلام

وتنهار كلّ جبال الظلام

لأنّك في لفتات الشروق

تمزّق كلّ حكايا الظلام

لأنّك قوة

ويبعث في قصة الحق جذوة.

ورغم عودة الأساليب القديمة وحكايات أبي جهل اللئيمة التي تعترض الدعاة في مفارق الطرق وأنّى يسيرون، إلاّ أنّ الشاعر وقد كابد معاناة الدعوة إلى الله يرى أن الأساليب الجديدة ـ القديمة آيلة إلى الانهيار والتداعي وإن نفخ في نارها النافخون.

غير أنّا سوف ندعو للأساليب الكريمة

وستندك مع الفجر.. الأساليب القديمة

وهذه النظرة التي يشع ويشيع منها التفاؤل تطبع أشعار الديوان برمّته حتى ليمكن أن نصطلح عليه بـ(ديوان الأمل)، ففي (يخيّل لي) يقول ما يشبه هذه الروح المترعة بالأمل:

يخيل لي أنّ هذا الدجى بأجوائنا سحب حوّم

سيجرفها عاصف للرياح يبخّرها ثم يستسلم

ويشرق فيها نهار سعيد تموج باشراقة الأنعم

هو الفجر نهر الحياة الجميل يعومَ به غدنا الملهم

7ـ الأمل بالمستقبل:

وقد تجلّى في الديوان على مستويين: أمل بالمستقبل في بدايات المسيرة وهو تطلّع ورجاء، وبزوغ فجر الأمل في أفق الثورة الإسلامية في إيران.

فقصيدة (عودوا إلى الإسلام) التي قدّمها إلى الذين يقولون إنّ الإسلام قد انتهى دوره واستنفدت أغراضه، يقول:

ماذا؟ تعالوا نلتقي لنرى ما قلتم– في الدرب– أو قلنا
الدين عاش لنرتقي صُعُداً درب السعادة أينما عشنا
ليحرر الإنسان من فكر صنمية في الشكل والمعنى
من جاهليات تشنُّ على إيماننا غاراتها ـ ضغنا
من واقع يجني القويُّ به مِنّاومنِكم.. خير ما يجنى

إلى أن يخاطبهم:

عودوا إلى الإسلام إنّ به سرَّ الحضارة إن تعمّقنا
في وحيه.. في كلّ منطلق للحقّ.. في آياته الحسنى
عودوا إليه.. إلى الحياة على أضوائه.. في فجره أو أهنى
ما غيّر الله الحياة على أجوائنا حتى تغيّرنا
وغداً.. ومهما امتد حلم غدٍ سيعود يعمر ديننا الكونا
ويعود مجد الفاتحين إلى آفاقنا.. إن نحن أسلمنا

وفي (يا ربيع الإسلام) التي كتبها في أجواء الثورة الإسلاميّة يندغم (الحلم) بـ(الأمل) ليسطعا شمساً في رابعة النهار:

كنت حلماً وكان للحلم معنى النور في كلّ دعوة للبقاءِ
يلتقي الحالمون فيه على اسم الله يصغون للمدى في انتشاءِ
كل اشعاعة على الأفق يحيون سناها في غبطة السعداءِ

كل صوت للحق مهما تناءى في هداهم.. إيقاظة الأضـواء
ينثرون البدور في كـل أرض حيث تهتز بالشذا والنمـاء
في ابتهال يمدّه الله بالنجـوى رجاءً يمتد عـبر الدعـاء
وعلى الدرب يزحف اليـأس مذعوراً ليطويك في دروب الفناءِ

8ـ دعاء الأمل:

وتبقى ألسنة الأملين لـهجة بذكر الله تلتمس الطافه وتتلـمّس أنواره في حلكة الدرب، يقول الشاعر فضل الله في قصيدة (رحاب الفضاء):

كل هذا العذاب.. كلّ الدياجي تتهاوى أمام قدس السماءِ
كلّ ما في الدنى من الهمّ والغمّ وما امتد من صنوف البلاءِ
هي وحي النعيم في عمق روحي وصدى لهفتي سرّ هنائي
إن أطلّت عليّ من جنة الرضوان لم تدنّس بفتنة الأخطاءِ
لم يغب عن عباده لم يدع لليأس يلتقي بوحي الرجاءِ

وكما في ضوء البدءِ.. تضيء الخاتمة في (يوميات إسلامية):

حسبت الحياة رسالة تهدي إلى سبل النجاةِ
فعلى انطلاق الدرب وحي الفتح في خطو الهداةِ
وعلى شروق الفجر لمح من تباشير الأباةِ
هب لي هدى الإسلام يا رب امتداداً للثباتِ
أسلمت كلَّ العمر في جفني لربِّ الكائناتِ

القراءة السادسة عشرة

نماذج تحليليّة لقصائد:

١- صوفيّة شاعر

٢- دمعة على المحسن الأمين

٣- لعبة الأمم[١]

رامز حوراني

(١) المصدر: كتاب بنت جبيل الشاعرة - شعراء من بنت جبيل رامز حوراني (ص ٤٠١ - ٤٣٠) ط١.

آية اللّه العظمى
سماحة السيد محمد حسين فضل اللّه (دام ظله)

نبذة عن حياته:

هو أحد مراجع الشيعة في العالم، وواحد من كبار فقهائها الذين أثروا الفكر والفقه الإسلامي بكتب ودروس ومحاضرات تمتد آثارها في العالم الإسلامي، والعالم أجمع..

لبناني الأسرة، نجفي الولادة والمجتمع، نشأ في محيط النجف تربية وتعليماً، فتلقى العلوم الإسلامية في حوزاتها، والدراسات العلمية والآداب العربية في مجالساها ومنتدياتها الأدبية، صاحب طاقة حيوية، ونشاط دؤوب، وتفانٍ مخلص في الدعوة إلى اللّه تعالى..

وُلد سماحة آية اللّه العظمى السيد محمد حسين فضل اللّه في النجف الأشرف في ١٩ شعبان ١٣٥٤هجرية، الموافق لسنة ١٩٣٥ميلادية، من عائلة آل فضل اللّه التي تنتسِبُ إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام) وترتبط بأشراف مكة الحسنيين.. ووالده المغفور له آية اللّه السيد عبد الرؤوف فضل اللّه (رحمه اللّه).

نشأ سماحته في النجف الأشرف ودرس فيها المقدمات والسطوح في الفقه والأصول على والده، ودرس «الخارج» على يد كبار العلماء في النجف الأشرف منهم: السيد أبو القاسم الخوئي، السيد محسن الحكيم، السيد محمود الشهرودي والشيخ حسين الحلي، وحضر درس الفلسفة في «الأسفار» لدى الشيخ ملا صدرا البادكوبي..

انفتح على واقع الأمة الإسلامية باكراً، واطّلع على الأجواء الأدبية والفكرية والسياسية السائدة عن طريق الصحافة العربية، وشارك في النشاطات الأدبية والشعرية في الأوساط الثقافية في النجف الأشرف، وقد بدأ نظم الشعر وعمره عشر سنوات، فاستحق اللقب الذي أُطلق عليه: «شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء».. شارك في تأسيس الحركة الإسلامية في العراق، وشارك مع مجموعة من العلماء في الإشراف على مجلة «الأضواء» التي كانت تصدرها جماعة العلماء في النجف الأشرف ابتداءاً من عام ١٣٨٠هـ، وكان يكتب افتتاحيتها الثانية تحت عنوان «كلمتنا»، فيما كان المفكر الإسلامي الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصدر يكتب افتتاحيتها الأولى تحت عنوان «رسالتنا»..

هاجر من النجف الأشرف إلى لبنان في سنة ١٣٨٧هـ. وسكن في محلة النبعة (من ضواحي بيروت) وقام بتأسيس مشاريع خيريّة واجتماعية وثقافية، ومن بين تلك المؤسسات «المعهد الشرعي الإسلامي» وهي الحوزة الدينية التي تخرّج فيها العديد من علماء لبنان من المسلمين الشيعة..

بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥م. إضطرَّ إلى الانتقال إلى الضاحية الجنوبية لبيروت، وواصل نشاطه الديني والثقافي والسياسي، وانطلق بالحالة الإسلامية في لبنان في حركتها الجهادية والسياسية في مواجهة القوى المستكبرة في المنطقة والعالم.. وقف مع الثورة الإسلامية في إيران بكل قوة، وانفتح على الحركات الإسلامية في العالم العربي في أكثر من موقع، وقد تعرض لعدة محاولات اغتيال من قِبَل أجهزة المخابرات المحلية والإقليمية والعالمية، وكان آخرها وأكثرها دموية تلك التي قامت بها المخابرات المركزيّة الأمريكية بالتعاون مع أجهزة عربية وصهيونية في تفجير سيارة مفخخة قرب منزله في بئر العبد في الضاحية الجنوبية في ٨ آذار ١٩٨٥م، وسقط فيها ما يقارب الثمانين شهيداً ومائتي جريح معظمهم من النساء، إثر خروجهن من مسجد الإمام الرضا(ع) في بئر العبد بعد أداء صلاة الجمعة، لكن العناية الإلهية

تدخلت ونجا سماحته بأعجوبة.

زار سماحته العديد من البلدان الإسلامية والأجنبية محاضراً وداعياً إلى اللّه، كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا والهند والجزائر وإيران وغيرها، للمشاركة في المؤتمرات الإسلامية الفكرية..

لسماحته عشرات المؤلفات الإسلامية الفكرية والفقهية والسياسية والشعرية تربو على الـ ٦٠، من أبرزها: «قضايانا على ضوء الإسلام»، «الحوار في القرآن»، «الإسلام ومنطق القوة»، «خطوات على طريق الإسلام»، حديث عاشوراء»، «دنيا المرأة»، «الحركة الإسلامية هموم وقضايا»، «في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي»، «فقه الحياة»، «خطاب الإسلاميين والمستقبل».. بالإضافة إلى ثلاثة دواوين شعر: «يا ظلال الإسلام»، «قصائد للإسلام والحياة»، «على شاطئ الوجدان».. وقد قام بعض أفاضل طلابه بكتابة تقريرات أبحاث سماحته الفقهية كـ«رسالة في الرضاع»، «القرعة والاستخارة»، «كتاب النكاح»، «كتاب الجهاد»، «اليمين والعهد والنذر».. إضافة إلى آراء سماحته الفقهية الواردة في كتابه «المسائل الفقهية» بجزأيها الأول والثاني «ومناسك الحج».. وقد صدرت ثلاث دراسات حول شعره، الأولى: آل البيت في شعر السيّد، والثانية الإتجاه الروحي في شعر السيّد. والثالثة السيّد محمد حسين فضل الله شاعراً.

قام بتأسيس عدة مشاريع خيرية اجتماعية وثقافية منها «جمعية المبرات الخيرية» بمؤسساتها المتفرعة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مبرة الإمام الخوئي (رحمه اللّه)، مبرة الإمام زين العابدين (ع) في الهرمل، مبرة السيدة خديجة(ع) على طريق المطار، مبرة الإمام علي(ع) في معروب (جنوب لبنان).. كما أسس الحوزات العلمية في بيروت وصور وبعلبك ودمشق، والمسجد الكبير في حارة حريك الذي يضم مركزاً للدراسات ومكتبة عامة، ومشاريع أخرى قيد الإنجاز.

يتابع سماحته شؤون المرجعية عبر الإجابة عن الاستفتاءات ومتابعة أوضاع المسلمين في مختلف بلدان العالم، كما وعلّق سماحته على «الفتاوى الواضحة» للشهيد السيد محمد باقر الصدر (رحمه اللّه) كمرحلة أولى، إضافة إلى أنه قد صدر لسماحته الجزء الأول والثاني والثالث من رسالة فقهية خاصة به بعنوان «فقه الشريعة»، كما يتابع إعطاء دروس يوميه في الفقه والأصول على مستوى «بحث الخارج» لطلاب العلوم الدينية في بيروت ودمشق، هذه الدروس التي لم تنقطع منذ مجيئه إلى لبنان سنة ١٣٧٨ هـ، كما لا يزال مواظباً على نشاطه الثقافي في المحاضرات المختلفة وكتابة المقالات الإسلامية وإجراء الأحدايث الفكرية والسياسية مع مختلف وسائل الإعلام العربية والعالمية، بالإضافة إلى صلاة الجمعة في مسجد الإمامين الحسنين(ع) في بيروت.

رحلته مع الشعر

خاض التجربة الشعرية في العاشرة من عمره وقصيدته الأولى كانت تقليدية ومن أبياتها:

فمن كان في نظم القريض مفاخراً

ففخريَ طرّاً بالعلا والفضائلِ

فإن أكُ في نيل المعالي مقصراً

فلا رجعت باسمي حُداةُ القوافلِ

سأنهج نهج الصالحين وأرتدي

رداء العلا السامي بشتى الوسائلِ

وأجهد نفسي أن أعيش معززاً

وليس طلاب العز سهل التناول

ومن المعروف أن السيد قد ولد وترعرع في الأجواء النجفية المنفتحة، والغنية بالثقافة، والمتميزة بالمواهب الشعرية العملاقة، أمثال: السيد محمد سعيد الحبوبي الذي يُعَدُّ من الشعراء المبدعين، ومن العلماء والفقهاء، ومحمد مهدي الجواهري، وأحمد الصافي النجفي... الخ. ولا شك أن هذه الأجواء قد ساعدت على إثراء الموهبة الإبداعية للسيد فضل الله، والتأثير فيها بشكل أو بآخر.

ولكنَّ الأعمال الشعرية التي كانت تُقرأ في النجف، لم تكن محصورة بالشعراء النجفيين، أو العراقيين فحسب، بل كانت متنوعة، ويعبر السيد فضل اللّه عن ذلك فيقول: «وعندما كنت أعيش المرحلة التي عشتها في النجف في بداية نمّوي الثقافي كانت النجف تقرأ كل ما ينشر من فكر وأدب، سواء أكان أدباً للنثر أو أدباً للشعر في مصر وفي لبنان. أنا أذكر في بواكير عمري الشعري وكنت في سن الثانية عشرة أقرأ الياس أبو شبكة والأخطل الصغير وصلاح لبكي، وكنت أقرأ الأسماء البارزة في الشعر اللبناني كما كنت أقرأ لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ومحمود حسن إسماعيل وشعراء آخرين. / كما كنا نطل أيضاً على الشعر السوري مثل شعر خليل مردم وبدوي الجبل. كنا نقرأ كل ما تقع عليه أيدينا من مجلات. في ذلك الوقت كنت أقرأ، في بداية شبابي، للكاتب المصري طه حسين والرسالة لأحمد حسن الزيات فتأثرت بأجواء شعرية متنوعة. وكانت بدايتي الشعريّة غير تقليدية. وكانت النجف تتميز بأنها تمثل في تقاليدها جواً شعرياً يتنفس الناس فيه الشعر. فعندما يُفقد عالم كبير تقام حفلات التأبين أو ما يسمى بالفواتح، وكما في كل مجتمع، ينبري شاعر شاعران، ثلاثة شعراء، يقولون قصائد لا تطل فقط على المناسبة لكنها تنفتح على كل الواقع الاجتماعي والسياسي أيضاً، بحيث كانت تجري المساجلات، فشاعر يطرح موضوع نقدي اجتماعي، ثم يبرز شاعر يناقش ثم شاعر ثالث يوازي بين الثلاثة، فكنت تشعر أن المناسبات التقليدية تعطيك جواد داخلياً حتى ولو لم تكن شاعراً»(١).

وللسيد شعر غزير وقد جمع معظمه وطبع ونشر في ثلاثة دواوين هي:

١- قصائد للإسلام والحياة.

طُبع سنة ١٩٨٤ ويضم أعمالاً يعود بعضها إلى منتصف الخمسينيات وقد وصف الشاعر محتوياته في المقدمة بقوله: «إنه ربما كان فيها بعض ما لم يعد يمثل اتجاهاته الفكرية ومشاعره الحالية. ومن هذه السمات: الرومنتيكية الغارقة في الحزن والغربة والوحدة والبعد عن

المجتمع، لكنها في معظمها تحافظ على توجهها إلى اللّه ومخاطبته.

أنا يا رب تائه وغريب
لا يرى في الحياة ورداً هنياً
أنا مالي وللمحيط فكم يجني
علي فكرتي ويقسو عليا
وأراني أعيش في سجنه الداجي
وحيداً بين الأنام شقياً

٢- ديوان: «يا ظلال الإسلام» منشورات دار الملاك ط ٢ وقد أعيد طبعه بترتيبٍ وتنسيقٍ جديدٍ، عن دار الملاك ٢٠٠١م. - حارة حريك بيروت - لبنان ويضم ٣٧ قصيدة وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧.

وهو رباعيات تستعرض أحداث التاريخ الإسلامي لتستوحي منها الزخم العاطفي، والتخطيط الفكري، والمنهج العملي، بعملية مقارنة مع واقع المجتمعات الإسلاميّة المعاشة، بغية إيضاح المفارقات القائمة فيها، ونقدها في ضوء التشريعات الإسلامية التي انتهجها المسلمون في الماضي الزاهر، وفي إطار دعوة للعودة إلى الإسلام عقيدة ونظاماً ومنهجاً. وهي باختصار: تاريخ، ونقد، ودعوة.

ويصف السيد محمد حسين فضل اللّه ديوانه فيقول: هذه الرباعيات هي مشروع ملحمة إسلامية تتحرك في أجواء الإسلام الروحية والفكرية والعملية... وتسير في دروب التاريخ الإسلامي في عملية استيحاء وتنطلق على صعيد الواقع لتصوره وتنقده وتستلهمه في حركة الإسلام نحو الغد الأفضل.

والقصائد نابضة بأحاسيس مرهفة تستنبط من عمق الإيمان، وعمق الإدراك والرؤية الغائصة إلي ما هو أبعد من المرئي والمحسوس والمنظور وسيلة تعبير، هدفها الإقناع، متوسلة الإفهام بعيداً

عن الإبهام، حول مجموعة من القضايا الدقيقة التي تمس صلب الإنسان والمجتمع.

يتناول الشاعرهذه القضايا من جذورها الإنسانية ومن أبعادها الروحية بصورة مثالية خلاقة منها: صورة العدل المفقود في لعبة الأقوياء والضعفاء:

ويقولون:
إنَّ دينَكَ لم يحمل سلاما، ولم يفض غفراناً
لم يَفْتَح وعي الضمير على الرحمة تهمي على المدى رضواناً
لم يُنضِّر بالأريحيَّات درب الغد حباً ورقة وحناناً
بل هو القوة التي تزرع الأرض حروباً وتلتظي نيراناً
حَرِّبُكَ السِّلمُ... أيُّ سلم يريدون... أيزهو السلام للأقوياءِ
ليعيش الظلم المدمِّرفي الأرض، بوحي الخلائق السمحاء
نحو فِكرٍ يدعو إلى الصَّفح إمَّا أثقل الظلم، كاهل الضعفاء
فتظل الحياة في لعبة القوة تحكي حكاية البؤساء[١]

٣- على شاطئ الوجدان: صدر في لندن عن شركة رياض الريس ط١ للكتب والنشر في عام ١٩٩٠ وضمَّ ٥٣ قصيدة مسبوقة بمقدمة وتمهيد يعرِّف فيهما الشاعر تجربته الشعرية. كتبت القصائد في مكانين «لبنان» و«النجف» في العراق. وقد قسمها الشاعر إلى قسمين: «اللبنانيات» و«النجفيات» وهي قصائد فكر وبوح ووجدان صوفي وروحي يجسد حبيباً، فيجعل الحسي مجرداً والمجرد حسياً.

تثيرالمقدمة والتمهيد بعضاً من القضايا الأساسية المتعلقة بالشعر العربي الحديث، بصفتها ميزات له أو مشكلات يعاني منها.

في السطر الأول من التمهيد يقرر السيد «أن الشعر العربي في التجارب الشعرية الأخيرة ابتعد عن أن يكون شعراً عربياً».

ويعترف السيد في المقدمة أن قصائده هذه إنما هي ثمرة « الفترة القلقة الحائرة من حياته، وإذ هو ويلمّح إلى تجاوز فكره ومشاعره للأفكار والمشاعر التي تضمرها وتبوح بها هذه القصائد ذات التواريخ القديمة وكذلك إلى تجاوزه أو اختلافه مع بعض التطلعات التي صدرت عنها هذه القصائد، إلاّ أنه يجد لإخراجها إلى النور، مسوغات قوية في تعبيره « منحتني تطلعات الشباب كثيراً من الغنى في الإحساس والانفتاح على الحياة ».

وخلاصة القول: إن مقدمة الديوان طمحت وتوصلت إلى الإشارة بأن الذات المبدعة هي ذات تتحقق عندما تتصل فيها حلقات الأعمار، وما هذه القصائد إلاّ قطعة من حياة الشاعر بكل آلامها وأحلامها، والشاعر إذ يقدمها، إنما يقدم بعضاً من ذاته الذي شارك في تأثيراته الفكرية والشعورية في بناء بعض ذاته الآخر الذي هو كل ذاته اليوم.

إن السيد محمد حسين فضل الله إذ يتِّممُ شاطىء الوجدان إنما ليُصرِّح: « الشعر دفقة من شعاع تنفث الوعي » وهو بذلك يهوي على مساحة النور في مركزها الصاخب بالأحداث، بالظليل في النفس وإشراقاتها الصافية ليستعان بها على كآبة كبيرة:

أنت لي – يا ليل – محراب شبابِي
وهو همس صلاتي ورغابي
فإذا جنَّ بأعماقي – اكتئابي
وغفت أنشودتي خلف الضباب
غنّ لي – يا ليل – أحلام صبايا
أنا أحياك هدوءاً ساخراً
بضجيج تَعِبَتّ منه الحنايا

ولا بد لنا أن نسجل للسيد فضل الله تقديرنا الكبيرللآراء القيمة التي طرحها في مقدمة الديوان حول الشعر العربي الحديث في شكله ومضمونه وخصوصاً عندما يقول: « إن الشعر لا

بد أن يحمل قضايا العصر، ونحن لا نؤمن بالشعر التقريري الخطابي كما يحاول بعض الشعراء أن يصوروا الشرق في الجانب السلبي بحيث يُخيل للإنسان أن على الشرق أن يكون غربياً حتى يستطيع أن يجد نفسه. ونحن نشعر أن التركيز على هذه الجوانب يثقل إنساننا لأنه يضيعه ويعمق في ذاته الشعور بالضياع والشعور بالهزيمة. فقد كنا نتصور بأن الإنسان لا بد له أن يعيش الشعور بسلبياته ونقاطه ضعفه ولا بد أن يثور عليها، وكنَّا نفسر الثورة بأنها ليست مجرد حركة من الخارج تريد أن تهدم واقعاً معيناً، بل هي حركة من الداخل تريد أن تثور على ذهنية معينة. لهذا فنحن نؤمن بالصراع وبأن علينا أن نتمثَّل الصراع، وأن نحرك مفرداته، وأن نثير القضايا السلبية حتى نثور عليها ونثير القضايا الإيجابية حتى تعطينا زاداً للثورة.

وأخيراً نقدم إلي القارئ باقة من الحديقة الغنَّاء التي يضج بها الديوان وهي بعنوان:

اتركي الحرف(وجدها مستغرقة في القراءة وفي عينيها ظلال حيرة وأشباح شقاء)

أُتركي الحرف ميتاً بين كفَّيكِ... وغيبي في موكب الأضواءِ

وافتحي روحك الطليقة للأحلام... تنهل في حقول الضياء

إنَّ أهدابك الرقيقة لم تخلق... لتغفو على الرؤى العمياء

إنها للظلال... تخفق في رفق... فتنساب رعشة من ضياء

إنهاء للحياة... تفتح عينيكِ... على روعة الضحى الوضاء

حدِّقي بي: أتلمحين بعيني... ظلالا من حيرة الكبرياء

أنت حبي... وددت لو أصنع الفجر... بعينيك شعلة من هناءِ

وأصب النجوم في كأسك البيضاء... خمراً عطرية الإيحاءِ.

وأزفُّ إنطلاقة الوحي في الذكرى... لدنياك خفقة من دمائي

لتعودي إليَّ وحياً يوشي بجلال الفن الرفيع ندائي
حدِّقي بي: إني لألمح في عينيك... أشباح حيرة وشقاءِ
وضباباً يغلِّفُ السر أحببت بأوهامه ضباب شتائي
أتأنّين... من ترى يزرع الشوك... بقلب الحديقة الغناء
أهو الحرف... ثار يهزأ بالحسن... نقيا... وبالأماني الوضاء
حاقداً يعشق الظلام... ويجتاح انطلاق الألوهة الحسناء
اتركيه... فأنتِ في يقظة النور... ودنياه في دياجي الفناء
واحذري أن تقبليه... فقد يخدش عينيك بالرؤى السوداء

وإذا أقبل الظلام... وطاقت بالياليك وحشة الأجواء
حدِّقي بي... لتلمحي... لفتة الطهر... وسر الهوى ووحي السماء
وهنا تفصحين عن سر دنياك وعنِّي... ماذا وراء رجائي
ويغيب الصدى... وتنطلق الأطياف سكرى بحبنا اللانهائي
اتركي الحرف ميتاً – بين كفيك – وغيبي في موكب الأضواء

بنت جبيل ١٤/٢/١٩٥٦

قراءة في فضاء قصيدته «صوفيَّة شاعر»

١- ربّ – إنِي وفي انتفاضات آهاتي جراحٌ، وفي حشاي نصول
٢- أتلظّى بين الجحيم وفي روحي نداءٌ، إليك كيف السبيل
٣- تاه بي عالمي إلى حيث لا أدري، فدنياي وحشةٌ وذهول
٤- ودعاءٌ في هدأة الليل يستهديك، والدرب موحشٌ مجهول
٥- كيف أَسمو إلي الحقيقة حرّاً وكياني مقيّدٌ مغلول
٦- وحياتي شلوٌ تناهبه الريح، وألوى بجانبيه الذبول
٧- وصراعٌ في أفق نفسي، يجتاح شعوري به سؤالٌ طويل
٨- عذّبتْني أوهامه زمناً مرّ تعاصت عليّ فيه الحلول
٩- ما حياتي هنا.. ونحن على الكون ظلالٌ ستمَّحِي وتزول
١٠- رنّحتنا الغيوم، في هدأة الليل فماجت بنا الربى والسهول
١١- ومضينا مع الضباب كما يرتع في وحشة المكان النزيل
١٢- هكذا نحن، حيرةٌ يرقص الوهم عليه، وتستطيل السدولُ
١٣- ربِّ هبني برد اليقين فقلبي شعلةٌ ماج حولها التضليل

١٤- ربّ: هذا الليل البهيم هدوءٌ شاعريٌّ طلق وأفق جميلُ

١٥- ونسيمٌ يموج في سرحة الروح نديٌ - كما تشاء - عليل
١٦- وشعاعٌ ترقرقت فيه ألوانٌ من السحر رجرجتها الحقول
١٧- نورك الحُرُّ: منه ينبثق الطهر، ويندى به الصباح البليل
١٨- يبعث الشاعر المولّهْ صوفّياً يناجيك: والنجوم مثول
١٩- أنت رمز الهوى المشع بدنياه.. وأنت الهادي وأنت المقيل
٢٠- أنا في لجِّهِ أطوف ولكن زورقي مُجْهَدٌ وعبئي ثقيل
٢١- لم يزل في يديَّ يرتعد المجذاف، والموج هائجٌ مخبول
٢٢- وشراعي مرنّحٌ، تلعب الريح بأطرافه، وطَرْفي كليل
٢٣- أتملّى الضفاف، في حيرة الفكر، وقد لاح لي شعاع ضئيل
٢٤- أتملَّى بها مداي كأني تائهٌ شاقه المدى المجهول
٢٥- أستحث الفجر الطليق يغني بسناه الضحى ويزهوالأصيلُ
٢٦- والدجى يصرع الحياة ويهوي من ذراها فيه كيان قتيل
٢٧- ربّ هبني إِشعاعةً تبعث الوحي بروحي فقد دهاه المحول

٢٨- وأنا هائمٌ وروحي تلتاع، ودنياي في سماك - تجول
٢٩- أستحثُ الخطى إليك، كأنَّ الشوق في جانحيّ نار أكولُ
٣٠- حملتني روحي إليك فباركها، وروحي - كما علْمتَ - بتولُ
٣١- سَئِمَتْ أُفقها المكبلَ بالأغلال فاقتادها إليك الدليلُ
٣٢- وتخَلَّت عن عالم يمرح الاثم عليه، ويسرح التدجيلُ
٣٣- لا ترى فيه غير مذأبة تعوي وكونٍ على الضعيف يصولُ

(الخفيف)

من فضاء القصيدة:

لا يرضى الشاعر أن يكون محدوداً في هذا الوجود، فهو يتوق للانعتاق من مظاهر مرئياته ومحسوساته، القاصرة عن بلوغ الحقيقة، التي يسعى إليها، ففي داخله قلق تكوي ناره الحشا، وتمزق أسنته الضلوع، فيستحث الروح لنداء اللّه ومناجاته لإخراجه من الحيرة إلى اليقين.

لقد ارتفع شاعرنا عن السطح وحلّق إلى الأعالي فتاه في المدى الواسع فتأرجح بين الوحشة والذهول. وفي صومعة السكون الغارقة في محيط الظلام يبتهل الشاعر إلى اللّه

مستنجداً به كي يرشده إلى هدفه في دربه الموحش الذي لا يعرف نهايته.

مكبّل بقيود المنظور، وحياته أشلاء تتلهّى بها رياح الظنون، ويحتاج كيانه صراع عنيف يسعر لهيبه سؤال كبير، تعاصت عليه فيه الحلول، مذ تفتّحت براعم وعيه، فما زال يتألم ويلتهم الأرق النوم من عينيه!

ما قيمة الحياة الدنيا وما جدواها طالما نحن فيها ظلال زائلة؟ تدور الأرض فينا، وتدور أبصارنافي السماء، تلاحق الغيوم العابرة في سكينة الليل، فنترنّح حتى الثمالة من هذا الدوار، فتموج بنا الربى والحقول، ونمضي مع المجهول، وقد غشَانا الوهم حتى أصبحنا أوراقاً خريفية، تتلاعب بها الريح، وترميها في أماكن مقفرة.

وفي هذا الخضمّ الهائج يتوسل الشاعر إلى اللّه: رب، مَنْ غيرك الملاذ؟ هبني المقدرة والوسيلة لبلوغ الشاطىء بأمان، فقلبي شعلة من إيمان يحاصرها ضباب التضليل!.

إلهي، كيف أتيه عنك وعجائب إبداعك تترائى في هذا الكون اللامحدود؟ فمن أزاح الشمس اللاهبة، واستبدل صخب النهار بسكينة الليل ونسيمه البليل ونضاره الذي يسيل في الحقول آية من السحر والجمال؟!...

إنَّ ليلي ليس موحشاً... إنه هدوء شاعري وخيالي ينهد إلى اختراق الحجب... إلى

عالمك...، ونسيم تأنس إليه الروح فتخرج من سجنها لتسوح في أجوائك الأثيرية، وشعاع من الأمل والرجاء تترقرق ألوانه السحرية مكتسحةً ضباب الحيرة.

إني أستمد من هذا الليل رياضة يقيني شاعراً صوفياً يلتمع الطهر في سماء نفسي وأناجيك وأذوب رذاذاً في بحر حبك، وتشع دنياي برحمتك وعظمتك فأن الهادي وأنت المرتجى!

إن الشاعر لا تثنيه عن عزمه رياح التضليل،، فهو يتابع المسيرة ويصارع جنون الخضم، فيتحدّى الأعاصيربمركب صغير، هزيل، على متنه حمل ثقيل! تتقاذفه الخضم، فيتحدى الأمواج العاتية، وتصفح الرياح شراعه الواهي، فيرتعد المجذاف في يديه، وبزوغ بصره، فلا يرنو إلى العبد! وعلى الرغم من ذلك كله، فالملاح لا يقطع الرجاء، فقد له بصيص نور على الشاطى وكله شوق لاكتشاف المجهول وزوال الدجى بإشعاعة صوفية تلتمع في داخله فتضيء روحه المتوثبة لملاقاة خالقها.

وفي المقطع الأخير يستحثّ الشاعر الخطى لبلوغ الغاية المنشودة، فنار الشوق إلى الخالق تلهب جناحيه، وتسبقه روحه إليه... لقد تحقّقَت الرؤيا فالتمعت إشعاعة الوحي الصوفي، وعادت الروح إلي خالقها، فارتاحت النفس، وتحررت من أغلالها، وتخلصت من العالم الدنيوي الملوث بالآثام، والمدجّج بأسلحة الدمار، التي يمتلكها الأقوياء لا فتراس الضعفاء!

وجهة نظر

القصيدة من الشعر الصوفي المندّى: مياه الوجدان والمتصاعد من آهات المعاناة،والمعطّر بأريج الواعي، ومن أهم ميزات هذا النوع اختراق حجب المادة وتجاوزها للإنصهار بالروح المطلق، ليس بسمتغرب أبداً أن نقرأ شعراً صوفياً لمرجعية دينية وفقهية من وزن آية اللّه العظمى السيد محمد حسين فضل اللّه، ولكن المثير للإنتباه أن هذه القصيدة قد نظمت منذ حوالي نصف قرنٍ من الزمن تقريباً، أي عندما كان سماحته فتّى يافعاً ولم يكن يمتلك ما يمتلكه اليوم

من التبُّحر في الفلسفة والدين والعلم والفقه، ومن التجربة الفكرية الطويلة والنوعية على امتداد خمس وستين سنة. وهذا ما يجعلنا نعترف لسماحته بتقديرنا العالي لهذه الموهبة الإبداعية المبكرة، ولهذا الصفاء الروحي الهادئ في غليان الشباب وفورته!

وما يلفت النظر في القصيدة تجربة العمق في تمثل الفكرة، والعمق في المعاناة الداخلية، ويتجلى لنا ذلك في حركة الفكر الناتجة عن حالة قصوى من القلق الذي يدفع الشاعر للإنطلاق نحو المجهول بقصد الإكتشاف لا بقصد الهروب من الحياة.

أما الحيرة التي يقع فيها الشاعر فهي ليست وليدة قصور أوضياع، إنها مرحلة ضرورية ومطلوبة تتصارع فيها الأفكار وتنضج فيها المواقف للعبور إلى أجواء المناجاة مع اللّه من الأجواء التي تمثل حيرة الواقع في بؤس الواقع.

يبقى المسحة التشاؤمية التي تسري في أوصال القصيدة، فهي ناتجة، برأينا، عن الألم الذي يغلي في أعماق الشاعر لما يشاهده في الواقع من ظلم وفساد ومما يؤكد اعتقادنا ويدعمه البيت الأخير:

لا ترى فيه (العالم) غير مذأبة تعوي و كونٍ على الضعيف يصول

هذا لجهة المضمون الذي تزخر فيه هذه القصيدة، أما الأسلوب فهو غاية في الإحكام والأناقة والدقة وحسن اختيار المفردات والرموز الإيحائية.

وخلاصة القول: الخصائص الفنية في القصيدة متكاملة ومتنافسة في جودة ألفاظها وجمال تعابيرها: فاللغة إنسيابية، شفافة، مطواعة، سهلة لا غرابة فيها ولا تعقيد، لكنها في الوقت نفسه مشحونة بكثافة تعبيرية عميقة وموظفة توظيفاً شاعرياً مميزاً. أما الصور الشعرية فهي لوحات إبداعية عذراء.

دمعة على المحسن الأمين
(مجزوء الكامل)

١- في ذمّة القدر المبيد ،روحٌ تسير مع الخلودِ
٢- روحٌ كما رف النسيم أرقُّ من لحن القصيد
٣- وألذّ من روح المنى ، لطفاً على طبع الوجود
٤- وأشدّ من صمّ الصفاة ، صلابةً، ومن الحديد
٥- تهفو إلى الحق الصراح ، ولا تميل إلى الجمود
٦- تجري على ضوء الحياة ، مع القديم، مع الجديد
٧- وتشعُ في أفق العلى ، نجماً تألّق بالسعود(١)
٨- وترفّ في ساح الوغى بنداً سما فوق البنودِ
٩- وقفت أمام الهادمين وقوف جبّار عنيد
١٠- يبني من المجد الطريف منارة المجد التليدِ
١١- ومشت تكللّ مجدها الأجيال بالنصر المجيدِ
١٢- ما بين حشدٍ من مفا خرها وحشدٍ من جنود
١٣- فمضت كما شاء الإبا عذراء طاهرة البرود
١٤- روحٌ لها مرح الشباب وحكمة الشيخ الرشيد
١٥- جبّارةٌ تأبى الهوان نقيّة كحشا الوليد
١٦- تهوى التحرُّرَ نفسُها .. وتعاف رائحة القيود

١٧– وتثور للداعي المقدّس	ثورة الحرّ الشديد
١٨– وتذوب في قلمٍ يكاد	يسيل بالفكر السديد
١٩–قلمٌ تفجّر بالحياة	وبالصواعق والرّعودِ
٢٠– رضع الفؤاد قصاغه	كلِماً، تأجّجُ بالوقود
٢١– يرمي بها المستعمرين	وكل طاغية عنيد
٢٢– ويصبّ من بركانه	ناراً على أفق الركود
٢٣– ويثير فيها أُمَّةً	ضلَّت عن الرأي الحميد
٢٤– وغفت على نغم الوعود	ترفّ من ثغر «العميد»
٢٥– ومضت تفاخر بالجدود	ولطف آثار الجدود
٢٦– وتراقصت بني الأماني...	الغرِّ، والحلم السعيد
٢٧– ويد الغريب تبارك...	الآسي يرنات النقود
٢٨– ورؤى غدٍ تدعو لها	بالنصر والعمر المديد

٢٩– والدين، وهو عقيدةٌ	شعت على أفق الوجود
٣٠– ومبادئٌ، تجري بنا	قُدُماً، إلى أقصى الحدود
٣١– ومناهجٌ توحي لنا	روح التضامن والصمود
٣٢– عرّفتنا فيه الحياة...	بما حواه من البنود
٣٣– وأريتنا أن الإخاء	من الهدى بيتُ القصيد
٣٤– فالمسلمون.. لبعضهم..	في الدين كالصرح المشيد
٣٥– لا طائفيّة.. بينهم...	ترمي العقائد بالجحود
٣٦– والدين روح برّةٌ	تحنو على كلّ العبيد

٣٧- ترمي لتوحيد الصفوف ودفع غائلة الحقود
٣٨- عاش الموحّد في ظلال الحق.. في أفق الخلود

٣٩- مهلاً أبا الحسن الزكي.. فقد ظمئنا للورود(١)
٤٠- هذا المعين.. وكنت تنهلنا به عذب النشيد
٤١- وتبثُّ منه اليقظة الحمراء في الجيل الجديد
٤٢- وتثير منه عزائِم الأحرار في الوطن الشهيد
٤٣- جفت ينابيع الحياة به على ثغر الورود

٤٤- يا منقذاً همَم الشباب من الجهالة والرقود
٤٥- هذا الشباب وهل يراد سواه، للأمر الشديد
٤٦- ويحطِّم القيد الثقيل ونير محكمة القيود
٤٧- ضلّ الطريق فضاع ما بين المسوَّدِ والمَسُوْدِ
٤٨- وتلاقفته يد البطا لة من يد العمل المفيد
٤٩- يجري وراء اللقمة السوداء كالطفل الوليد
٥٠- ويحنّ للعمل الشريف وصفوة العيش الرغيد
٥١- واللقمة السوداء في أحبولة الجور المبيد
٥٢- ضاق الفضاء به فملَّ العيش في ظل الركود
٥٣- فتفرّقت حلقاته ما بين مغتربٍ بعيد
٥٤- ومضرّجٍ خابت مناه فردّها بدم الوريد
٥٥- وفتّى تعرّى من حجاه وثورة. العزم الأكيد

٥٦- طرق الشوارع باحثاً عن حان خمّارٍ وغيد
٥٧- هذا الشباب فهبه روحاً.. منك من روح الخلود
٥٨- فعسى يرد إلى الرشاد ويستفيق من الهجود

بيروت ١٠/٨/١٣٧١هـ

ألقيت في الحفلة الأربعينية الكبرى التي أقيمت للفقيد العظيم في بيروت في يوم ١٥ شعبان سنة ١٣٧١ ونشرت في العدد السابع من مجلة العرفان من المجلد التاسع والثلاثين.

من فضاء القصيدة:

(١-١٣)

إنَّ أمثالك أيها العلاَّمة الجليل، لا يطويه القدر، ولا يفنيه الموت، فروحك الطاهرة ستبقى ترصِّع الخلود، وتحلق في أجوائنا برقة ولطف، نستمد منها الانتعاش و ألحان العزم والإبداع، وآفاق الطموح الوهّاجة بالأمل والإشراق.

لقد كنت ثابتاً صلباً في مواقف الحق، لا تلين ولا تحيد مهما عربد المعربدون، ومهما زمجر المتنفذون! ولكنّك في الوقت نفسه كنت متنوراً صاحب رؤية بعيدة، وصولات جريئة في تحطيم الجمود، وتكسير القيود، واختراق الحجب لاكتشاف المجهول. كنت تتحرك مع مجرى الحياة بفكر وقّاد، وإيمان واعٍ، تدافع عن الجيد وترفض الرديء قديماً كان أم جديداً، وتتلألأ نجماً ساطعاً بين الكواكب المنيرة، وترفرف رايتك فوق كل الرايات في ساحة الصراع من أجل العقيدة والأمة.

وقفت شامخاً كالطود في و جه الدعوات الهدامة تكشف زيفها وتجلو الحق، وتبني من أمجاد الماضي المشرق مداميك الحاضر والمستقبل حتى سكنت في عقول الأجيال وقلوبها فراحت تحتفي بك وتقتدي بمواقفك البناءة، وآرائك الوضاءة مفاخرة بسجاياك. وهكذا فقد عادت

روحك إلى خالقها راضية مرضية لم تدنسها مباهج الدنيا ولم تغرها مفاتنها العابرة.

(١٤-٢٨)

كنت تجمع، أيها الفقيد، بين مرح الشباب ونضارته وعنفوانه، وحكمة الشيخ المتوقدة بجذوة التجربة، والناطقة بالمواقف الناضجة وبين روح جبارة مقدامة في رفض الهوان، وبريئة نقية من أدران الآثام تتوثب للانعتاق من أغلال الجمود والتخلف إلى واحات التقدم.

كنت ثائراً على الكفر والظلم تحطّم بيديك الأصنام والأوغاد، وترسم بفكرك السديد طريق الخلاص، وتفجر بقلمك ثورة عارمة على الفساد والطغيان.

لقد رضع قلمك نجيع القلب فصاغه كلاماً يشتعل بالغضب المؤيَّد بصحة العقيدة يرمي به المستعمرين وصلف أزلامهم المتحكمين برقاب العباد، ويصب بركانه ناراً على هشيم الركود، ويستفز أمة ضلَّت طريقها فارتضت أن تنقطع عن تاريخها السني وتستغرق في نوم عميق على أنغام الوعود البراقة التي تقطفها أحلامهم من عناقيد الوهم المتدلية على شفاه الإقطاع والمستعمر.

لقد سرى التخدير في عروق هذه الأمة فمضت تفاخر بالجدود الأوائل الذين سطروا التاريخ بمآثرهم وعطروه بعرق قرائحهم بينما هم حثالة على قارعة الطريق لا حول لهم ولا قوة، يتأرجحون بين الأوهام، بين ماضٍ سعيد انتهى، وحاضر أليم لا يطالون منه إلاّ خيوطاً أثيرية، ينسجها الليل ويمحوها النهار! وفي هذه الغفلة يسرح المستعمر ويمرح مستأثراً الغلال، مستدرجاً النواطير الأنذال برنات النقود!

(٢٩-٣٨)

إنَّ أنوارك كانت تشع في كل الاتجاهات. لقد سلطت الضوء على العقيدة فنفضت الغبار عنها حتى بانت جواهرها الإلهية السمحاء، ومبادئها الإنسانية النبيلة، التي إذا تمسكنا بها، تجعلنا في طليعة الأمم، وتوحدنا سداً منيعاً في وجه الطامعين والحاقدين.

لقد أريتنا أنَّ الغاية التي ترمي إليها العقيدة هي التآخي والتعاضد بين المسلمين بحيث يدعم بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص، فلا تزعزعهم النعرات المذهبية وتوقعهم في إثم الجحود تجاه الخالق العظيم الذي أوحى لرسله وأنبيائه كي يلفوا الناس جميعاً، وخصوصاً العبيد منهم، بعباءة رحمته ونور هدايته.

الدين الحق هو ما أنفقت حياتك تدعو إليه، وتمارسه، وتعمل من أجله. دين يوحّد بيننا، ويدفع عنا غائلة الحقد والبغضاء. ما مات من كان من أمثالك !فعش قرير العين، مطمئن البال في ظلال الحق.. في جنة الخلد.

(٣٩-٤٣)

لقد ظمئنا برحيلك، أبا الحسن، إلى رائحة الورود، إلى المعين الهدار بألحان الحياة الحمراء تبث الوعي في النشء وتحفّز عزائمه لاستعادة كرامة الوطن وصونها من الدخلاء والعملاء والنبلاء!

الوطن الذي جفَّت مياه الحياة في نفوس أبنائه فتمددوا في العراء وراحوا ينتظرون المطر في تموز!

(٤٤--٥٨)

وفي المقطع الأخير من هذه المرثية يستجير الشاعر بروح الفقيد التي بدّدت بأنوارها ظلام الجهل والتخلف في نفوس الشباب، والتي أذكت جذوة الجد في هممهم، ويناديها مذكراً إياها بحاجة الجيل إليها، وبدورها الريادي في هذا المضمار، وبالآمال الواعدة التي كانت ترعى براعمها وتشذب فروعها حتى تورق وتزهر وتثمر.

إنَّ الشباب هائم على وجهة منهم من ضلَّ الطريق فاختلط عليه الأمر في الصحراء القاحلة فتلاقفته يد البطالة فأخذ يحبو إلى اللقمة السوداء، وينهد إلى العمل الشريف المجبول بعرق الكد والتعب. ولكن اللقمة عزيزة يتحكم بها الظالمون الذين لايمنون بفتاتها إلاَّ على الحاشية

والأزلام!

أمام هذا الواقع الأليم ضاق الفضاء بالشباب فمنهم من تاه في الدنيا وغاب في أدغال القارة السود اء ومنهم من ركب البحر وهو لا يعرف المصير ومنهم من أغلقت بوجهه الأبواب فخاب ظنه في الحياة فآثر الانتحار على العيش الذليل ومنهم طائفة استرخصت الحياة فباعت حياءها فلجأت إلى علب الليل!

إنَّ هذا الشباب يناديك أيها العلاَّمة الجليل، ويرنو إليك كيف ترأف بحاله وتهبه بعضاً من روحك ا لخالدة علَّه يعود إلى رشده ويصحو من كبوته.

وجهة نظر:

أُلقيت هذه الدالية في رثاء المجتهد الكبير المغفور له سماحة العلاَّمة العاملي السيد محسن الأمين الذي توفاه اللّه منذ نصف قرن تقريباً.

ركز الشاعر فيها على الخصائص الذاتية للمرثو، وعلى الدور الريادي الذي لعبته هذه الشخصية الاستثنائية في محاربة الجهل والتخلف، والدعوة الفاعلة والجريئة إلى التحرر والخروج من التقاليد الجامدة الدخيلة على العقيدة الإسلامية، والدعوة الصادقة إلى جمع كلمة المسلمين بعيداً عن العصبيات المذهبية.

اكتفى الشاعر بتعداد مزايا الراحل التي كان يتحلى بها فعلاً، والتي لا يخالفه فيها أحد من معاصري الفقيد. وهذا يعكس لنا الوعي المبكر لدى الشاعر.ورفضه للتقاليد الشعرية التي كانت سائدة في الرثاءآنذاك، واستبدالها بأساليب جديدة، توحي بالصدق والمسؤولية، وتترجم الأسى الحقيقي على الفقيد، ليس لأنه مات، ولكن لانقطاع حياته في الدنيا، وخسارتنا للدور الذي كان يقوم به في سبيل العقيدة والمجتمع.

إنَّ التحسر الذي يبديه الشاعر في هذه القصيدة لا يطال الفاجعة بالفقيد وحسب، وإنما

يتجاوزها ليطال الفراغ الذي خلّفه رحيل الفقيد في المجتمع، والدور الفعال الذي كان يمارسه فيه من أجل تطويره.

إنَّ هذا النوع من الرثاء له قيمة إجتماعية لأن الراثي فيه يطل من الفاجعة الخاصة المتمثلة بالفقيد، إلى الفاجعة العامة المتمثلة بالمثالب التي يعاني منها المجتمع. وهو ظاهرة واعية وتقدمية يختلف عن الرثاء الكلاسيكي الذي يطغى فيه الصراخ على الدمع، ويعلو فيه صوت المبالغة المتمثلة بزلزلة الأرض وخسوف القمر وكسوف الشمس على الأسى الإنساني الذي يحرك الوجدان.

هذا لجهة المضمون. أما الخصائص الفنية في القصيدة فهي خصبة في مركباتها الإبداعية، وحيَّة متحركة في لغتها الشفافة. الصور الشعرية خلاَّقة، بكر، لكنها واضحة في إيحاءاتها بعيدة عن الغموض. ويتجلى ذلك في معظم الأبيات ومنها على سبيل المثال:

رضع الفؤاد فصاغه كلِماً، تأجَّج بالوقود

ومما جعل هذه الصورة تتآلف وتحدث جواً من الحركة الداخلية فينا إيقاعات الوزن المنسابة على مجزوء الكامل.

لعبة الأمم(١)

(مختارات في يا ظلال الإسلام)

(الخفيف)

يا ظلال الإسلام، وامتدّت اللعبة.. واشتدَّ حَوْلَها اللاعبونا
وتعالى الهتاف للاّعب الأكبر حتى استشاره الهاتفونا
عير أنّ الملاعب السمر غشّتْ بالرمال السوداء، منها العيونا
حيث تهتزُّ في الثرى كُرة اللعب شمالاً على المدى ويمينا

ويلفُّون حولها ويدورون... ويجرون بين دفْعٍ وجذبِ
ويهزُّون قبضة الغد في وجه السرايا، إن حنّ للفجر شعبي
وتظل الأحلام تهتز في أجفاننا الحمر في ابتهالٍ وحبٍّ
وتضيع الخطوط في غمرة الأحلام في التّيه بين دربٍ ودرب

إنها لعبة الدمى.. تَدَعُ المسرح يحيا يضمُّ لَهْوَ الأماني
يحضن الحلم في الدجى ويناغيه، ليغفو بهدهدات الحنان
ويجيء الصباح... فالحلم كابوس ثقيل مخصَّب الألوان
تستفيق الحياة فيه على عَسْف الليالي ولسعة الأفعوان
إنها لعبة الكبار مع الأطفال في قهقهاتهم في الليالي
في الخطوط العمياء.. في الأحرف البلهاء، في سرٍّ صنعة الأبطالِ
في حديث الثوراتِ، تمتصُّ بالثورة ما اشتدَّ من هموم النضال
في الأحاجي تُخدِّرُ الفكر... تُلهيه بلغو الأقوال والأفعال

ويعيش الكبار خلف سذاجات الخطى الطيبات، عبر الظلال
وتعيش الشعوب تحكي مع التاريخ ما امتدَّ من جهاد الرجالِ

ويظل الضباب يطوي المسافاتِ مع الليل طافحاً بالجمال
ثم يمضي السُّرى سريعاً وتبدو للمجدّين لعبة الأجيال

إنها لعبة الكبار التي تزرع درب العقول عشباً جديداً
يَزدهينا فيه اخضرار الغد الريَّان، إنْ أغْدقَ الكبار الوعودا
يرسمون الفكر الجديد على درب الثقافات منهجاً مرصوداً
ليعيدوا الإنسان من عمق تاريخ سحيق يطوي لديه العهودا

وبدأنا نعود للأمس في (بابل) طوراً وفي (الفراعين) أُخرى
وعلى اسم الملوك من عهد (ساسان) وقفنا نجدّد العهد فخراً
... وافترقنا... فلم تعد كلمات اللّه توحي فتبعث الحقَّ فجراً
واندفعنا في الليل، في ظلمة الأوهام نحو الضلال براً وبحراً

وأَفقْنا على الثقافات تغزونا... تثير الرمال في الأجواءِ
تتحدّى.. ترتاح للشَّك يطوي بالدياجير روعة الأضواءِ
ثم تُعري الجيل الذي رضع الأوهام فكراً من فتنة الظَّلّماء
وتناديه: أن يحطم قدس الحق جهلاً باللَّغو والضوضاء

إنها لعبة الكبار... تُدير الكأس للشاربين بين النّدامى
فلِكُلٍّ خمرٌ تُثَقِّلُ أجفان السرايا وتُسكر الأحلاما
ولِكُلٍّ ما يشتهي من لذاذات تغني... فتبعث الأنغاما

ولكُلٍّ من وحيها بعض أوهامٍ كبار تُعقِّل الأوهاما

وتلاقى التبشير.. والظلم... يا لِلْحلف يجري ليخنق الإسلاما
كلُّ ما عنده... إذا عاشت المأساة فينا.. أن يجرح الآلاما
.. أن يَفِرَّ الإسلام منَّا كياناً يتخطى الحدود والأعلاما
ويعودَ الإيمان في لعبة الأصنام فكراً يقدِّس الأصناما

سرُّ مأساتنا مع اللعبة الكبرى، ضمير مخدَّرٍ مذعورُ
خدَّروا وعيه، بسحر الربيع الغضِّ، تلهو على مداه الزهور
وأثاروا لديه في دمدمات البحر رعب الأمواج وهي تثور
وأشاروا إلى السفينة والشاطىء.. من ها هنا يطيب المسير

سر مأساتنا مع اللعبة الكبرى بأنّآ نقدِّس الأصناما
صنعوها لنا رؤوساً وأذنابا.. يَهِلُّون في الصحارى غماما
ويعيشون يحرسون لنا الجهل خطيباً وحاكماً وإماما
وعلينا أن ننحني للذَّراري في ابتهال يُقبِّل الأَقداما

سر مأساتنا، مع البحر أنَّ نتلهَّى بلعبة الأمواجِ
في سفينٍ أضاع رُبَّانها الشاطىء في العاصفات بين العَجاج
فهنا موجة تصَاعد في الأُفْقِ، وأخرى تشقُّ عمق الدياجي
ويضجُّ السُّرى.. وتبقى على الأفق بعيداً منارة الأبراج

سر مأساتنا الكبير.. مع اللعبة.. أنَّا نسير دون رسالهْ
مِزَقٌ، نحن، من بقايا عهود جملَتْ كلَّ كِبرياء الجهالهْ
فحملْنا منها الصدى الواهن المكدود في روحنا بكلٍّ ملالهْ
ووقفنا على الطريق ننادي الخبث والزَّيْفَ والأسى والنذالهْ

إنَّها لعبة الكبار فهل تُلهب أشواطنا الأماني الكبارُ
هل نعيش الوعي المنضَّر باللّه، كما يحضن الحياة النهار
إنَّا المجد للشعوب التي يفتح أحداقها الضحى الموَّار
ويثيرُ الحياةَ فيها غدٌ حرٌّ، وفكر مجنَّح هدَّار

إنهاقصة الشعوب، إذا جلجل فيها تاريخها الأريحيُ
في انطلاق لا ترهق العصبيات خطاه، ولا الخيال الدجيٌّ
إنما تستثيره دعوة الحق إذا قادها الشعور الأبيٌّ
حيث يَجري معاً على ساحة المجد جهاد حر وفكر قويٌّ

من فضاء القصيدة:

يصور الشاعر في هذه الرباعيات الواقع الأليم الذي تعيشه الشعوب النامية في ظل الصراع بين الدول الكبرى التي تتنافس فيما بينها على سلب خيرات هذه الشعوب وعلى أساليب تدجينها حتى تبقى بقرة حلوباً لها.

إن الحياة على كوكبنا هي صراع بين الأمم، ويؤكد لنا التاريخ البشري أن الغلبة فيه لا تكون إلاّ للأمة القوية. ولا مجال للبحث في هذا الصراع عن الروادع والنواهي الأخلاقية، أو حرمة

التعدي على حقوق الإنسان. فالقوي هو صاحب الحق مهما كان مستبداً وظالماً، والضعيف هو المذنب والفريسة مهما كان وديعاً ومحباً للسلام!

وإنَّ هذه القاعدة البشرية التي يقوم عليها التاريخ الإنساني لا تليق بكرامة الإنسان، وتتعارض تعارضاً كلياً مع الشرائع الإلهية كافة. وصاحب هذه الرباعيات قبل أن يكون شاعراً فهو من رجالات ا لدين المؤتمنين على إقامة الحق وتثبيته وصيانته من العابثين والمعتدين في كل زمان ومكان.

لذلك كله فإننا نجد سماحة السيد في هذه الرباعيات يرصد هذه اللعبة بكل خلفياتها وأبعادها، وبكل تفاصيلها وأساليبها الظاهرة منها والخفية، ويقوِّمها انطلاقاً من نظرته الإسلامية.

يبدأ الشاعر بوصف اللعبة الدولية المحتدمة حيث راح جمهور الملعب يصفِّق ويهتف للاعب الأكبر، المتمثل بالدول القوية. لقد فعل هذا الهتاف فعله، فدبت الحماسة في اللاعبين الأقوياء فضاعفوا غيَّهم، ومدوا نفوذهم إلى أقاصي العالم فزرعوه رعباً ودماراً وفقراً.

وتستمر اللعبة بين مد وجزر، ويزداد القوي الظالم شراسة فيكشِّر عن أنيابه، ويمارس ساديته بحق طلائع المناضلين الذي يحاولون أن يغيروا هذه المعادلة البشعة. ومع ذلك لا تموت الأحلام في أجفاننا التي أدماها سهاد العذاب، بل تبقى معرِّشة على الأهداب تقتات بالدعاء والحب ولكن الليل طويل والأحلام قد غصَّت بها الأجفان، فانهدم المكان وضاعت الأحلام بين الفرق والأحزاب!

وتعرف الدول الكبرى كيف تدجِّن الضعفاء وتمتص براعم الوعي فيهم فتقيم لهم الأنظمة والجمهوريات ومجالس التمثيل «الديمقراطية» الشكلية، وتلهيهم بهذه المسرحية التي تتحرك فيها الدمى بإرادتها وتوجيهاتها فتداعب أمانيهم وتدغدغ أحلامهم إلى حين، ولكنها إذا ما شعرت لحظة بإمكانية تحول الحلم إلي بعض الحقيقة، تقوم بواجباتها على أحسن ما يرام من الخداع والتضليل فينقلب الحلم الجميل إلى كابوس مرعب تستفيق الناس فيه على الظلم

والسم الفتاك.

إن لعبة الأقوياء مع الضعفاء، هي تماماً كلعبة الكبار مع أطفالهم الصغار، بقصد تسليتهم وإضحاكهم قبل أن يذهبوا إلى النوم. وهذا ما يحدث فعلاً في المجتمعات المختلفة، إنك ترى الضعف يضع لنفسه ثقافة شعبية، أسطورية، تعطِّل عقول الناس، وتخدِّرُها، وتبعدها عن التفكير الجدي بواقعهم المأساوي. إنهم يتخلُّون عن المواجهة الفعلية، ويجترون أحاديث الثورات، وقصص الأبطال، في النوادي والبيوت، وأحياناً في وسائل الإعلام، متوهمين، أنهم ينعمون بحرية الرأي... وقد فات هؤلاء أن ماهم فيه، ما هو إلاَّ ضرب من الحنكة، يمارسه الأقوياء لامتصاص النقمة، والقضاء على براعم الثورة قبل أن تورق!.

ويمضي الكبار في هذه اللعبة، مطمئنين إلى سذاجة الشعوب الضعيفة ومستأثرين بخيراتها، وتمضي الشعوب مسترخية على أمجادِ الماضي، تستمد من واحاته الغابرة صور البطولات ويحلو السمر في هذه الأجواء... ولكن سرعان ما يطلع الصباح ويكتشف المجدون الفرق الشاسع بين الوهم والحقيقة!

ولا يقف الكبار عند هذا الحد، بل يُبدعون في غسل العقول بأساليبهم الشيطانية المغرية، وبوعودهم العرقوبية البراقة وبطرح أفكارهم التي تزرع الفتنة بين أبناء الشعب الواحد فتثير النعرات الطائفية والمذهبية، والعصبيات الاثنية.

لقد أتت هذه السياسة الخبيثة ثمارها، حتى أصبحنا نسمع أصواتاً تجاهر وتفاخر بأنها لا تنتمي إلى هذه الأمة، ولا علاقة لها بها، وبأنها من جذور وأصول تاريخية مختلفة، وخير دليل على ذلك تيار الدعوة الفرعونية والفينيقية والساسانية. إن هذه الدعوات وغيرها كانت تلقى التشجيع والتأييد من قبل قوى الاستكبار حتى تبتعد الأمة عمَّا يوحدها وتغرق في مستنقعات التجزئة والضعف لتصبح قطيعاً أليفاً لهذه القوى.

ثم جاءت موجة الحداثة الممنهجة غربياً، وأخذت أبواقها الإعلامية تروِّج للحضارة الغربية،

وتكيل الاتهامات والانتقادات للثقافة الإسلامية، محرضة الجيل على رفضها لأنها، حسب زعمهم ،ثقافة سلفية انتهى عهدها، ولم تعد مناسبة لواقع الحاضر، ومتطلبات المستقبل. لقد أفرزت هذه الموجة تيارات فكرية موجهة راحت تنفث الرماد في العيون، وتبذر الشكوك في التراث تحت عناوين براقة ظاهرها عقلنة الكفر، وباطنها إبعاد الجيل الجديد عن إرثه الحضاري، والقضاء على روح الإيمان فهي، وضياعه في جدليات الفلسفات الوضعية التي وجدت لخدمة السياسات الغربية للسيطرة على المجتمعات الضعيفة.

إن الكبار يتقنون فنون اللعبة جيداً. فقد أعدوا لكل فريق من الصغار ما يستميله ويستهويه. فللخاصة منهم ما تشتهيه من مغريات الدنيا ولذائذها، وللعامة ما يخدرها ويقضي على روح التوثب فيها، والأدهى من ذلك كله: قدرتهم الجهنمية على تعقيل الأوهام، وإقناع أصحابها بأنها أمور قابلة للتحقيق، ولا عجب في ذلك! فهم القادرون على كل شيء، ومن يصغي إليهم يحصل على كل شيء!

لقد تخطَّى كيدهم كل المقدسات فاتخذوا من الدين والتبشير به وسيلة لاختراق الشعوب، وتمزيق شملها، فحوَّلوا المسيحية السمحاء إلى صليب يلتمع، على مقابض السيوف التي يطعنون بها المساكين والفقراء! ولا ضير في ذلك، فالمهم، عندهم، أن يحاصروا الإسلام وفرغوه من مضامينه الروحية، والحضارية المشرقة، حتى يصبح الإيمان فيه طقوساً جامدة، وفكراً سطحياً يقدس الأصنام!

سر مأساتنا في مواجهة هذه اللعبة التي تستنزف طاقاتنا، وتنهب خيراتنا، ضمير تنسج عليه العنكبوت خيوطها، وتدجنه أساليب الترغيب والترهيب حتى ينقاد مطواعاً لإرادتهم يحركونه وفق رغباتهم ومصالحهم.

لقد غاب الوعي، فتخلى الناس عن حقهم، في تحقيق ذواتهم، وتفعيل وجودهم، بوحي من العقيدة الإلهية، التي تحرض الإنسان ليكونَ خليفة اللّه على الأرض، فلا يقدس غيره، ولا

يسجد إلا له. لقد ألغى الناس ذواتهم وارتضوا أني يصبحوا قطيعاً يقوده الراعي أنَّى شاء! وكمًّا مكدَّساً يقدمون الطاعة العمياء للحكَّام الذين نُصِّبوا عليهم نواطير أمينة، تعدُّ عليهم أنفاسهم، وتُسمِّن جوعهم محاصيل وغلالاً وفرية لأسيادهم! ويحرسون جهلهم بمؤازرة زمرة مأجورة ممن يزعمون أنهم خطباء القوم وحكامه وأئمته البررة! وعلى الناس أن تطأطئ الرؤوس إجلالاً وإكباراً للتيجان المبجلة، وتقبّل النعال المرصعة! فالصحراء بخيلة في أمطارها... ولكنها جوَّادة بتيجانها ونسل أمرائها المعصومين!

سر مأساتنا في هذا الخضم الهائج أننا نتلهَّى بالتفاصيل ونستغرق فيها، فننسى الهدف الذي يتلاشى ويتصاعد بخاره مع غبار العراك العبثي، ويتعالى الضجيج، وتشتعل الحناجر بالهتافات، ولكن النتيجة دوران في الفراغ!

إننا نسير في الصحراء بلا ماء وزاد.. ونشكو عناء المسير! نسير بلا رسالة توحدنا ونستهدي بأضوائها... إننا مِزَقُ متناثرة تعشعش في داخلنا أحقاد «داحس والغبراء»، وتنمو في حقولنا أشواك الخبث والأسى والنذالة!

وبعد هذا الإسهاب الواعي والعميق في تصوير الواقع الأليم الذي تعيشه الأمم الضعيفة في لعبة الأمم القوية يتساءل الشاعر: هل تنهض هذه الشعوب من سباتها، ويفجر فيها هذا المخزون الهائل من القهر والحرمان ينابيع الوعي فتمتشق سيف الحق الذي يلتمع وهّاجاً في كلمات اللّه فتنتفِضُ على المستبدين، وتخرج من ظلام العبودية إلى نور الحرية؟! ويجيب الشاعر بثقة: إن مجد الشعوب وعزها لا يصنعه إلاّ أبناؤها الصيد الذين يستفزهم الواقع فيتطلعون إلى الغد المشرق بفكرهم الوهاج ونضالهم الدؤوب.

وما نقوله ليس حلماً وردياً يداعب الأماني، ويرصع الخيال. إنه حقيقة ساطعة محفورة علي جبين التاريخ: فالأمة التي تستمد من تاريخها وحاضرها عناصرالقوة والوحدة فلا تنزلق إلى أزقة العصبيات، ولا تسترخي إلى دياجير التخلف، قادرة، بفعل شعورها بعنفوانها، واسترشادها

بالجيد من تراثها، والشريف من مثقفيها، أن تغيِّرَ وجه التاريخ وتدوس على الطغاة مهما تكبروا وتجبروا!

وجهة نظر:

تكشف هذه القصيدة المخزون الثقافي النوعي الذي ينماز به الشاعر، وتفاعله الجاد والعميق مع هموم الشعوب المستضعفة. فهو لا يكتفي بتوصيف الواقع المأساوي لهذه الشعوب وإنما يحرضها ويرشدها إلى طريق الخلاص. وتزخر القصيدة بميزات عديدة منها:

١- الوعي السياسي المستمد من نظرة موضوعية إلى العالم وواقعه انطلاقاً من لعبة القوة التي تقود هذا العالم وتتحكم بمصيره، وانتهاءً بالمخارج والحلول التي يطرحها الشاعر للتخلص من القاعدة الظالمة التي يقوم عليها التاريخ البشري.

٢- محاكمة هذا الواقع ونقده انطلاقاً من المفاهيم الإسلامية التي ترفض أسبابه ونتائجه، وتسليط الضوء على حركة الحياة في المجتمعات الإسلامية ونقدها لأنها منحرفة عن العقيدة.

٣- مطاردة الأفكار الدخيلة وكشف بطلانها وزيفها وخطورتها وتأثيرها السلبي على أجيالنا وعلى واقعنا المأساوي الذي نعاني منه.

٤- كشف أساليب اللعبة الدولية التي يمارس فيها الكبار الخداع والتضليل والعناوين البراقة لامتصاص نقمة الشعوب لمنعها من التمرد على واقعها.

٥- طرح البديل المتجسد بالفكر الإسلامي المتوازن مادياً ومعنوياً والذي يؤمن سيطرة قوة الحق مكان قوى الاستكبار والتسلط.

٦-مطاردة الدعوات الهدامة التي ابتكرها الاستعمار ونمَّاها والمتمثلة بالنعرات الاثنية البائدة كالفرعونية والبابلية والفينيقية... الخ.

٧- تحريض الشعوب الضعيفة ودعوتها إلي الثورة ضد حكامها المأجورين الذين ارتضوا أن

يكونوا دمىً متحركة في قبضة المستعمر، وبث روح التغيير فيها، وتبشيرها بالقدرة الأكيدة على فك قيودها إذا كانت مستعدة لتقديم التضحيات.

٨- التحذير من سلبيات الاكتفاء بالاسترخاء في أمجاد الماضي وظلاله وسط عالم يخطط الأقوياء فيه إلى المستقبل البعيد.

هذا لجهة المضمون، أما الأسلوب فقد جاد متناغماً ومتكاملاً مع المضمون، ومطواعاً لخدمته لإيصاله إلى المتلقي بطريقة إبداعية جذابة بعيد عن الغرابة والتعقيد، ويعود ذلك برأينا، للأسباب التالية:

١- سهولة الألفاظ ورقتها، وصياغتها في قوالب فنية إيحائية غير مباشرة ولكنها بعيدة عن الغموض.

٢- الموهبة الشعرية الفذة التي تتجلى: في امتلاك الشاعر لعناصر الشعر الخلّاق من ثقافة موسوعية، ومقدرة لغوية وافية، ونزعة نقدية إبداعية.

٣-النفس الشعري الطويل الذي ينساب انسياباً هادئاً.

٤- انتماء القصيدة إلى المذهب الواقعي لاهتمامها بالقضايا الاجتماعية والسياسية التي تعني جمهور الناس. لذلك لم يتوغل الشاعر بالرمز ولم يلجأ إلى الأسطورة.

٥- اختيار البحر الخفيف الذي يتجانس مع غاية الشاعر في توخي الهدوء وغزارة السرد.

وخلاصة القول فالقصيدة شاهد من شواهد العصر، على بطلان المدنية الغربية، القائمة على أشلاء الناس، في الدول النامية، وهي صرخة واعية، ومبهة في هذا العالم الأصم. ومما يزيد من أهميتها خصائصها الفنية الرفيعة التي تعكس ثقافة صاحبها، ومهاراته الإبداعية المتمثلة بجمال الذوق، وشفافية النفس، وجدية الكلمة البعيدة عن اللف والدوران[١].

---

(١) رامز حوراني - شعراء من بنت جبيل

القراءة السابعة عشرة

الهمّ الإسلاميّ في شعر السيّد محمد حسين فضل الله

د. شلتاغ (شرّاد) عبود

مقدمة

صلة السيد محمد حسين فضل اللّه بالعقيدة الإسلامية صلة حميمة منذ نعومة أظفاره. فهو من أسرة دين وعلم وأدب. وضع مفاهيم الإسلام وشبّ عليها، سواءٌ في بيئته اللبنانية الجنوبية، أو في نشأة التحصيل العلمي بالنجف الأشرف، وهي نشأة طالت أمادها واستوعبت بعمق في تلك البيئة التي امتازت بالحركة والحيوية المستمدة من تاريخها العريق بالصراع والمعرفة. ومن حاضرها المحاصر والمتحدي.

وعلى الرغم من أن كلَّ شيء في بيئته الأولى أو الثانية كان يستحثه على التحصيل العلمي الديني بجهد ودأب، فقد كان يستجيب لدواعي موهبته الشعرية المبكرة، فكان يقرأ ويطلّع على القديم والجديد مما يُنشر ويطبع، وكان - كما يبدو من شعره - شديد الولع بالتجارب الجديدة من الشعر الرومانسي ومن الشعر الحر بعد ذلك.

ومع تلك القراءات كانت الكتابة والنشر في الصحف والمجلات اللبنانية والبغدادية والنجفية، وكان له حضور شعري في المناسبات والحفلات التي كانت تقام في بيئة النجف ذات الحساسية الشعرية العالية، وهي مناسبات يغلب عليها الإهتمام بإثارة الوعي الديني منذ مراحله المبكرة الأولى في الخمسينيات.

وعلى الرغم من عدم تبلور الوعي الديني السياسي في السنوات المبكرة من العقد الخمسيني، فإن شعر السيد فضل اللّه ينبئ بنباهة ووعي معمّق يصحبه حس شعري مرهف، لعلّ السيد اكتسبه من قراءاته في الإتجاه الرومانسي خاصة في الوجه الإيجابي الثوري منه فضلاً عن الظروف الشخصية والسمات الذاتية لدى الشاب آنذاك، وهي ظروف لا نملك الوثائق التي تساعدنا

على فهم التجربة الشعرية التي بين أيدينا وعلى فهمنا للظروف السياسية والاجتماعية العامة في بيئة العراق ولبنان، بالإضافة إلى فهمنا لظروف الصراع الحديث بين الإسلام وبين أعدائه في الخارج وفي الداخل من بين أبنائه والمنتمين إليه.

والذي يلفت إنتباه الباحث في شعر السيد هذا الحس الشعري الجديد الذي لم يُوْلَفُ في البيئات الدينية العلمية التي غالباً ما تنشدُّ إلى التراث الشعري القديم. والّذين في بيئاتهم أو تأثروا بتوجيهاتهم وإن لم يكن هذا الأمر عاماً، بل قد تشذّ عنه بعض المواهب التي تخضع لدواعٍ ذاتية أو لدواعي التأثر بالتيارات الشعرية المعاصرة. والظاهر أن السيد، مع انتمائه للمؤسسة الدينية – اتجه اتجاهاً فنيّاً يغاير – إلى حد ما – الاتجاه الشعري الذي كان الجو الديني يباركه ويغذّيه. مثله مثل شاعر عراقي من معاصريه في بيئة النجف وهو الشيخ علي الشرقي الذي غلبت على بعض أشعاره المسحة الوجدانية، وكتابة المقطوعات ذات الطرافة والجدة بالنسبة إلى ما هو مألوف في البيئة العلمائية.

لقد استطاع السيد فضل الله بالشكل الشعري الذي كان يعد من أن يعبّر عن الهم الإسلامي في مرحلة مبكرة، كما أشرنا. على الرغم من أن هذا الشكل بلغته الشفافة وصوره المجنحة غالباً ما يناسب الأجواء الذاتية، وخاصة الطابع الحزين الذي يتغنى بالألم ويستمرئه ونعزل عن واقع الحياة ومشكلاتها إلى عالم الغاب والطبيعة والبحر والمرأة وما يشب معها ممن عواطف وتأملات. بينما حرص شاعرنا على توظيف لغة الشعر الوجداني (الرومانسي) وصورة لخدمة أغراضه وهمومه الإسلامية التي سنقف عند ملامحها في الصفحات التالية بشيء من الإيجاز.

على أنه من الملاحظ أَن هذه الهموم أخذت تتسع مع التطور الفكري والسياسي للسيد، إذ إن الهم الإسلامي كان فيه شيء من الحس القومي العربي خاصة في السنوات الأولى من الخمسينيات في أوج الثورة المصرية. ولا غرابة في أن يكون الهم الإسلامي ملتصقاً بالهم العربي لولا أنّ الهم العربي اتخذ – أو أُريد له أن يتخذ –وجهة أعطت ظهرها لعقيدة الأمة

ومقومات حضارتها.

مفردات الهم الإسلامي:

الحق أنه من الصعب أن يتسع صدر هذه الصفحات للحديث عن اهتمامات الشاعر كما تبدّت في الديوان، ولكننا سنكتفي بالوقوف عند المفردات التالية.

أولاً– واقع المسلمين في العصر الحديث:

الناس أصناف من حيث النظر إلى هذا الواقع وفهمه وعلاجه، ويهمّنا هذا الصنف الذي ينتمي إليه شاعرنا، وهو الصنف الذي يحترق ويتحول احتراقه إلى بركان وثورة حين يتملى مشاهد هذا الواقع وهو يحسه ويندكّ به في كل لحظة.

نجد هذا الاحتراق المتولد من النظر في الواقع في شعر السيد في مراحله الفكرية كلها، ولكننا نجدهُ على أشدّه في مرحلته الأخيرة، وهي المرحلة التي كتب فيها يومياته الشعرية في العقد الثمانيني، كما ترى في هذا المقطع من يوم الثلاثاء:

ربِّ هبْ لي مع الثلاثاء، أن أحمل همَّ الإنسان روحاً وفكرا
فتعود الحياةُ في خاطري معنىً يضمُّ الرسالةَ الطهرَ طُهرا
وتثور الخطى بدنيايَ تاريخ جهادٍ، أو أحياهُ سراً وجهرا
أن أهزَّ الأحلام حولي بروحٍ تدفع الحلمَ أن يحطم كفرا
أن تكون انطلاقة العمر في دنياي أن أعيش عمريَ حُرّا (١)

وما الإنسان الذي يحمل همه الشاعر إلا الإنسان المسلم الذي تريد القوى التي تسيطر على العالم اليوم أن تسحقه مادياً وتسلب روحه وفكره وحضارته. علي أن هذا الحمل يريد له السيد أن يكون في الروح والفكر والممارسة الجهادية اليومية، حتى يتجسد معنى الحرية عبر هذه الحركة والعطاء الدائم.

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط٢، ص: ٣٨٦.

ينظر الشاعر الرسالي الغيُور الذي يحمل همَّ الأمة فيراها تنتهبُها الأفكار الوافدة الحقودة، ولكنها تتلبس بالمفاهيم المغيرة والشعارات التي تستهوي الشباب وترسم لهم الطريق مفروشة بالتقدم والإزدهار، دون أن يدركوا إلى أية هوة سحيقة هم سائرون:

كلَّ يوم لنا طريق يُمنّينا ... بأفقٍ يسَمو عن التحديد
ومبادٍ تصارعت في حنايا ... نا.. فكلٌّ يُومي لنا بالمزيد
وجريْنا في البحر.. والأُفْق يقْتا ... دُ شعاعَ الصباحِ نحو الخُمودِ
وهدير الأمواج يقتحم الزورق ... والريحُ في هياجٍ شديدِ

هكذا مآل هذا الرحيل غير الواعي نحو أوهام الغرب والمبادئ الوضعية التي عرضت علينا بوجوه مجملة تخفي القبح الحقيقي لأحقاد الغرب ونواياه، هكذا اقتادت الأمواج والرياح الشديدة زورقنا إلى الحيرة والذهول والضياع دون الوصول إلى ساحل الأمان لذي وُعدنا به ومُنّينا به خلال قرنين من الزمن، ونحن نركض وراء سراب الحضارة الأوروبيّة.

كنا نفعل هذا ونترك وراءنا زورق الإسلام وهَدْيَ رسوله ونور شريعته، ولم ندر أننا نسير في زورق من وعود خلّب ومعاهدات من ورق ليس وراءها ضمير أو ذمّة:

وتركْنا في البِّر زْورقك الها ... دي، وسِرْنا بزورقٍ من وُعود
هكذا.. نَحنُ مسلمونَ.. ولكنْ ... بين كأس الهوى وحُمْر الخدود!!
ليس ندري من أمرنا غيْر أنّا ... نملأُ الأفْقَ ضجّةً بالعديد(١)

والشاعر لا تمرّ به مناسبة من مجد، أو ذكرى من تاريخ الرسل والأئمة إلا أغتنمها فرصة لتذكير الأمة بحالتها الخاملة التي لا ينبغي أن تكون عليها أمة ذات شموخ وماضٍ عظيم في رحاب الإسلام وخاتم الأنبياء محمد بن عبد اللّه(ع). ففي حديثه عن بطل الإسلام وإمام

---

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك بيروت، ص: 59 (يا رسول الحياة).

الأحرار علي بن أبي طالب (ع) يعرض للمفارقة الصارخةالتي عليها حالة الأمة، وهي تغذّ السير في ركب الرسالة وركب روّادها الأوائل، وحالتها المعاصرة التي استلبت منها كل طاقات الحيوية والطموح والريادة، فلم تعد للأبن وظيفته التي أرادها اللّه له، لم يعد المسلم مُسلماً كما أَراد له هذا الدين، بل دان الخمول والقابلية للاستعمار والاستلاب على كل مظهر من مظاهر الحياة:

ولكنّ العيون لم تعد تبصر هذا النور، بل تغبّشت لديها الرؤية وصارت تألف الظلام

يا إمام الأحرار.. لم يعدّ الدين .. بأعماقنا انطلاقَ شعور
يُلهبُ الشوط بالحياة ويقتادُ السرايا إلى النضال المريرِ
إنه عاد باهتاً.. لا نرى فيه سوى خفقة النزاع الأخير
وهو وحي النضال في كلِّ دربٍ وهونور الحياة في الديجورِ
وهو تاريخٌ أمةٍ لم يحرّرها سوى زهوِ مجدهِ المأثور
إنه زورقُ الحياة إلى الشا طيء. إن دَمْدمتْ رياحُ الشرور
إنه الكوكب الذي ينشر النو رَحياةً على الجناحِ الكسير(١)

ووحشة الخرائب وريح السموم القادم من الغرب.

هذا واقع الأمة بعد مرحلة طويلة من العسف والتغريب الاستعماري المباشر أسلمها بعده إلى أيدِ أمينة مخلصة للغرب.. وهذا موضوع المفردة التالية.

ثانياً ـ حكام.. وظلم.. وفساد:

لا يُعد ما عانته أمة الإسلام على أيدي الحكم العربي المباشر شيئاً إزاء ما قام به الحكام العرب

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك بيروت، ص: 67 (يا إمام الأحرار).

والمسلمون الذين ينصّبُهم الاستعمار بعد اختفائه وراء الستار. فالقتل والإبادة والتدمير وسرقة التراث ومحاربة مظاهر الوعي الديني تتم هذه المرّة عبر الغيرة والوطنية وبأيدي عربية مسلمة، والناس لا يفمون اللعبة ما دام الدستور يقول: (الإسلام دين الدولة الرسمي) وما دامت الإذاعة تخصص دقائق لقراءة القرآن، وربما ذهب الحاكم العربي أو المسلم إلى صلاة الجمعة، وربما ذكر اسم الرسول ص في حديثه، ولو بقي الحكم الأجنبي المباشر لاستمرت المقاومة ولاستعادت الأمة حريتها الحقيقية وسارت على هدى شريعة بارئها لو اختارت الطريق.

وشاعرنا فضل اللّه ذو حساسية خاصة من هؤلاء الحكام، فهو يعرف أسرار اللعبة، وهو يعرف أنهم موظفون بدرجة ملوك أو رؤساء جمهوريات أو وزراء، فتراه ينبري لتعريتهم، وتعرية الحاشية التي تحمِلُ وجوههم القبيحة، فيقول:

ويعيش سفاحُ الشعوبِ وخلفَهُ   زُمرٌ تعبُّ من الدماء وتسجُدُ
يئد المبادئ كيف شاء، وإن يشأ   ديناً، فخلفَ الستر دينٌ يُولدُ
والمالُ للطاغين خير ترةٍ   يُدني بها هذا، وذاك يبعَدُ
يهمي، فتنهلُّ الشفاهُ مدائحاً   بالعرشِ، إنَّ العرشَ ربٌّ يُعْبَدُ(!)

وبهذا تكونُ الأمة هي صنعة الفراعنة والممكنة للظالمين من رقابها والممهدة لهم بالإستحواذ على مقدراتها وسوقها سوق البهائم إلى حظائرها أو مذابحها. وهذا المعنى يردّده السيد الشاعر في شعره، ويشرك الأمة نفسها بالجرم ومساعدةة الظالم، حتى لتكون الحقيقةأننا نحن الظلمة الحقيقيون:

أيُّ ظلم لم تنتصرْ فيه للظالم مِنّا أسِنَّةٌ ونُصُوْلُ؟

---

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص: ٧٥.

من هم الظالمون؟ من أين جاؤوا؟ أين كانوا؟ ومن هو المسؤول؟

نحن سوط الطغيان، نحن سيوفُ البغي يستلُّها الدعيُّ الدخيلُ[١].

وما الظالم إلا فرد عادي من الناس، فجاء زيدٌ وعمرو فكالا له المديح وأغرى بالمال زيداً وعمْراً آخرين فكانا سوطه ويده التي يبطش بها وأداته إلى الاستعباد والتنكيل بالناس. وهذا ما يصوغه السيد شعراً ينبض بالإدانة والتبكيت.

ويعرض السيد الشاعر إلى حيل الحاكمين المحليين وأساليبهم في شراء الضمائر في هذا النموذج في شعر «التفعيلة» حيث يجري الحديث على لسان الحاكم «الوطني»، فيقول:

تعالوا إليَّ.. فبالمالِ كلُّ شعاراتنا

تداعبُ أخيلة الناشرين

وبالمال كلُّ قطاعاتنا

تجمّع «ثورية» الرافضين

وبالمال نخرسُ من كلّ رأي

صداهُ.. بفلسفة الصامتين

تعالوا إلينا وفوداً وفوداً

فإنانرّحب بالوافدين

لنا النفط.. ثروتنا.. فليكنْ

لنا باسمها قوةُ الواهبين

وإلا فنحن هنا.. بالرصاص

نُمَارس العوبة الحاكمين[٢]

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط1، ص: 79. (دار التعارف)

(٢) المصدر نفسه، ص:113.

حيث نوجه الاتهامات للأبرياء والمستضعفين فنتهمهم بالجاسوسية والعمالة للأجنبي، ويصدق الناس الأوباش لأنهم لا يسمعون وجهة نظر المظلوم ولا صوته. فمن أين له المنبر الإعلامي الذي يستطيع أن يعلن رأيه من خلاله؟!

سنقضي عليهم.. ألسنا هنا | لنخنقَ حرية الثائرين؟!
لنخْرسَ أصواتهم.. إننا | نخافُ الصدى من فم الهادرين
وماذا علينا.. إذا كذّبتنا | الحقائقُ.. في ثورة الصادقين[1]

لأن المال بيد والسلاح بيد والكذب والتزوير والتّمويه الإعلامي يظهر المجرمين أبطالاً أسطوريين ومنقذين عماليق!!

ثالثاً: داء وشهداء:

ضحايا هذا الظلم هم الشهداد الذين يؤجّجون اللهب في روح الشعر ويجعلون منه أداة بناء وتثوير. ويرسمون غد الأمة الذي يقتص من الظالمين في «تغابن» الدنيا قبل الآخرة. والسيد الشاعر العالم أقرب إلى هذا الجو، لأنه يشهد المظالم عن قرب ويتحسسها بعمق فرفاقه هم هؤلاء الضحايا والقرابين، فهم الشيخ عارف البصري وهم الشيخ عبد العزيز البدري وهم السيد محمد باقر الصدر وغيرهم كثير.. كثير في جحافل تترى وترقى إلى معارج الرضوان الإلهي المنشود.

والشاعر هنا لا يبكي لهذه القرابين بل تراه يستمد منها قوته ويراها مصابيح هدى لمسيرة الأمة ومعالم طريق من الصراع.. طويل. فهو يرى في هذه الشهادة سنة إلهية مستمرة.. فما زالت في كل يوم كربلاء وما زال في كل يوم يزيد وحسين، وشمر وحسين. فهو يخاطب الشهيد الصدر بهذه اللهجة الواعدة:

لأنّك قوة

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص: ١١٤. (دار التعارف للمطبوعات)

لأن بعينيكَ سرَّ ائتلاق النجوم

وفي روحك اليقظة الثائرة

وفي قلبك الحب للمتعبين

لكل عيون الأسى الحائرة

لأن العيون التي حدّقت

بعينيكَ في الثورة الهادرة

رأت فيك روحاً كمثل الربيع

يرشّ الضحى في الخطى السائرة(١)

هكذا كان الشهيد زاد الأمة في مسارها اللاحب... وسيبقى جرحها الفاغر الذي يبحث عن ثأر حتى يقال: يالثارات الشهيد!!

والسيد يُنطق الشهيد منذ مراحل الشعرية الشابة التي تفتحت على عالم من الشعارات الوطنية والقومية وذلك في عام ١٣٧١هـ، حيث يقول:

لا لن أموتَ.. ولن يجفّ دمي	حتى يرفَّ عى المدى علمي
لا لن أموتَ.. وفي دمي شعلٌ	من ثورة مشبوبةِ الضرم
وعلى بلادي نيرُ مضطهدٍ	وعلى الخواطر نيرُ محتكم(٢)

وللشهداء والشهادة نصيب في اليوميات الإسلامية التي كتبها السيد في مرحلة العطاء الثر من الدماء في العقد الثمانيني بعد الثورة الإسلامية المباركة في إيران، فقد ألهبت هذه الدماء الروح الشعري المتوقد في الأساس لدى السيد فصاغها أبياتاً من اللهب المقفى في مرحلة من العمر متأخرة في خضمّ العمل الجهادي والفكري الدائب، ولكنه هاجس الشعر ونوازعه، فتراه

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص: ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

يقف عند مقبرة الشهداء الذين كانوا وقود الثورة الإسلامية ونسغ الحياة فيها فيقول:

يا جنان الزهراء هلْ ينبتُ الدم اخضراراً مورّداً في الشهادة؟

يا لمجد الشهيد، يبني الرسالات حياةً على دروب السعادة

ويثير الدنيا ويدفع بالتاريخ حتى يعيش فيها جهاده

ويهز العروش حتى يخرّ التاجُ من عرشه ويُلقي قيادة

وعلى اسم التكبير عاشت سرايا الحقّ تبني لجيلنا أمجاده[1]

رابعاً - في الصراع الحضاري:

صراع الحق ضد الباطل صراع قديم إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، ما دام هناك بشر وما دامت هناك مبادىء يؤمن بها البشر ويكافح عنها الأعداء. صراع الإسلام ضد الكفر والظلام كان منذ اللحظات الأولى من ولادته حتى يوم الناس هذا، ابتداءً بالشرك الوثني ثم الضلال والحقد اليهودي حتى العداء الصليبي اليهودي المعاصر، ولعله من أقسى حالات الصراع وأكثرها استهدافاً للقضاء على الإنسان والفكر والتاريخ لأن الوسائل التي امتلكتها أوروبا المعاصرة وسائل تدميرية رهيبة علي شتى المستويات وهي تستغلها في حقدها على الإسلام و المسلمين.

وشاعرنا على وعي تام بأهداف هذا الصراع وأدواته، لذلك تراه يستحِثُّ الأمة على الوعي ويستنفر طاقتها في الرد للحفاظ على البقاء والدفاع أولاً ثمّ الانتقال إلى مرحلة العطاء والتأثير..

وهو يرى أنّ الأمة بكل قطاعاتها وشبابها خاصة إذا لم تدرك هدفها في الحياة ورسالتها في هذا الوجود سوف تكون طعماً سائغاً في حلبةالصراع الحضاري. وسوف ينتهي إنسانها وفكرها لتسود الأمم القوية الغالبة:

ليس يدري أنّ الشباب إذا لم

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص: ٢٥٠. (يوميَّات إسلاميّة).

يُلهبُ الشوط بالصراع العنيدِ
سوفَ يهوي إلى قرارات دنيا
هُ جريحاً في أفقه المحدودِ[١]

وصراع اليوم، وعداء الغرب اليوم للإسلام قد يكون مقنعاً بأقنعة من الود والتعاون أو التلاقح الثقافي ولكن غاياته النهائية هي الاستلاب والتغريب والمسخ انطلاقاً من الحق القديم ومن منطق القوي الذي يستأثر بمصير الضعيف ويعبث بقدراته:

لا يزال الصراعُ تلعبُ دور الشرّ فيه عصابة الشيطان
في مجال تجري السياسة فيه في سباق الأشكال والألوانِ
وعلى اسم الكفر المقنّع بالإسلام تسمو عبادة الأوثانِ
ويعيش الفقير في لعبة القوة في القهر في مدى الأشجان[٢]

وليس من مجال الشعر أن يخوض في تفاصيل الأساليب الاستعمارية القديمة أو الحديثة ولكنَّه ينبه –بلهجة عاطفية– إلى ا لخطوط العامة للتوجه الذي يسير عليه أعداء الأمة. ومن هنا تجد الشاعر ينبه إلى اللعبة الاستعمارية التي سميت بـ(الحماية) في الحرب العالمية الأولى، حتى لكأنّ الأمم مجموعة من الأيتام تحتاج إلى وصاية أوروبا إلى أن يحين سنّ رشدها!!

ومن عجب أنّ هذه اللعبة تتم في غفلة من المسلمين، لأنها زُينّت بلباس الاستقلال والحرية والازدهار الذي كان الغرب يعدُ العالم الإسلامي ويمنّيه به، حتى إذا تمكن من قتل أبطاله وتشريدِ ثواره والسيطرة على عقول شبابه من خلال تحكمه بمناهج التعليم ووسائل الإعلام والثقافة، قلب له ظهر المجن، وأعلن عن نواياه التي سبق أن تفوه بها الجنرال الفرنسي (غورو) حين وقف على قبر صلاح الدين وقال: (.. ها قد عدنا يا صلاح الدين). وهي الكلمة التي

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص: ٤١. (يا رسولَ الحياة).
(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٥٨.

قال مثلها القائد الانجليزي (اللنبي) حين دخل القدس: (الآن انتهت الحروب الصليبيّة)!!.

وإلى لعبة الحماية أو الوصاية هذه يشير السيّد:

خدعوها باسم الحماية وأمتدت يدٌ بالسلاسل الصمّاءِ

ترهق الشعب بالقيودِ وتهوي بسياط اللظى على الأبرياء

ثم عادت باسم التحرّر تدعونا.. لأَحضانها وراء غطاءِ

وربحنا استقلالنا.. وملأنا الأُفق بالشعرِ والهوى والغناءِ

وتوارى الدخيلُ خلف ستارٍ من نفاقِ الحكام والزعماء(١)

ثم كان التعبيد التدريجي لحضارة الغرب وكان معه التدمير التدريجي لحضارة الإسلام وتاريخه وخلقه وبنائه خلال خمسة عشر قرناً.. ومن المحزن أن اللعبة انطلت على كثير من الناس حتى يومهم هذا.

ردود الفعل:

أولاً – مع اللّه.. دعاء ومناجاة:

لا بد من غذاء للمسيرة.. فكان اللّه ربّاً وملجأ وملاذاً وموضع شكوى ومناجاة وقوة يستند إليها في حلبة الصراع.. وكان لهذه المفردة حقل واسع من ديوان الشاعر بعنوان (مع اللّه) جعله في الصفحات الأولى من الديوان إيحاءً بأنه يستمد قوته منه في الموقف من التحدي الذي يستهدف عباد اللّه ودين اللّه، فلا بدَ – والحال هذه – من العودة إلى اللّه ذاته وإلى دينه وشرعه بعد ذلك.

ويلاحظ على طابع الدّعاء في الديوان أنه ذو شقين: الشق الأول فردي والثاني جماعي يمثل صوت الأمة وصوت الجماعة الرائدة المؤمنة فيها.

---

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك – بيروت. ص: 71. (من وحي الميلاد النبويّ).

في الأول يبدو العبد المذنب الذي يطلب رحمة اللّه وغفرانه ويستمد منه العون على طاعته، حيث يبدو أثر الصحيفة السجادية واضحاً في هذا المجال. وهذا أمر غير غريب لأن السيد منذ صباه قد ألف أجواء الدعاء هذه نظراً لصلة أسرته وبيئته بأدعية أهل البيت. ومن أمثلة ذلك:

أنا راجٍ غفران ذنبي وإن ضجّ بنتن الذنوب مني الفضاءُ
وأنا من أنا؟ سوى الفقر للرحمة والعفو حسب قلبي الرجاءُ
أنت ربي وقد صنعت بنعماك كياني.. وفاضت النعماء (١)

وهذا هو الغالب في الديوان، ومعه يكون التوجه الجماعي نحو اللّه في مسيرة الكدح والجهاد والدعوة والوقوف بوجه الأعداء بوجوههم المتعددة كما يلاحظ في هذا النموذج:

أنت حسبي، يا ربّ إن جنّتِ الأهوالُ حولي من عاديات الزمان
كل عمري للحقّ، للخير، للإسلام، للنور في ربيع الجنانِ
فليكنْ ما يكونُ، ماذا يقولون؟ أنخشى ضراوة الأضغانِ؟
أبداً نحن جند دينك في الساحة نحيا لموعد الإيمانِ
إنها قصة الجهاد إذا اشتدت على الدربِ هجْمَةُ الطغيان(٢)

فالحس الجمعي الإيماني للجماعة المؤمنة يجعلها أكثر قدرة على خوض الصراع في غمرة من الإحساس بالمدد الإلهي والتسديد الإلهي الذي يُستنزل بالدعاء والصدق والوحدة.

ثانياً - الدعوة.. والعمل:

مر على أمة الإسلام حين من الدهر استمرأت فيه الخمول والكسل والاتكالية حتى صدقت

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط2، دار الملاك - بيروت. ص: 19إعترافٌ وابتهال.
(٢) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط1، ص :262 .

عليها مقولة (القابلية للاستعمار)، وكان يغذي هذا المرض أناس فهموا القرآن وفهموا الإسلام على أنه عبادة فردية منعزلة عن حركة الحياة، والأقسى من هذا أنهم يقفون في طريق العاملين والدعاة ويسمُونهم بصفات تنفّر الناس منهم، فصاروا عقبة في طريق العمل لا تقل عن العقبات التي يضعها العدو الأجنبي والعدو المحلي الذي يتمثل بالحكام وأتباعهم.

من هذا النمط البشري المثبط يسخر السيد الشاعر سخرية لاذعة حين يصور منطقهم في التعامل مع حركة الحياة ومفردات التحدي:

ويظلّون يهمسون تعالوا ننشد الأمن بين ظلٍّ وماءِ
إنها نعْمة الحياة.. اشتهاءٌ أريحيٌ اللّذاتِ فوق اشتهاء
ما لنا والدخول بين السلاطين فهذي طريقة الغوغاءِ
نحن لا نفهم السياسة فلنتركْ خطاها لعُصبةِ الزعماءِ
ولنسبّحْ للّه تسبيحة الخاشع في أريحية الآلاءِ
إننا ها هنا لنعبد في روح النبواتِ خالقَ الأشياء
ثمَّ نجري لنحضن الجنّة الخضراء حبّاً في هدأة الإغفاء[1]

وعن الذين يضعون العقبات أمام العاملين للإسلام الداعين دعوة الحق يكتب السيد قصيدة (علام الضجيج)، ويخاطبهم قائلاً:

علامَ الضجيج ؟
واذا فعلنا؟
وأنتم تثيرون أنى اتجهنا
غبار الطريق علينا
لأنا دعونا إلى اللّه فيما دعونا

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١٩ و ٨٦.

وأنا أردنا هنا

أن يظلّ الطريقُ بوحي الهدى يتغنى

ويعلوَ صوتُ السماءِ الحنونِ

وإن عربد البغي يوماً وُجنّا[١]

ويرى أن هذه سنة أخرى من سنن الله الاجتماعية، فكلما ظهرت دعوة للحق على ألسنة الأنبياء انبرى أصحاب المصالح والذين في قلوبهم مرض والذين لا تبصر عيونهم النور. انبروا بشتى الأساليب للوقوف بوجه دعوة الحق.. وها هي الأهداف نفسها وإن تغيّرت أساليبها من نمرود وفرعون وأبي جهل إلى رموز الكفر والضلال والفساد المعاصرة:

كالأساليب القديمة

كحكايات أبي جهل اللئيمة

عندما لوّنت الدعوة أجفان الحياة

بالشعاع الوادع السمح، بألطاف الإله

إنهم اليوم مثل أسلافهم يتفنّنون بالإشاعات وإلصاق التهم ومحاربة عباد الرحمن، ولكن صوت هؤلاء العباد يتحداهم بعنف:

غير أنا سوف ندعو للأساليب الكريمة

وستندكُّ مع الفجر

الأساليبُ القديمة

ثالثاً - معنى الإسلام وعظمته:

لا بد لحملة الهم الإسلامي من أن يوضحوا فهمهم القديم الجديد للإسلام بعدما عمل

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١٩ و ٨٦.

الغرب وأعوانه من المسلمين، على طمس معالمه ورسمه بصورة لا تغري بالإيمان به إن لم تشوهه وتأتي على كل جانب إيجابي بنّاء، فكان أن انبرى حملةُ الرسالة الجدد من الغرباء الذين يُحيون ما أمات الناس من سنة محمد ص لبيان عظمه الإسلام والخير الذي يبشّرُ به البشرية جميعاً إنْ هي سارتْ تحت لوائه. وإليك هذا البيان الشعري للإسلام:

الدين لو وعت الحياة معاشرٌ ... فكرٌ تُحرِّر باسمه الآراءُ
يدعو لتحرير الشعوب فليس من ... قانونه أن يقهر الضعفاءُ
أو ينحني شعب لسطوة غاضبٍ ... أو ينتشي ذئبٌ لتنحرَ شاءُ
ونظام حقٍ تلتقي بكيانه ... وبروحه روحيّة وإخاءُ
ومحبة تسمو لتنقذ عالماً ... من أن يحطم جانحيه فناءُ
وعدالةٌ تأبى طبيعة وحيها ... إلاّ بأن يتصاغر الإثراءُ
هذا هو الإسلامُ نهجٌ واضح ... للمهتدين ودعوة سمحاءُ(١)

وليست هذه دعاوى بل حقائق ينطق بها تاريخ الحضارة وسجل الأجيال التي قادت البشرية إلى شواطىء العدل والأمن والعلم...

إنه الإسلام دربُ العبقريات السخيّةْ
دربنا المشرق في ظل حياةٍ أريحيّة
في مدانا حيث يحيا الفكر في أرض ندية
حيث يجتاز الطريق الوعر في روحٍ رضيّة
ويثير النور في أعماق درب البشرية(٢)

(١) المصدر السابق نفسه، ص 59، ط1.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص 110و111، ط1.

وشتان بين الروح الشعري حين يؤمن بالمبادئ فيهبها قلبه وأحساسيه ويتفاعل خلاله الذّات والموضوع حتى ليبدوا شيئاً واحداً، (أنا مَنْ أهوى ومن أهوى أنا)، شتان بينه وبين العقلِ البارد الذي يحلل الأشياء بطريقةٍ منطقية محايدة!!

ومن المعلوم أن التبشير بمبادئ الإسلام هذه كان في بدايات الدعوة إلى الإسلام الحيوي والحركي فكرة غريبة اجتاحت إلى فترة من الزمن كي ترسخ جذورها في أوساط الشباب الذّين ألفوا الفهم الغربي عن الدين عامة وعن الإسلام خاصة.

رابعاً – أمل.. وثقة.. وإصرار:

منذ بدايات العمل الجاد حيث قلَّ النصير وقلّ من يعي وظيفة الإنسان المسلم في حياة الصراع المعاصرة، كان هناك أمل يحدو العاملين بَغدِ السيد لتحقيق الحلم، حلم أن تكون حرية الإنسان المسلم في ألاّ يعبد إلاّ اللّه، وألا يُطيع إلاّ اللّه أو من سار على هدى اللّه، وأن يكون همسه تعبيد الناس للّه وحده، وأن تكون كلمة اللّه هي العليا، ورسالته هي الشرع القائم بين الناس، وأن يُدحر الشيطان ويُرغم أنفه منذ البداية كان هذا الحلم:

ما زالت الأجيال.. في ملاحم الصراع
ولن يزال
هذا الدجى يعتصر الشعاع
ولم نزل نبحث عن حياةْ
عن أغنيات تنسج الصباح
عقيدة تحضنها الرياح
فتغزل الشروق
حُلماً حريرياً كخفقة العروق[1].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٨٣ و ٤٥ محمد حسين فضل اللّه، قصائدِ للإسلام والحياة، ط١، ص 83.

ومنذ البداية كان هناك الإصرار والتحدي والقوة المستمدة من ربّ القوى وناصر المؤمنين:

وهنا نحن أعين ترمق الفجر وأيدٍ تشلُّ كفَّ الحقودِ
سوف نجري ومشعلُ الحقّ يهدينا إلى نهجكَ العظيم السديد
وسيبقى صداك يُبدعُ الوعي بأعماقنا لفجر ولُوْدِ[١]

كان هذا في ذكرى المولدالنبوي حيث يستمد من الذكرى القوة والأمل والعبر، وهكذا كان الأمر في كل مناسبة تتعلق بميلاد الأئمة ع لأن في حياتهم عبراً وفي حياتهم قدوة للاستمرار والتضحية والترقب الصابر.

وقد لاحظنا كيف كان الدعاء مناسبة للتزود بزاد الشهادة والاستعداد لمراقي التضحية، وكيف كان اللقاء باللّه في لحظات العبادة الداعية فرصة للعبدّ المتشوق من الذات الواهبة القادرة العالمة المموفقة. وسوف نختم هذه المفردة بآخر مقطع من الديوان وهو يمثل حالة من حالات القوة والتحدي والإصراد الواعد، لأنه مقطع من رحاب الدعاء والتوجه إلى اللّه وطلب العون منه للتوفيق إلى المرتبة العليا، مرتبة العبودية والعمل على إعلاء شأن الدين ورفع لوائه:

أبداً.. سوف يشهد الكون، في تاريخنا الطهر، مصرع الشيطان وسنبقى في روعه القدس، من وحيك، نحيا انطلاقة الوجدانِ أنت ربُّ الحياة والموت، منك الخوف، في راحتيكِ سرُّ الأمان .

أبداً.. سوفَ يشهدُ الكونُ في تاريخنَا الطُّهرِ مصرع الشيطانِ
وسنبقى في روعةِ القدس من وحيكَ، نحيا انطلاقة الوجدانِ
أنتَ ربُّ الحياةِ والموتِ، منك الخوفُ، في راحتيكَ سرُّ الأمانِ...(٢)

---

(١) محمد حسين فضل اللّه، قصائد للإسلام والحياة، ط1، ص: 45.
(١) المصدر السابق نفسه، ط1 ص 263 .

شعر السيد ومعادلة الهدف والفن:

لو عبّر السيد فضل اللّه عن الهمّ الإسلامي المعاصر بلغة العالم أو السياسي أو المصلح الاجتماعي لما عُنينا بشعره، لأن الشعر فن له أصوله. وهي أصول لا تسلس القياد إلا لأهل الموهبة القادرين على الإبداع من خلال الكلمة الفنية.

إن هدفاً، مهما سما وعظم، لا يُمكن أن نتجاوب معه وننفعل بُرؤاه إلا إذا كانت الأَداة التي تصوره أداة فنية تراعي أصول الفن شعراً كان أو قصة أو مسرحاً.

وشعر السيد يحافظ على هذه المعادلة (الهدف – الفن)، حيث يتعانق الهدف العظيم والفن الأصيل والصدق الشعوري الذي يعشق الفكرة ويذوب فيها.

ولعل أوضح عناصر التجربة الشعرية عند السيد هي اللغة المتفردة التي توظف الطبيعة المتحركة وتستقي منها مفرداتها المأنوسة الهامسة. وهي لغة اعتمدها الشعراء الرومانسيون الأوروبيون والشعراء العرب الذين تأثروا بهم من أصحاب مدرسة الديوان والمهجر وأبولو. وتأثر السيد في هذا المجال باللغة الرومانسية تأثراً لا يجعل السيد شاعراً رومانسياً، لأن الرومانسية موقف من الحياة والمجتمع، وهو موقف يختلف عن موقف الإسلام الذي يعتنقه السيد. ولكن اللغة حيادية يمكن أن يوظفها أصحاب الرؤى والنظرات المتفاوت عن الكون والحياة.

وتتعانق مفردات الطبيعة مع مفردات الوجدان والأحاسيس والمشاعر ومفردات الموسيقى وأدواتها في لغة السيد شأنه شأن شعراء الإتجاه الوجداني.

وحصيلة هذا تقريب الفكرة والهم الذي يحمله الشاعر إلى نفوس المتلقين مما يجعل هذه اللغة عنصراً محبّباً إلى الشعر الهادف، لأَنَّ اللُّغة الصائتة الحادة واللغة التي تعتمد كلياً على القاموس القديم ربما لا تساعد على خدمة الفكرة وتقريبها إلى الإنسان المعاصر.

والعنصر الآخر من تجربة الشاعر هي الصورة، وهي عنصر أساس في قيمة التجربة وأصالتها وعمقها. والحق أن مخيلة السيد فضل اللّه مخيلة خصبة ومكثفة، إذ قلما تجد قصيدة أو مقطعاً من شعره يخلو من التصوير ولكنه في الواقع تصوير جزئي عبر الاستعارة أو التشبيه أو التركيب المعبر عن صورة مستحدثة. ويقل في ديوان السيد الصورة القصصية أو المشهد التركيبي وهو المشهد الذي تمثله صورة واحدة متنامية، كما يقل في الديوان صوت الحوار أو الاستفادة من الفنون الأخرى.

ولكننا نجد السيد يستثمر الرمز الموضوعي وهو الذي يستثيرُ التراث بما فيه من طاقات تفجر الوعي لدى الجمهور المسلم، خاصة الرموز الحية في نفوس أنصار أهل البيت من مثل رمز الحسين والرموز التي تمثل واقعة كربلاء، وما صاحبها من رموز للشر والحقد من مثل رمز يزيد بن معاوية والشمر بن ذي الجوشن.

وقد يعمد السيد إلى الرموز اللغوية من مثل: الدرب والذئاب والكلاب والزورق والضباب والظلام والنور والمستنقع والرياح، وهو يلتقي بهذا مع كثير من الشعراء المعاصرين والوجدانيين منهم خاصة.

خاتمة

وموسيقى السيد موسيقى هادئة رخية، وهذا الهدوءُ متأتٍ من اللغة الهامسة ومن البحور ذات النبر الرخي مثل البحر الخفيف الذي يستأثر بالكثير من قصائد السيد.

وبشكل عام فإن السيد يوفق بين عناصر الكيان الإنساني في تجربته الشعرية بشيء من التوازن فلا يطغى العقل على العاطفة، كما لا تطغى العاطفة على العقل بل يؤدي كلٌّ مكوّنٍ من مكوّنات الذات الإنسانية وظيفته، وهذا يتسق ونظرية الأدب وفق المفهوم الإسلامي، في الوقت الذي تغلو فيه مذاهب الأدب في أوروبا فيتجاوز العقل أو العاطفة أو الشعور أو اللاشعور على غيره من مكوّنات الوجود الإنساني، مما يجعل التجربة الفنية غير واقعية وغير معبّرة عن الكيان الإنساني ذي النسب المتزنة.

وفي الختام يمكن القول بأن الشاعر أعطى لهدفه العقائدي حقه كما أعطى للفن حقه من العناية والصدق والانفعال، وبهذا يتحقق المطلب المنشود في التعادل بين الهدف والفن.

ا لخاتمة

قصائد سماحة السيّد خارج المجموعات الشِّعريّة

١- أنا الغيبُ في الحِسّ!

٢- أيُّ عمر أيُّ ذاتٍ في دروب الخمسين

٣- في دروب السبعين

٤- يا لَطُهْرِ الصَّفاء

٥- رحماكَ في روحِ أُمِّي

٦- وحيداً وَقَفْتَ [١]

٧- شمسُ الهدايةِ كُوِّرتْ [٢]

---

(١) وهي آخر ما نظمه سماحتُهُ حتى إعداد هذا الكتاب وتاريخُ نظمها: 16 تشرين الأول 2004. الموافق 2- رمضان - 1426هـ.

(٢) في رثاء الشيخ محمد رضا آل ياسين المتوفى 1370 هـ. النّجف الأشرف.

أنا الغيبُ في الحِس!

(المتقارب)

أنا الغيبُ في الحِسّ
كمثل الحكايا التي تولَدُ الطفولةُ فيها
ويهفو الشّباب
كقصّةِ فجرٍ أطلّت رؤاهُ على الأُفقِ
في عتماتِ الضبّابْ
كما الحُلْمُ في همساتِ الجفون
يُهمهِمُ للشّمسِ
عند الغيابْ
كما اللَّيلُ يغفو على ساعِدِ الشواطىء
في همهمات ْالعُبَابْ
كما الزّمنُ الحائرُ المنحني على الكون..
في أُمنيات السّراب
كما الرُّوحُ تسمو مع الغيب
حتّى تُحلِّقَ في روعةٍ وآنجذابْ..

أنا ها هنا
استحثُّ الشُّروق
لِيُشْرِقَ قلبي بسِّر الشّهابْ
وأَمضي، وأمضي بعيداً بعيداً
إلى أَينَ
يا غيبُ؟
هل مِنْ جواب؟
هو السُّر، مهما دفعت الخطى إليه
فلن تلتقيه الرّغاب
هو الحبُّ
روحٌ ووحيٌ وعمقٌ
وومضَةُ نورٍ
ونجوى عَذَابْ
ويشمخُ أُفقٌ وتركُضُ أرضَ
ويهتزُّ كونٌ
ويضرى الخرابْ
ويبقى لعينيّ لمحُ الضّياء
يُداعِبُ في الحلم سّر السّحابْ
وأهوي مع العمقِ في الذّاتِ، حسّاً
وأمتدُّ وحياً بكلِّ الرحابْ
وأحيا مع الموتِ غيبوبَةً
تهدهدني بالأَماني العذابْ

أَنا السّر تبكي أَحاسيسه
وتضحكَ أَحلامه في العذابْ
غموضي وضوحٌ
وليلي فجرٌ
ونجواي تفتح لي أَلْفَ بابْ

كمثلِ الحكايا التي تلتقي الرؤى الخضر فيها
بوحي التُّرابْ...
وينطلقُ الوعدُ في كُلِّ حُلْمٍ
كما الحُبُ في كُلِّ قلبٍ مُذابْ..
حضنتُكَ كلمة سِرٍّ تغيب
تطوفُ بروحي عند الإيابْ...
ولكنني هائمٌ في الشُّروق
أُناجي الجمال وأَحسو الشّرابُ
وأَحياكَ في السّحرِ يملأُ قلبي
كما العشبُ يبدِعُ خضر الحُبَابْ...
ويبقى لذاتي عمق الحكايا
فتهوي القشور ويبقى اللُّبابْ...

أنا الكون

لا يجمدُ الحسّ فيه

ولا ينطوي في مداه الكتابْ

وأَنتَ صنعت لي الكونَ روحاً

تمزّق بالوحي كُلّ الثيابْ...

أنا الغَيْبُ في الحسّ، إنَّ المدى بعيد

ولكنني في اقترابْ...

هو اللّيلُ يطغى وتبقى الدّياجي

تشيرُ إلى الفجرِ عند الغيابْ...

شعوري نارٌ وروحي نسيمٌ
وقلبي ربيعٌ وعمري يباب
ويهمسُ لي العشبُ أنَّ اخضرار الولادة
سّر الذّهاب...
إلى أين يا عمرُ، هل من طريقٍ
إلى النُّور في تلعاتِ الهضابْ...
هو النَّهرُ يحمِلُ سِرَّ الذُّرى...
إلى العمقِ في همساتِ الصعابْ...
وتجري الينابيع نحو البحار
في لهفة من وراء الشّعابْ...
ويعدو بنا الموت
في لفتةِ الحياة إلى الخلدِ
في خطواتِ المآبْ...
ويبقى الجمالُ على دربنا
مع العشقِ في غمرةِ الإلتهابْ..
وأَنتَ ... وتهمِسُ كُلّ الشموس
هو النُّورُ في عتمات الغيابْ
هو العِطرُ في أُمنيات الورود
هو النَّبعُ في خطرات السّرابْ...
هو الحقُّ إن يعبث الوهمُ فينا

هو الحِسُّ في الغيبِ في كُلِّ بابْ...
وأنتَ ولا شيء إلا هُداك
فمنك الثّوابْ ومنك العقابْ...
ونمضي... وتهفو هموم النجاوى
وتهمس - يا ربّ - هل من جوابْ
وأنتَ الحقيقةُ في كُلِّ أُفقٍ
نحدِّقُ فيها أُمام الحسابْ...

محمد حسين فضل اللّه

١ / ربيع الأول / ١٤١٢هـ.

١٠ / أيلول / ١٩٩١م.

أيُ عمرٍ... أيُ ذاتٍ؟
في دروب الخمسين

(الخفيف)

يا لَعسْفِ السِّنين، يبهتُ فيها اللّونُ تذوي الحياةُ في الأَوراقِ
تتهاوى الرؤى، على صخرةِ الموتِ تموتُ الأشواقُ في الأَحداقِ
تخجلُ الذكريات - في قلقِ الرُّوحِ - وسرّ الضمير في الأَعماقِ
من خطايا الماضي، من العبثِ اللاَّهي، من اللغوِ في حديثِ الرِّفاقِ
أَيُّ عمرٍ، هذا الذي عاشَ في ذاتي غريباً في وحشةِ الآفاقِ
مُوْجَع الحِسِّ في مرارات احلامي العذارى في لهفةِ الأشواقِ
عاشَ بعض الطريقِ في رحلةِ الحزنِ، وما زال في الطريق الباقي
همُّهُ أن يُحدِّقَ النور في عينيه في أَريّحيةِ الإشراقِ
ويثير المدى لمعرفةِ روحٍ لا تُعاني من عقدةِ الإرهاقِ

أيُّ ذاتٍ هذي التي تركضُ الأَطماعُ فيها في أُمنياتِ النِّفاقِ
يأكل الشُّر روحها، ثُمَّ يلقي وحيها في مجامرِ الإِحراقِ
كيف أَسمو وفي تهاويلها السوداء، ما يتعبُ الضُّحى في المآقي
وعلى كُلِّ خطوةٍ في مداها حيرةُ الشَّوط في امتدادِ السِّباقِ...
غير أنَّ الذُّري تُطِلُّ على الوادي كما العشبُ في خيال السواقي
في التفات الشروقِ للأُفقِ بالنُّعمى، ليهفو للمبدعِ الخلاَّقِ
حيث طهر الروح المندّى بكلِّ الوحي في سلسبيلهِ الرقراقِ

أَنا أَهفو وفي حياتي شوقُ العطرِ للوردِ في الأَماني الرقاقِ
أَنتَ عمري، هل يولدُ الغيبُ في الحِسّ، مع السِّر في مدى العشّاقِ

يا غيوب الأَسرار نامت بعينَيّ الدّياجي، وغابَ عنّي رفاقي
كيف أَرنو إلى الشروقِ وقدعاشتِ غيومُ الحياةِ في أَعماقي
أَنا - ياربّ - ظامئ يركض الينبوع في روحِهِ وأَنتَ الساقي!!!

محمد حسين فضل اللّه
٢٦/ محرم/١٤١٢هـ.
٦ / آب؟ ١٩٩١.

في دروب السّبعين

يا لهاث الستين في خطوةِ السّبعين ماذا هناكَ في الأَعماقِ؟

عادَ كُلّ التاريخِ في عمري المكدود ذكرى تغيب في أَوراقي

واستراح الشّباب في غمرة الوجدان في أَريحيّة الأشواقِ

وتوارت طفولةُ الحبّ في الشَّيبِ تناغيه في الزَّمانِ الباقي

وأنا ها هنا أعيشُ الرسالات كما الضّوء في مدى الآفاقِ

استحِثُّ الصِّراع في ملتقى الفجر وأحياه جذوةً في احتراقي

لستُ ذاتاً تعيشُ للّهو في وحي اللذاذاتِ في هوىً واشتياقِ

لا يعيشُ الضَّباب في افقِ أَحلامي خيالاً في غمرةِ استغراقِ

أَنا في الشَّمسِ توقِظُ الصّحو في عيني نوراً يموجُ في الأحداقِ

يا لهاث السِّتين هل ترهق الروح الدياجي مع السنين البواقي ؟
أو تراني أَثير خطوي في السّاحةِ جرياً في موعدِ الإشراقِ
إنّها رحلة الحياةِ مع اللّه إلى أين؟ يا امتداد السَّواقي ؟
ربِّ، عمري، منك امتداداتُ دنياهُ إذا همهمت خيولُ السِّباقِ
أنا أهواكَ، التقي حبُّكَ السَّمحَ بروحي في موعدِ الإنطلاقِ
أنا أهوى الحياة في دربِ رضوانك إن أَبْعَدَ الطريقُ رفاقي

أَعطني من نداكَ ما يخصبُ الروح ويروي ظماي عبر الفراقِ

يا لُهَاثَ السِّتين هل يبلغ السبعين عمري بالجهدِ والإِرهاقِ

أعطني العمر للحقيقةِ أجلوها بعيداً عن الهوى والنِّفاق

هو كلُّ الطُموحِ لا العبث اللاَّهي ولا الزَّيف في الوجوه الرِّقاقِ

خطوةً خطوة متى أَبلغ الشاطىء يا موجُ في مداي الباقي

رحلةُ العمر – يا إِلهي – فيض من عطايا المهيمن الخلاَّقِ

وأنا ها هنا ابتهالُ خشوعٍ «ودموعٌ حبيبةٌ في اشتياقي» . . .

(الخفيف)

يا لَطُهرِ الصفاء...

وتمرُّ الغيومُ في الشّمس، ياللسّحرِ يهفو في أُمنياتِ الغيومِ
يولَدُ اللّيلُ في النَّهارِ، فللضوءِ سهومٌ على ارتعاش النّسيمِ
والمدى هائمٌ مع السِّر يمتدُّ على الرَّملِ في رياحِ السُّمومِ

أَيُّ كونٍ هذا الذي تلتقي الظلمةُ فيه بوشوشاتِ النُّجومِ
ثُمَّ يهمي الضُّحى من الفجر فالأُفق انفتاحٌ في رقةٍ وسهومِ
ويعودُ الغروبُ، في الشَّفقِ الحائرِ يوحي بكُلِّ وحيٍ حميمِ

أيُّ كونٍ، هذا الذي يولَدُ الإنسانُ فيه من قبضةٍ من همومِ
عاشَ فيها التُراب يحمل حزنَ الفجر في دمعةِ الظّلامِ البهيمِ
حيرةُ الفكرِ قد تُفتّح عينيها على النُّورِ في المدى المحمومِ
كُلُّ مأساتنا ضبابُ الغد الحيران في رحلةِ الزّمانِ القديمِ

يا ضفاف الشطآن هل يحضنُ الموج بقاياه في النِّداء الرَّحيم
هل تُناجي البحار في العمقِ وعي السَّطحِ في لحظةِ العناقِ الحميمِ
يا جبال التاريخ أينَ هي الوديان إن المدى كثير الغيومِ
أين تلك السُّهول تجري الخيول السُّمرُ في أَرضِها وراء التُّخومِ

لن يملّ الزّمان من جريهِ فينا مع الموتِ في الطريقِ العقيمِ
إنّها قضيَّة الحياة التي يُولَدُ فيها الخيال عبرَ الجحيمِ
وتُثير المنى مع اللّهب القدسيِّ في الرُّوحِ في ظلالِ النَّعيمِ
غيرَ أنَّ الوحول تُغرِقُ أقدامي فأهوي على أنينِ كلومي

يا لَطُهْرِ الصَّفاءِ، يا للمدى الرَّحبِ المنّدى، يا للفؤاد السليمِ
حسبُ هذا الحنين، للحبّ، للأضواء، للشوقِ في رياح السُّمومِ
أنّني تورقُ الرياحين في روحي وتمتدُ نعميات الكرومِ

أَنتَ سِرُّ الصّفاء، ياربّ، في الكونِ فهل التقيكَ عَبْرَ سهومي
حلّقتْ بي إليك كلُّ خيالاتٍ وطافت بالغيبِ كُلُّ همومي
أنا طفْلُ الحياةِ، تبكي أحاسيسي فأغفو على العذابِ الأَليمِ
ثُمَّ أهفو إلى الحنانِ الذي يهمي فينسابُ كالضُّحى في صميمي
قد تنوحُ الأحلام في حيرتي الظمأى، وتهوي على حصادِ الهشيمِ
أينَ أينَ الصَّفاءُ، ياربّ، هل أَحسو بقاياهُ في غيابِ نديمي

إنّها غفوةٌ وتهمِسُ لي الشَّمسُ وداعاً في وشوشات النَّعيمِ
ضمّني ضُمَّني إليك فما زلت أُعاني من العذابِ المقيمِ
حُلُمُ العمرِ أن تذوبَ نجاواي بنجواكَ في العطاءِ الكريمِ
أن تطوفَ الأسرار في وعي وجداني فأحياك في اللقاءِ العظيمِ

أنا حسبي، يا ربّ، أن يغسل الحبُّ خطاياي في السّماحِ الحليمِ!!

(الخفيف)
محمد حسين فضل اللّه
١١/ صفر/ ١٤١٢هـ.
٢١/ آب ١٩٩١م.

رحماكَ في روحِ أمّي [1]

(١) نُشِرت في كتاب «تحدّي الممنوع».

وتبقى الحياة
وتهرب مني جمالاتها
حكاياتُها
في طفولة عمري
غنائيّة الهدهدات الحميمة
أراجيح روحي التي يشهق الضياء
بهزّاتها
ويغفو العبير
على وحيها الضائع الأمنيات
وأمضي
وترحل بي الذكريات
تغيب طويلاً بوعي الضباب
وتشرق بسمة

وألمح كل عيون الحنان
وكل النقاء
وكل الصفاء
وسر الطهار
خيالاً يهلّ بروح الحقيقة
هي الأُم
أمّي التي يورق الخيال بكلماتها
رقةً وعذوبة
ورؤيا حبيبة
وتفتح للطفل في غمرة الضياع
دروباً غريبة

وتهفو وتثغو

وتحضن – في حيرة النظرات –

طفولتي الهائمة

ولثغاتي الحالمة

وأحيا مع النظرات

واغفو مع الكلمات

وتختصِرُ العُمْرَ ضمّة أُمّي

وقبلة أمّي

ولمسة أمّي

وإشراقة الحب

في روح أمّي

فيا للعبير الذي يرشف الضياء نديّا

بأجفان ورده

ويا للربيع الذي يبدع اخضرار المحبة

في كل شدّة

فينبض قلبي بكل الأماني
ويشدو شعوري بأحلى الأغاني
وتنفتح اللهفة الحانية
على الحسّ في الليلة الشاتية
لتنثر فيه بقايا الضياء
وتوحي له بانفتاح السماء
على الصحو في بسمات اللقاء
ويمتد في وعيه الطفل سر الشباب
عميقاً كعمق الجذور
التي يغسل النبع أعصابها
وتغفو على السرّ أهدابها

وتبقى هناك حكايا الليالي
عن الغد في أمنيات الدوالي
ويشرد بي الوعي
في رحلة الشرود
إلى الغيب في أُفُق الكلمات
وتحملني كلمة
للغيوب البعيدة
لأحيا هناك
بروحي وعقلي
على ضفة النهر
رؤيا جديدة

وتهفو ملائكة الغيب

حولي

وأحيا – هناك – تسابيحهم

وأغرق في الموج – عبر العباب–

وأبقى يحلّق فيّ خيال

بعيد بعيد

ويجذبني للمهاوي السحيقة

بعمق البحار

حكايا التراب

الذي يغسل النبع أقدامه

ويحكي له

في ظلام الليالي

أماني الشموس التي تمنح اللألئ في العمق

سرّ الضياء

فتحل – في غمرات الوحول –
بوحيِ الصفاء
وسرّ النقاء
وأنتِ تطوفين بي
في أغاني الأمومة
على كل أفق نقيّ
وفي كل وحي خفيّ
وفي كل طهرٍ نقيّ
مع اللّه
حيث يطوف الخيال
يحلّق... يهفو
يرقّ... ويحنو
ويخشع... يمتد في رحلة الشهود
يعيش مع الغيب
معنى الشهادة

كما الحسّ في الرؤية الواعية

كما النور في الصّحوةِ الصاحية

وأحيا معه

أذوب معه

ويُفرقني السرّ في الروح

يا للسعادة

فلا شيء إلاّ هُوَ

ولا عمق إلا هو

وأمضي وأمضي

هنا وهناك

وأحيا مع النبع
في أمنيات البحار
وأبصر كيف يطلّ النهار
وكيف تعيش الطيور
مع الخضرة الطّافرة
على العشب...
في كل هزّة غصن
على زقزقات البلابل
وافتح عيني
هنا. وهناك
على صبوات الجمال
ويشهق في داخلي
ألف حلم
وألف خيال

ويحملني التيه خلف سراب الصحارى

ويدفعني الليل

نحو النجوم البعيدة

ويوحي لي الضوء عبر الفضاء البعيد

بأن المسافة في رحلة السرّ

في وعي روحي

على خطوات الوجود

طويلة

وتبعدني عنه غيبوبة

المتاهات

في ألف أفق سحيق

بألف حكاية

عن الليل في كل كهف مخيف
وعن رحلة العمر بين الضباب
وعن زعقة الموج عبر العُباب
وأسمع كلمة
وتقفز نغمة
ويمتد في عمق حسّي
لحن الصفاء
إلى أين تمضي...
تتيه... تضيع
هنا الفطرة الصافية
هنا القصة الحانية
هنا في الشروق الذي يحمل السرّ
عبر الغروب

تعال إليه

لتلقى لديه

مع الفجر

ضمّة روح تغني

وبسمة حب

وحنوة قلب

وإشراقةً في صفاء الصفاء

فأحياه في لفتات الطفولة

في خطوات الضياء

على هزّة المهد

في روح أمي

وتُصغي ابتهالاتها لأنيني

وتخشع في همسات الصلاة

وأبكي وتبكي

بكاءً يشد بكاء

وتحنو عليَ

وتهفو إليْ

ويبتسم الطِّفْلُ فيّ

وأسمع في همسة الشكر صوتاً

يرش السعادة في كل كلمة

لك الشكر – يا ربّ –

وأعرف بالحس – معنى الصلاة

وسرّ الدعاء

وكيف يعيش وجودي

وكيفَ يطلّ الإله

عليّ، بآلام أمّي

حناناً ورحمة

وحباً ونعمة

وتبقى معي الفطرة الصافية

فلا شيء إلا هو

ويمضي الوجود ويمضي بعيداً

وتلقاه في كل سرّ العبير

بأحلام وردة

وفي كل معنى الجمال الكبير

ففي كل حمد يعيه الوجُود

يردّدحمدَه

تشم تسابيحه في جنان الخلود

وتحيا تهالُيلُه في غناء الوجود

وتوحي الطفولة في حضن أمّي

لهذا الشباب

الذي اخضر فيه الشعور

وعاش عى هينمات العطور

وحرّك كل خطاه

على الدرب

في خطوات الكهول

وتمضي الحياة
وتبقى بروحي
كلمة أمّي
وغنوة أمي
وتحيا طفولتي في الكهولة
عبر الشباب
وأبقى... ويبقى
معي الطفل في غمرات السنين
تهدهده الأم في شدوه
وتحضن عينيه في لهوِهِ
وتدعو له اللّه في حبوه
وتحميه من خطرات النسيم
تعوّذه بالإله الرحيم

فيا روح أمّي
الذي عشت في روحه كل عمري
ويا قلب أمي
الذي كان يخفق في نبض صدري
ويا صوت أمي الرخيم
بكل حنان
وكل عذوبة
ويا خفقة الحلم في لهفة العناق الحميم
ويا كل طهر الينابيع
في بسمات الصباحِ
ويا ألف حبّ يهل الحنان

فيخضر قلبي
بروح الجنان
أنا الطفل يحبو على كل عشب الحنان
أفتّش في الفجر عن وجه أمّي
وأبحث في الليل عن حضن أمّي
وأهفو إلى النفحات العِذاب
في غفوة الحلم المطمئن
بسحر العذوبة في لحن أمّي
وأجري هنا وهنا
في المكان
وفي اللاّمكان
وفي اللاّزمان

وأصرخ في كل شيء أراه

لأسأل

في كل حزن السؤال

وكل دموع الضياع

وكل لهاث الفراق

وكل مدى الغيب في غمرات الضباب

وتدمع عيني

ويلهثُ قلبي

ويأكلني كل جوع الحنان

إليها

إلى أين يا روح أمي

وماتت

ومات الذي كان يحبو

هناك على صبوات الطفولة

وأحسست بالطفل يصبح كهلاً

يعيش انحناءة شيخوختي

على كل درب الضباب الوجودي

مع الموت في خاطرات الرقود

ولكنني مع روح الشُروق
بقلبي
وذكرى الطفولة في كل دربي
أعيش مع الذكريات
وتبقى الحياة
وتهرب مني جمالاتها
وأغفو
وأبصر في الحلم
في رحلة الطيوف بعيني
جمالات أمّي
ويبقى ابتهالي وكل خشوعي
وكل الصلاة
ويحيا معي السر سَر الألوهة
يا ربّ أنت الرحيم
وأنت الكريم
لك الحمد
رحماك
في روح أمي

محمد حسين فضل اللّه

٣٠ حزيران ١٩٩٢

وحيداً وقفتَ!

وحيداً وقفت!

وحيداً وقفتَ
وصوتُك يهتز منه الزمنْ
ففي كل جيل صدى هادرُ
وفي كل أفق هدى سائرُ
وروحك توحي وتهتفُ بالسائرين
على الجسر، في ملتقى العابرين
هنا النهر يجري
ليصنعَ في كل صحراءَ نهرا
ليزرع في لهفة الرملِ نخلة
على الواحة الناعمهْ
مع النسمة الهائمهْ

تعالوا إليّ
ففي كل جرح نزيفُ دماءْ
ودعوة فجرٍ ووحي سماءْ
ومستقبلٌ واعدٌ للقاءْ
وموعد حب وفيضُ دعاءْ
تعالوا إليّ
ففي نبضة القلب يهتف قلبي
وفي خفقة الروح يشرقُ دربي
وفي رحلة الغيب يركض دربي
وفي الليل تهمس صوفيّتي
وتخشع نجواي في قرب دربي
هنا القمة الشّامخةْ
هنا الذروة الراسخة
هنا العمق ينفجر الخِصبُ رياً وخضرة

ويمتدُّ يجري ويزرع في فرحة الأرضِ زهرة
هنا الحب للناس، حب الرسالة
هنا العدل يصنع للكون سِرَّ العدالة
هنا وحدة الأمةِ الهادية
وترنيمة الخفقة الحانية
وسر المناجاة في اللحظة الواعية
وأفق النبوَّة في الحكمة الراعية
ندائي نداء الرسول الذي امتزجت

كل ذاتي بذاته

فكنت - كما قال - منه كما كان مني

فمنه البداية تركض في صنع أمة

تحلق تسمو وتفتح في كل قلب

حديث الرسالة

تجسد انسانها في الرسالة

وتصنع تاريخها في العدالة

وتمتد في الأرض في أمنياتِ الصّلاح

لتصلح فكراً

يحرك في الحق معنى الضياء

ويصنع جيلاً كمثل البراعم عند

الربيع

كمثل الورود التي تنفح روح العبير
تعالو إليّ
فلست من الأرض في كل معنى التراب
ولم أجر في ملتقى الطموح الكبير
ليصنع ملكاً.. ليدفعَ جمهوره للهتاف
ليقهرَ روحاً تعيش مدى الحلم فوق السحاب
ليسقطَ حُرّاً
ليستعيد النور في مقلتيه
ويسجنَ عقلا وراء الزنازين في الظلمات

التي تصنع الليل، تجتاح روح الضياء
انا ابن السماء التي تلتقي في معاني العلو الإله
لأشرب منه بكأسِ الصفاء
لأسبحَ في لطفه في بحور الضياء
مع الرحمة الحانية
مع القدس في الروعة السامية
لأصنعَ في الأرض معنى السماء

على وحدة في انفتاح القيم
ليصعد انسانها ألف قمة
تطل على الكون حباً ورحمة
تعالوا إليّ
الى العز في موقع العنفوان
الى كل حرّية في امتداد الزمان

وحيداً وقفتَ
وعيناك تستشرفان الغيوب
وتنفتحان على ألفِ جرح وجرح
وينزف جرحك دماً على التائهين
على ألف صحراء في التيه خلف الزمان
وكفّاك يا للعطاء الذي ينزل المطر
ويشرب مه الظماء
الذين يشيرون الى الغيبِ في لهفة السؤال
عطاشى الحقيقة

إلى أين نجري؟ وماذا لدى الروح
من صبوات الضياء
وللوعي صرخة جوعٍ يئنُّ بحزنِ الجياع
ويفتحُ فاه
ويهفو الى السرِّ في العمق خلف الكهوف

وحيداً وقفتَ
وأنت الذي تزحف الروحُ عجلى اليكْ
تحلّقُ تسمو تشدُّ الشموس الى
علم من عيون
وتفتحُ للعقل أفق الحياةْ

ليحيا ويبدعَ فكراً جديداً
ويصنع للكهف كوة نورْ
ويولج في الليل ألف نهارْ
ويطرد في الفجرِ حسَّ الضبابْ

وأنت هناك
تؤذّنُ حيَّ على الفلاح
تعالوا إليّ
هنا يا أحبايَ خيرُ العملْ
هنا الثورة اليانعة
التي تزرعُ الساحَ في ألفِ نخلة
وتصنعُ في كل صحراءَ نهرا
يفجرُ في الرمل روح الحياة
فيهتزُّ في الدرب عشب المراعي
فيغفو على حضنِهِ كل راعِ
هنا الأمن من كل عسفِ الذئابْ
هنا الري والشبعُ في صرخاتِ
الجياعْ

تعالوا إليّ
لنصنع للحب انسانهْ
وللعدل في الأرض ميزانهْ
وللحقِّ في الفكر عنوانَهْ
ونطردَ في الليل طغيانهْ

.. ونلقاك – وحدك – في مشرق
الشمس نوراً
يرشُّ على ظلمةِ الحقد حباً
ويفتح للروح في الحسِّ درباً
وينبضُ في خفقة الوعي قلباً
هو النور يا أيها السائرون
على صهوات الظلامْ

مع التيهِ في اللامكانْ

وفي اللازمانْ

هو النورُ يفتحُ في العقلِ كَوَّةْ

وفي الليل في لسعةِ البردِ جَذوةْ

وفي وقفةِ المجدِ للحق قوةْ

هو النور يا لهفة الوحي عبرَ النبوةْ

يحدقُ بالغيب في رحلة الشهود

ليصنعَ للغدِ دعوةْ

وحيداً وقفتَ

وفي مقلتيك تفوح الدماء

كما الورد في روعةِ الربيع

يزفُّ العبيرْ

دماء الشهادة

التي تصنع الورود

لتزرع في كل جيل الرسالة وردة

لتمضي المسيرةْ

تخطط للعزِّ خطَّ الكرامةْ

وتحضنَ بالحب روحَ الشهامة

وفي الغد للحق ألف أمَل

وفي الفجر يصرخ خير العمل

وأنتَ تهددُ تصرخُ يا أيها المؤمنون

تعالوا إليّ

ففي كلماتي سرُّ الحياةْ

وفي خطواتي دربُ النجاةْ

وحيداً وقفتَ

وأنت تخططُ في الكلمات

لتفتح للغدِ أفْقاً منيراً

يضيءُ به العقلُ للناسِ

حبَّ الحقيقةْ

ليزحف عرفانه

ويسمو بتوحيده في عروج الصلاةْ

الى اللّه في كل روح العبادةْ

ليطلق حرية الانفتاحْ

الى الأفق الرحبِ في اللازمان

وفي اللامكان
مع اللّه في كل وعدِ اللقاءْ

وحيداً وقفتَ
وأنت تضمُّ بروحِكَ روحَ الوجودْ
وتفتحُ للكونِ نورَ الحقيقةْ
على أفق الحس في الغيب في اللانهاية
وتصعد في النعْميات العذارى
الى قاب قوسينِ أو أدنى
الى ساحةِ القربِ
في الفيض حباً ومعنى
تحلّق كالحلم فوقَ السحابْ
وتنسابُ عند الشروقِ الشهادةْ
دماً تَرْعَفُ الروحُ في لحظاته
فيصبغ كلّ الشروقِ بلونِ احمرار
الدِّماءْ

فيوحي بأنّ الشهادةَ سرُّ شروقِ الحياة
وسرّ غروبِ الشفقْ
ليبقى الزمَنْ
يردد كل انفتاح الجديدْ
على الحبَّ حول صعودِ السموّ
الى الحق في كل درب الحياةْ
بروحية الزمن
ووَحي خشوع الصلاة
وسرّ الدعاءْ

كما تسجدُ الشمس للهِ
نور السماوات والأَرض
فللنور في الله كل معاني الضياءْ
وكل امتداد الشروق
وكلّ ائتلاف الحقيقةْ
في القلبِ
والروح في اللاحدودْ

(المتقارب)

(*) قصيدة في الإمام الحسين (ع) وهي آخر قصيدة نظمها سماحتُهُ تاريخ 16- تشرين الثاني 2004م. ونُشرت في صحيفة النّهار البيروتيّة عدد 22580 تاريخ: 26 شباط 2006 السنَّة 73.

في رثاء الشيخ محمد رضا آل ياسين المتوفي 1370 هـ نشرت مقدمة كتاب حواشي العروة الوثقى للشيخ آل ياسين رحمه الله.

شمس الهداية كورت

للسيد محمد حسين فضل الله

النجف الأشرف

قبس من الإيمان شعَّ فأطلعا شمساً تزيح عن الهداية برقعا
تتفجر الأحكام من أضوائها درراً بآيات الشريعة رُصِّعا
ويفيض كالسلسالِ من إشراقها بحر جرى فيه السنا وتدفعا
طلعت على الإسلام في ظلمائه فجراً تسامى في المعارف مطلعا
حتى إذا أحيا القلوب شعاعها أمداً وكانت قبل ذلك بلقعا
غربت فأظلم كل قالب بائس يأساً وأوشك فيه أن يتقطعا
وبكى لها افق الرشاد فارسلت عيناه في شفق الحياة الأدمعا

روض من التقوى يهزك قدسه مرحاً فيحلق منك قلباً ممرعا
ذبلت زهيرات الهوى بفنائه ونما به زهر الرشاد فأينعا
يسبقه من فيض القداسة منبع أضحى به كأس المعارف مترعا
وهناك روح رفرفت في جوِّه علوية تخذت فناه المربعا

تبدو به والطهر كلّل تاجها — نوراً يبدّد فيه ليلاً أسفعا
مذهولة بهوى الحبيب وعندها — شوق اليه طغى بها وتجمّعا
حتى إذا أذن الحبيب بقربها — منه وأرسل وحيه كي تسمعا
طارت إليه وللقداسة أنّة — في أُفقها منها الفؤاد تصدعا
وهناك المحراب في ترتيلها — يختال حيث علا بها وترفعا
يبدو وقد بانت عليه كآبة — خرساء أقسى ما تكون وأفظعا
فيض من الألطاف فاض مرقرقاً — كالسلسبيل على الفؤاد فأمرعا
قد طاب منهله وطاب موارداً — للشاربين وطاب منها منبعا
علم تخيّره الإله لدينه — علماً فكان بحفظه متولعا
قد شاد في العلم الشريف قواعداً — كانت لطلاب الحقيقة مرجعا
وأبان نهج الحق صبحاً مشرقاً — ببيانه ودعا اليه فأسمعا
وجرى على سنن النبي فكفه — كالغيث بل كانت أعم وأنفعا
وحنانه فسل اليتامى من جلا — عنهم تعاستهم ومن قد أشبعا
ستراهم والدمع ملء عيونهم — يبكون منقذهم أسىً وتوجعا

بحر بأحكام الشريعة زاخر — يسقي المواهب منه كأساً مترعا
سعدت به أُم المعاهد مصدراً — في العلم يروي الظامئين ومنبعا
حتى إذا غاضت منابعه غدا — من بعده روض الحقيقة بلقعا
قد كاد يقفر بعده لو لم يجد — من قادة الإسلام روضاً ممرعا
شادوا قواعده على اسس التقى — فسما وطال بمجده وترفعا

أأبا العقيدة والعقيدة حرة ... قد كنتَ روض ربيعها والمرتعا
فقدتك حرَّ الرأي فيها ما اتقى ... في اللّه انساناً هناك ولا رعى
قد شيعتك وكنتَ خير مجاهد ... يهدي بها الدنيا طريقاً مهيعا
ماذا أقول وقد خرست ومقولي ... ظام وقلبي بالمصاب توزعا
قسماً بقدسك وهي حلفة صادق ... رقت فرقٌّ لها الفؤاد موقعا
ان الردى بك قد طوى آمالنا ... وأسال من جمر القلوب المدمعا
وطوى نفوساً كنتَ بلسمَ جرحها ... في النائبات وفي أساها مولعا
والمنبر المشكول ودَّ بأنه ... لو يستطيع مشى اليك فودَّعا
ومعاهد الإصلاح وهي ثواكل ... تبكيك إذذ قد كنتَ فيها مجمعا
هتفت بك الأكوان وهي مآتم ... ونعتك والإسلام فيمن قد نعى

أعزز أبا الحسن الزكي على الهدى ... أن لا تجيب نداءه لما دعا
قد كان يعهد منك قلباً واعياً ... في الحادثات وقد دعاك فأسمعا
ورآك داعية له ومبشراً ... فيه كنتَ له جناباً ممرعا
والآن عاد وقد توارى قلبه ... في اللحد حيث طووه فيه وأُودعا
لو لم يجد في (المرتضى) علماً به ... يسمو لخَرَّ من الأسى وتصدَّعا

فهرس الموضوعات

المحور الثالث:

المحور الرابع

المحور الخامس

المحور السّادس

المحور السابع:

المحور الثامن

المحور التّاسع

المحور العاشر

المحور الحادي عشر

المحور الثاني عشر

المحور الثالث عشر

المحور الرابع عشر



مطارحات
في الشعر والفن والأدب

ISBN 9953-60-018-X
9 789953 600185